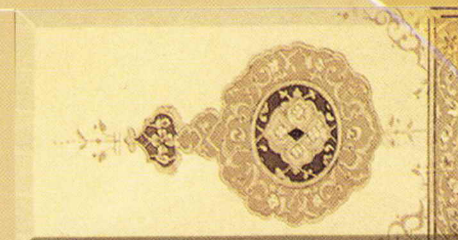
شلتاغ عبود



قضايا إسلامية معاصرة

منهج الإمام السجاد

في التوحيد والسلوك والتربية

دار الهادي



منهج الإمام السجاد عليه السلام

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا إسلامية معاصرة

منهج الإمام السجاد

في التوحيد والسلوك والتربية

شلتاغ عبود



للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أكرم الخلق محمد وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار.

وبعد..

فهذا جهد متواضع أستجيب به لفكرة كنت قرأت عنها في شبابي للشيخ مرتضى آل ياسين (رحمة الله عليه) وهو يقدّم لكتاب الأستاذ السبيتي عن عمار بن ياسر.. وخلاصة تلك الفكرة أن القيم الأخلاقية إذا عرضت متجّسدة في سلوك بشري وشخصيات رسالية معلومة لدى الأمة تكون أكثر وقعاً في النفس، وأكثر تأثيراً فيها، بينما تكون هذه القيم باهتة إذا عُرضت بصورة تجريدية عائمة أو منطقية صارمة بعيدة عن الشخصيات التي تحملها وتتحرّك من خلالها.

ويبدو أن هذا مبدأ تربوي يصدق في تأثيره العام، وتستجيب له النفس الإنسانية سواء في حالات الطفولة أو الشباب أو الكهولة.

وأعتقد أن التوجه إلى تجسيد قيم الإسلام الأخلاقية في ميادين الحياة العائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد آتى ثماره في مسيرة الأمة الإسلامية في العقود الأخيرة من هذا القرن.. ومن المؤكد أن الأخوة الأفاضل المضطلعين بالمسابقة المخصصة للإمام زين العابدين (عليه السلام) قد نظروا إلى هذا التوجه، وكأنهم يريدون بعملهم المبارك هذا مواصلة الطريق التربوي الهادف إلى بناء الأمة من خلال عرض حياة أجلة رموزها ومنارات هداياتها.

والحق أن حياة الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) حياة ثرية في عطائها، عميقة في أثرها، قادرة ـ إذا تمثلتها الأمة ـ على زرع بذرة التغيير،

والتعرف على أساليب التغيير كذلك.

فقد علمتنا خطوات الإمام كيف يتعامل المسلم الرسالي مع الواقع، وكيف يتكيف مع ضغوط الواقع، لا للرضا به والاستسلام له، ولكن للعمل على تغييره، ولو لمدى أبعد من عمر الجيل الواحد.

لقد علمتنا حياة الإمام أنه لا بديل عن العمل للإسلام في مختلف الظروف، وشتى الملابسات، ولكن الذي يتغير هو أسلوب العمل، وأدوات العمل. أما الهدف فذلك نذر في الرقاب، وذلك من الحياة التي وُهبت لنا، وثمن الرحمة الإلهية التي أُحطنا بها والتكريم الرباني الذي حبانا الله إياه.

ولعلَّ في هذا المنهج عبرة للذين يعتقدون أنهم بمنجاةٍ من غضب الله، إذا اعتذروا له بضغط الظروف وقسوة التحديات دون أن يبحثوا عن سبل أخرى بديلة للعمل، وبنفس القوة والثقةٍ والأمل الذي كانوا يعملون به في وقت سابق حين كانت الظروف أقلَّ ضغطاً والساحة أسهل تحرّكاً.

إن المؤمن الرسالي لا يعدمٍ الوسيلة التي يخدم بها عقيدته، حتى ولو كان في أشدّ الظروف حرجا. وهكذا كان الإمام إبان الضغط الأموي والمراقبة الأموية. لقد التجأ إلى الدعاء. ولكن أيّ نوع من الدعاء؟ وأيّ طابع لهذا الدعاء؟ وأية قيمة نفسية وفكرية وفنية لهذا الدعاء؟

إنه الدعاء... اللهيب المتوقّد الذي أشعل النار في بلاط الظلم الأموي، ولو بعد عشرات السنين. وإنه الأداة الوحيدة التي كانت متاحة للإمام، فاستثمرها بكل جوارحه، وبكل ما أُوتي من صدق وإيمانٍ وفن.

هذا الدعاء هو الذي وقفنا عند الخطوط المضمونيةٍ له، وتأملنا طوابع هذه الخطوط أو مدى أثرها في النفوس التي تلقتها وأثرّها في الأجواء التي ألقيت فيها. كما وقفنا عند الأدوات التعبيرية التي وظّفها الإمام لجعل مضامينه أكثر غوراً وأبعد تأثيراً في تلك النفوس. أي أننا وقفنا عند القيم

الفكرية للصحيفة في الفصول الستة الأولى وهي:

- الإمام والصحيفة.
- مفهوم الدعاء في الإسلام.
- العرفانية الربانية.
- منهج يومي للسلوك.
- البعد الأخلاقي في الصحيفة.
- البعد السياسي.

أما الفصل السابع (الصحيفة والنفس الإنسانية) فكان لرصد القيم العاطفية والنفسيّة. في حين عكفنا في الفصل الثامن على دراسة القيم الجمالية في أسلوب الصحيفة.

وإني لأشعر أن ما قدمتُه ما هو إلاّ إطار عام لمشروع أضخم يمكن أن يقوم به طلبة العلوم الدينية، أو الدراسات العليا في جامعاتنا، خاصة بعد أن أُتخمت أسواقنا بالدراسات التغريبية التي تبرز الفترات المنحرفة من العصور الإسلامية، بما فيها من أدبٍ لاهٍ أو كاذبٍ أو مُدار، في حين ظل الأدب الهادف بعيداً عن الأضواء بحجة أنه أدبُ مواعظ وأخلاق. وغاب عن هذه الدراسات أن أدب المواعظ والدعاء إذا ما عُرض بإهاب فني مبدع، وبلغة أدبية مؤثرة يتسامى بفكرته ومنهجه وأسلوبه على ما شهدنا من أدب لا يحركه إلاّ الطمع، ولا يقف وراءه فن أصيل، ولا إبداع مؤثر.

نرجو أن نكون وُفقنا إلى إثارة الهمم لدراسة أدب الإمام السجّاد من خلال أدعية الصحيفة دراسة منهجية معمّقة.

ومن الله نستمدُّ التوفيق.

د. شلتاغ عبود



الفصل الأول

الامام والصحيفة



اقتضى منهج البحث أننا قبل الحديث المفصل عن الصحيفة السجادية من حيث موضوعاتها وخصائصها الفنية، لابدّ أن نقف عند حياة منشئها الإمام علي بن الحسين الملقّب بزين العابدين أو السجّاد من حيث نشأته وبيئتُه وعصره والمشهور من صفاته. كما يحسن الوقوف عند الظروف العامة التي كتبت فيها الصحيفة والطرقٍ التي وصلت بها إلينا.

وعلى الرغم من أن هناك كثيرا من الدراسات حول حياة الإمام، والظروف التي أحاطت به، إلاّ أننا لا نستغني عن النظر في هذه الحياة وظروفها، لأنها تساعدنا على فهم (الصحيفة)، وفهم صلتها بحياة الإمام وتمثيلها لنفسيته، كما سنلاحظ.

على أننا في هذا الفصل التمهيدي نريد الإيجاز ما أمكن لأن الهدف الأساس هو الوقوف عند الأثر الفني والنظر إليه من زواياه المختلفة.

نسب الإمام وولادته:

هو الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، ينتسب إلى البيت النبوي العريق الذي طهّر الله أهله، وأذهب عنهم الرجس، حين قال: (إنّما يريدُ الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهّركم تطهيرا)[1] والذين قال فيهم الإمام الشافعي (رضي الله عنه):

يا آل بيتِ رسول الله حبُّكمُ   فرض من الله في القرآن أنزلَهُ
كفاكمُ من عظيم القدر أنكم   من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له[2]

ومن المعلوم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) قد عُنيَ عناية خاصة بأهل بيته، وأدّبهم بأدب ربّه، وزقّهم العلم زقاً، وأوصى بهم أمته في حياته، وفي لحظة وفاته خاصة، وذلك حينما قال: «إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي»[3].

وكلنا يعرف كيف نشأ علي بن أبي طالب (عليه السلام) في حجر

الرسول (صلّى الله عليه وآله) منذ صباه، وكيف نشأ الحسين بن علي وابن فاطمة بنت الرسول، كيف نشأ هو وأخوه الحسن في حجر الرسول. وكلنا قد قرأ الرواية التي تقول إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان يسمح للحسن والحسين أن يركبا على ظهره، حتى أن واحداً من الصحابة علّق على هذا المشهد بقوله: نعم المركوب، فقال الرسول (صلّى الله عليه وآله): ونعم الراكب!![٤]

في هذا البيت الكريم وُلد زين العابدين علي بن الحسين عام ثمانية وثلاثين للهجرة. وهذا يعني أنه رأى جدّه علي بن أبي طالب الذي استُشهد عام أربعين للهجرة.

عصره وبيئته:

السنتان الأخيرتان من انتهاء الخلافة الراشدة وتسلّم الأمويين السلطة مرحلة خطيرة في تاريخ الإسلام، حيث انتقل الحكم الشوروي إلى ملك عضوض، وعادت الجاهلية في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية.

فقد حاول معاوية بن أبي سفيان أن يُلهي القبائل بعضها ببعض، وشهدنا هذا في دراستنا لشعر النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل، وعرفناكيف كانت الدولة الأموية تغري بهذا، وتشجّع عليه.

وعندما مات معاوية أوصى بالخلافة لابنه يزيد دونما استشارة أحد من الأمة، بل أكره الصحابة وأولاد الصحابة على المبايعة لابنه. وغني عن الذكر أن يزيد معروف فسقه وفجوره وشربه للخمر ولهوه. قال المسعودي في مروج الذهب: (وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادم على الشراب. وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربةً تروّي مشاشي   ثم مِلْ فاسقِ مثلَها ابنَ زيادِ
صاحب السرّ والأمانة لـدي   ولتسديد مغنمي وجـــهادي[٥]

وكانت أعظم جريمة قام بها يزيد في حكمه الذي لم يدم أكثر من ثلاث سنين، هو قتلُهُ الإمام الحسين (عليه السلام) ريحانة رسول اللّهِ (صلى اللّه عليه وآله)، ثمّ استباحته المدينة المنوّرة في وقعة الحرّة التي قتل فيها خلق كثير من بني هاشم وسائر قريش والأنصار. وقد نهب المدينة واسترقّ أهلها وسباهم وفعل المناكير بنسائها. ثمّ ثلّث جرائمه برمي الكعبة بالمجانيق حيث النار والنفط وغير ذلك من المحروقات.

وفي ذلك قال أبو وجزة المدني:

ابنُ نُميرٍ بئس ما تولّى قد أحرقَ المقامَ والمصلّى[٦]

في هذه البيئة، وهذا العصر الذي سحب البساط فيه من الخلافة الإسلامية والحكم القرآني، حيث انتقل الحكم من القرآن إلى السلطان الحاكم بهواه، في هذا العصر نشأ الإمام زين العابدين، فرأى أهواله ومآسيه.

وقعة كربلاء والإمام السجّاد:

من المعلوم تاريخيّاً أن الإمام الحسين رفض بيعة يزيد الذي يعرف فسقه وفجوره. ولكنه لم يتحرّك إبان حكم معاوية للعهد الذي قطعه أخوه الحسن عليه السلام وقت الصلح مع معاوية. ولكن ما إن مات معاوية حتى تحرك الحسين رضي اللّه عنه نحو الكوفة وكان معه عائلته كلها، وكان معه ثلّة من أصحابه وأنصاره بلغ عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً، فضلاً عن النساء والأطفال.

وكان زين العابدين مع والده في الرحلة، ولكنه كان مريضاً مقعداً، لم يستطع الاشتراك في القتال. وكان عمُرُه آنذاك اثنتين وعشرين سنة، إذ إن

وقعة كربلاء حدثت عام ستين للهجرة في العام الأول من خلافة يزيد.

لقد رأى الإمام السجاد بأم عينيه مصرع والده الحسين ومصارع أعمامه وأبناء عمومته، ومشهد الخيول الأموية وهي تدوس على جثثهم، كما شهد الرؤوس الشهيدة وهي تحمل على أسنة الرماح إلى دمشق.

لقد قتل جميع أهل البيت وأنصارهم ضحى العاشر من محرم عام ستين من الهجرة، ولم يبقَ إلا النسوة والأطفال والمريض السجّاد الذي لم يقوَ على النهوض. وكان عبيدُ الله بن زياد قد همَّ بقتله حين وقعت المشادة بينهما، وهي المشادة التي يرويها ابن سعد في الطبقات الكبرى: (قال ابن زياد: ما اسمك؟ قلتُ: علي بن الحسين. قال: أو لم يقتل الله عليّاً؟ قال: قلتُ: كان لي أخ يُقال له علي أكبر مني قتله الناس. قال: بل الله قتله!! قلت: الله يتوفى الأنفس حين موتها. فأمر بقتله. فصاحت زينب: يا ابن زياد، حسبك منا ما فعلتَ بنا. أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منّا أحداً؟ أسألك بالله ـ إن كنت مؤمناً ـ إن قتلته فاقتلني معه!!)[٧]. وكان أن استثنى ابن زياد عن قراره بقتل الإمام.

ثم يرحلُ الإمام مع السبايا من النساء والأطفال على نوق عجف إلى الشام، ويلتقي بيزيد الذي لم يكفه قتل الحسين، بل وضع رأسه أمامه في إناء، وأخذ يشمت بقتل آل محمد (صلى الله عليه وآله). وهناك في مجلس يزيد تجرأ رجل من أتباع يزيد أن يقول: (إن سباءهم لنا حلال. فقال له علي بن الحسين: كذبت ولؤمت ما ذاك لك إلاّ أن تخرج من ملتنا، وتأتي بغير ديننا)[٨].

كل هذا شهده الشاب، وكل هذا كان يختزن في ذاكرته وقلبه، ويملي عليه صورة العيش التي سوف يعيشها فيما يلي من السنين، وصورة التعامل الاجتماعي والسياسي التي سوف يضطلع بها.

ثم يعود ركب الإمام والسبايا إلى مدينة جدّه رسول الله، ليمكث خمساً

وثلاثين سنة حتى يتوفاه الأجل عام خمسة وتسعين للهجرة. هذه هي المرحلة الخطيرة التي تحرك فيها الإمام تحركا فريدا بناء على ضغوطها وفرصها.

اضطلاعه بمهمة الإمامة:

كان يمكن للإمام أن يلتزم الصمت، ويركن إلى الهدوء، ولكن الظروف التي تلت مقتل الإمام الحسين كانت صاخبة ودموية، حيث تحركت الجماهير والقواعد الشعبية في العراق والمدينة ومكة بالمطالبة بدم الحسين، فكانت الثورات التالية:

١ ـ ثورة التوابين بالكوفة عام ٦٥هـ .

٢ ـ ثورة المدينة في العام نفسه.

٣ ـ ثورة المختار الثقفي عام ٦٦ هـ .

٤ ـ ثورة مطرّف بن المغيرة عام ٧٧ هـ .

٥ ـ ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١ هـ .[٩]

وخلال هذا كان سيف الظلم الأموي مصلتاً، وكانت المراقبة شديدة على تحرّكات الإمام، فكان عليه أن يتحرّك بحذر، فأخذ يتحدّث عن الظلم ويجيز الثورة عليه، ولكنه لم يشترك في تأييد ثورة من هذه الثورات علنيا وبشكل سافر.

ولم يكن صحيحاً ما يشاع من أنّ الإمام عكف على العبادة، وتخلى عن مسؤوليته القيادية، بل الصحيح أنه غيّر نوع العمل، ولم يترك العمل نفسه.

لقد رأى الإمام أن الأمة بعد فشل ثوراتها ركنت إلى اليأس، وألجم لسانها الخوف والرعب والقتل والتدمير الذي كان يمارسه الجيش الأموي، فأراد أن يشدها إلى الله، وإلى سيرة رسوله وحياة الأئمة والصحابة في مرحلة النقاء الأولى. فكان أن لجأ إلى الأسلوب التربوي، وكان ثمار ذلك

كله الصحيفة التي سوف نقف عند معالمها.

على أنه لم يترك التحرك السياسي الخفي الذي كان يحرّض على الثورة، ويجيز الوقوف بوجه الظلم. وكان في ذلك كله يلهب أحاسيس الأمة ويشعرها بالإثم من جراء سكوتها على مقتل الإمام الحسين عليه السلام .

فهذا جانب من خطبته في أهل الكوفة بعد استشهاد والده: (أيها الناس ناشدتكم الله، هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه، فتبًا لكم لما قدّمتم لأنفسكم بأي عين تنظرون إلى رسول الله، إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي، فلستم من أمتي)[10] .

ومن مظاهر تحرك الإمام الذي يُشعرنا باهتمامه بأمور الأمة ومصيرها، وحالتها التي آلت إليها، نهضة الإمام بمسؤولية الاجتهاد واعمال الرأي لمواجهة القضايا التي فرضها اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى إبان توسع الفتوحات شرقاً وغرباً[11] .

فلقد تحلق حوله طلاب العلم في مسجد الرسول ليختط لهم منهجاً يواجهون به مشكلات الحياة الجديدة والصراع الفكري الجديد مع مصادر الفكر الوثني في الشرق والنصراني واليوناني في الغرب آنذاك. فكان عمله هذا بداية للجامعة الإسلامية الفقهية التي سوف يضطلع بأعبائها من بعده ولده محمد الباقر، وحفيده جعفر الصادق عليهما السلام .

وكانت الوظيفة الثانية التي تدل على تفاعل الإمام مع الأحداث، واهتمامه بمصير الإسلام، علاجُهُ لقضية النقد التي استحدثت زمن عبد الملك بن مروان، وكان موقفه انقاذاً للدولة الإسلامية على الرغم من وجود الساسة المنحرفين على رأسها.

يقول الشهيد الصدر: (إن عبد الملك حينما اصطدم بملك الروم، وهدّده الملك الروماني باستغلال حاجة المسلمين إلى استيراد نقودهم من بلاد

الرومان لاذلال المسلمين، وفرض الشروط عليهم، وقف عبد الملك متحيّراً، وقد ضاقت به الأرض، وقال: أحسبني أشأم مولود ولدٍ في الإسلام. فجمع أهل الإسلام واستشارهم، فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به. فقال له القوم: إنّك تعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر!! فقال: ويحكم مَن؟! قالوا: الباقي من أهل بيت النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، قال: صدقتم)[١٢].

وهكذا كان، إذ أرسل الإمام ولده محمداً الباقر وزوّده بخطة كاملة لسك النقد الإسلامي، وأنقذ الموقف، على الرغم من القطيعة التي كانت قائمة بينه وبين الحكم الأموي.

منزلة الإمام وعلمه وزهده:

كان الإمام على الرغم من ضعفه ومرضه ونحافة بدنه ذا مهابة ووقار، وذا أثر في نفوس الناس وقلوبهم. يجلونه لعلمه ونسبه من البيت النبوي الشريف، ويتعاطفون معه باعتباره رمزاً للبيت النبوي وامتداداً لنظريته الدينية والسياسية.

يروي المسعودي أن الأمويين حين أعملوا السيف برقاب أولاد المهاجرين والأنصار في وقعة الحرة عام خمسة وستين للهجرة لم يتركوا أحداً إلاّ قتلوه أو سبوه أو ذلّوه إلاّ علي بن الحسين السجاد، وعلي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. يقول المسعودي: (ونظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد، وقد لاذ بالقبر[١٣]، وهو يدعو، فأتى به (مُسرف)[١٤]، وهو مغتاظ عليه، فتبرأ منه، ومن آبائه، فلما رآه، وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له وأقعده إلى جانبه، وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحد ممن قدّم إلى السيف إلاّ شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلي: رأيناك تحرك شفتيك، فما الذي قلت: قال: قلت: اللهم ربّ العرش العظيم، ربّ محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه، وأدرأ بك في نحره. أسألك أن تؤتيني

خيره، وتكفيني شره. وقيل لمسرف: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفَهُ، فلما أُتي به إليك رفعتَ منزلته، فقال: ما كان ذلك لرأي منّي. لقد مُلئَ قلبي منه رُعْباً)[١٥].

ولما حجّ هشام بن عبد الملك مكة لم يستطع أن يصل إلى الحجر الأسود على الرغم من مجاهدته في ذلك لكثرة الزحام ولعدم اهتمام الناس به مع مكانته من الخلافة، ولكن تلك الجموع تنفرج للإمام زين العابدين، وتفسح له المجال ليقبّل الحجر الأسود طواعية، لأنه بالنسبة لها أمام القلوب، بينما كان هشام إمامٍ الأجساد، وشتان!!

فغاظ ذلك هشاما، فسأل رجلٌ من أهل الشام هشاماً: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال: لا أعرفه، تجاهلا، حتى لا تجتمع قلوب أهل الشام على الإمام. وكان الشاعر الفرزدق حاضرا، فقال: أنا أعرفه، وارتجل قائلا:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأته البيتُ يعرفُهُ والحلُّ والحرمُ

هذا ابن خير عباد الله كلهمُ هذا التقي النقي الطاهرُ العلم
إذا رأته قريشٌ قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمي إلى ذروةِ العزّالتي قصرت عن نيلها عُرُبُ الإسلام والعجمُ

ويهمّنا من القصيدة هذه الأبيات التي تقف عند صفات الإمام الدالة على علو منزلته وعلمه وهيبة الناس له:

يُغضي حياءً، ويُغضى من مهابته فلا يُكلّم إلاّ حين يبتسمُ
وليس قولك من هذا بضائره العربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
سهلُ الخليقةِ لا تُخشى بوادرُهُ يزينُه اثنان: حسنُ الخلق والشيمُ
ما قال لا ـ قط ـ إلاّ في تشهّده لولا التشهّدُ كانت لاؤه نعمُ

من معشرٍ حبُّهم دين وبغضُهُم كفرٌ   وقربهمُ منجىً ومعتــصمُ[16]

ومع علو منزلته هذه ومهابة الناس له كان كثير التواضع والصلة بالناس وخدمتهم. فقد روي انه كان يرتاد مجلس أسلم مولى عمر بن الخطاب، وحين كلمته قريش بهذا قال: إنما يجلس المرء حيث ينتفع!![17]، بل روي أنه زوج ابنته من مولاه، وأعتق جارية له وتزوّجها[18].

ومما يدل على علو منزلته وعلمه وزهده أقوال العلماء والخلفاء الذين عاصروه. قال الزهري: (لم أرَ هاشمياً أفضل من علي بن الحسين)[19]، وقال رجل لسعيد بن المسيّب: ما رأيت أورع من فلان. قال: هل رأيت علي بن الحسين؟ قال: لا. قال: (ما رأيتُ أحداً أورعَ منه)[20]. وقال مالك: (سمي زين العابدين لكثرة عبادته). وقال الشافعي: (علي بن الحسين أفقه أهل المدينة)[21].

ومن أقوال الخلفاء فيه قول عبد الملك بن مروان مخاطباً الإمام: (ولقد أوتيتَ من العلم والورع والدين ما لم يؤته أحد مثلك قبلك إلاّ من مضى من سلفك). وقال عمر بن عبد العزيز: (سراج الدنيا وجمال الإسلام زين العابدين)[22].

ومن أقوال المؤرخين وكتاب تراجم العلماء والفقهاء والأولياء، قول ابن سعدٍ في الطبقاتِ الكبرى: (وكان علي بن حسين، ثقة مأموناً، كثير الحديث عالياً، رفيعاً ورعاً)[23].

وله كرامات يرويها صاحب الحلية[24]، وصاحب جامع كرامات الأولياء[25]، لا مجال هنا لروايتها وبسط الحديث عنها. ونريد أن نختم هذه الفقرة بكلمة للجاحظ في شخصية الإمام عليه السلام، قال: (لم أرَ الخارجي في أمره إلاّ كالشيعيٍ، ولا العامي إلاّ كالخاصّي)[26]، وهذا يعني أن الإمام في عصره كان مرجعا للأمة الإسلامية كلها على اختلاف مذاهبها ومشاربها.

الصحيفة:

رجلٌ كالذي شهدنا من صفاته ومواقفه السياسية والدينية واضطلاعه بمهمة الإمامة في خط أهل البيت عليهم السلام، لا يمكن أن تكون أعماله إلاّ هادفة، ولا يمكن لآثاره إلاّ أن تكون في خدمة الطّريق الذي اختطه لحياته وحياة أمة جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الصحيفة أثر من آثاره، كانت مجموعة من الأدعية، ولكنها أدعية ليست من النوع الذي نعرف، إغراقاً في الانزواء والبعد عن شؤون الناس وهمومه، وترك ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، بل كانت دستوراً أخلاقياً، وعملاً تربوياً ذا أبعاد سياسية لا تخفى على من عرف الظروف العاصفة بعد مقتل الإمام الحسين في العقد السادس من القرن الأول الهجري.

والذي يطلع على أبواب الصحيفة التي بلغت أربعة وخمسين باباً أو دعاءً يحس أي اهتمامات كانت تشكل هاجساً للإمام. وإن أدعية مثل الأدعية التي تنزه الله عمّا ينسبه الحكام له وفقهاء الحكام، والأدعية التي تتحدث عن مقام الرسالة، ومقام أهل البيت، والأدعية التي تتحدّث عن الظلم والظالمين، لا يمكن أن تكون أدعية منزوية عن واقع الحياة، بل كانت وسيلة أملتها الظروف القاهرة، وسلاحاً ناجحاً ألّبَ الأمة على الحكام، وأشعرها بمظلومية أهل البيت، وألفتها إلى وظيفتها في الحياة، كما نبهها إلى ما يُراد لها من انحراف وميل إلى الدنيا وملاذها.

وبسبب من هذا كان الإمام قد عنى بأدعيته هذه، فلم ينظر إلى أثرها في عصره وبيئته فحسب، بل نظر بنور الله، وتوسم لها الأثر بعد حياته أيضاً، فكان له ما أراد.

تقول الروايات إن الإمام زين العابدين أملاها على ولده محمد الباقر عليه السلام، ومحمد الباقر سلمها إلى ولده جعفر الصادق عليه السلام. وكان الأئمة يتوارثونها إماماً عن إمام، وكانوا يسمحون لمن يثقون به في

نسخها.

وكانت منها نسخة مكتوبة بخط زيد بن الإمام زين العابدين، وكان أعطاها إلى ولده يحيى، وهي النسخة التي قابلها الإمام جعفر الصادق بالنسخة التي كانت عنده.

يقول متوكل بن هارون، وهو آخر الأسماء التي وردت في قائمة السند: إن الشهيد يحيى بن زيد (دعا بعَيْبة[٢٧]، فاستخرجَ منها صحيفة مقفلة مختومة، فنظر إلى الخاتم، وقبَّله وبكى، ثم فضّه، وفتح القفل، ثم نشر الصحيفة ووضعها على عينه وأَمَرّها على وجهه، وقال: واللهِ يامتوكل لولا ما ذكرتَ من قول ابن عمي[٢٨]، إنني أقتلُ وأصلبُ لما دفعتها إليك، ولكنتُ بها ضنيناً، ولكني أعلم أنّ قوله حقّ أخذه عن آبائه...)، ثمّ يقول متوكل: (فلما قتل يحيى بن زيد صرتُ إلى المدينة فلقيتُ أبا عبدالله عليه السلام، فحدثتُهُ الحديث عن يحيى فبكى واشتدّ وجدُهُ به. وقال رحم الله ابن عمي، وألحقه بآبائه وأجداده.

والله يامتوكل، ما منعني من دفع الدعاء إليه إلاّ الذي خافه على صحيفة أبيه. وأين الصحيفة؟ فقلت: ها هي، ففتحتها، وقال: هذا واللهِ خط عمي (زيد)، ودعاء جدي علي بن الحسين علِيهما السلام، ثم قال لابنه: قم يا إسماعيل فائتني بالدعاء الذي أمرتك بحفظه وصونه، فقام إسماعيل فأخرج صحيفة كأنها الصحيفة التي دفعها إليَّ يحيى بن زيد. فقبّلها أبو عبد الله، ووضعها على عينه، وقال هذا خط أبي، وأملاه جدي عليهم السلام)[٢٩].

وعن متوكل بن هارون هذا رويت الصحيفة وتواترت حتى كان آخر رواتها في القرن السادس الهجري محمد بن أحمد بن شهريار خازن مكتبة الإمام علي ببغداد[٣٠].

وخلاصة الأمر أن الصحيفة معلم تربوي من معالم التربية لدى أهل

البيت، وهي ثمرة من ثمار جهودهم في المحافظة على الإسلام ومنهجه. فهي بهذا أثر إسلامي خالد لكل المسلمين، وليس لأهل البيت أو أتباعهم فقط .

وهذا الأثر التربوي قد صيغ صياغة لغوية وأدبية عالية لا يخطئها دارس اللغة والأدب، وعبّرت عن احساس مرهف إزاء الخالق وإزاء الخلق. وسوف تكون لنا وقفات عند هذه المعالم من الصحيفة. ونريد قبل هذا أن نكوّن فكرة عن مفهوم الدعاء في الإسلام، ليكون مدخلا لفهم دعاء الإمام السجاد وأغراضه وطوابعه وخصائصه.

الهوامش

[1] - الأحزاب ، آية ٣٣.

[2] - ديوان الشافعي، مؤسسة الزغبي، بيروت، ط ٣، ١٩٧٤، ص٧٢.

[3] - رواه النسائي، والترمذي.

[4] - محمد محمود عبد العليم، سيدنا الإمام الحسين، شركة الشمرلي، القاهرة د.ط، د.ت، ص ٢٥.

[5] - مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، ط ٩ ، د.ت، ج ٣، ص ٧.

[6] - المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٧١.

[7] - الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت ج ٥، ص ٢١٢. وينظر سيدنا الإمام الحسين، ص ١٢٤.

وفي رواية أن الشمر بن ذي الجوشن أراد أن يقتله، في طبقات ابن سعد الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

[8] - المصدر نفسه.

[9] - الأئمة الاثنا عشر، عادل الأديب، دار الأضواء، قم، ط ٢، ١٩٨٤، ص ١٣٩.

[10] - المصدر نفسه، ص ١٤٤.

[11] - مقدمة الصحيفة، للسيد محمد باقر الصدر، طبعة دار الأضواء بيروت، ص (م).

[12] - المصدر السابق، ص (ك).

[13] - قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

[14] - قائد الجيش الأموي الذي استباح المدينة.

[15] - مروج الذهب، ج٣ ص٧٠.

[16] - ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، ط ٩، ١٩٦٦، ج٢، ص ٧٨.

[17] - حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ص ١٣٨.

[18] - الطبقات الكبرى، ج ٥ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥.

[19] - حلية الأولياء، ج ٣ ، ص ١٤١.

[20] - المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٤١.

[21] - مقدمة الصحيفة للسيد الصدر.

[22] - نفسه.

[23] - الطبقات الكبرى، ج ٥ ، ص ٢٢٢.

[24] - ج٣ ، ص ١٣٥.

[25] - جامع كرامات الأولياء، الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٢، ص ١٥٦.

[26] - الصلة بين التصوّف والتشيع، د. كامل مصطفى الشيبي، دارالمعارف، بمصر، ط٢، ص١٥٧.

[27] - ما يُجعل فيه الثياب، جمعُها عِيَب، وعِياب.

[28]- يعني أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

[29] - الصحيفة، ص ٨.

[30] - ينظر الصلة بين التصوّف والتشيّع، ص ١٥٨.

الفصل الثاني

مفهوم الدعاء في الإسلام



هناك حقيقة دينية كبرى يقرّرها الإسلام باعتباره ممثلاً للأديان السابقة جميعا، ومعبّرا عن الأهداف التي أرسل من أجلها الأنبياء جميعا، هذه الحقيقة تتمثل بعلاقة هذا الكون بموجده وخالقه، فهو مخلوق له، وحادث عنه، ومتحرك بمشيئته، وسائر إلى الأهداف التي حدّدها له.

والإنسان باعتباره جزءا من الكون الحادث، هو، عند الله، أجلُّ ما في هذا الكون، بل إن هذا الكون كله، أرضه وسماءه، بحاره وأشجاره، وكل ما خلق الله في السموات والأرض إنما كانت وستبقى مسخرة لهذا الكائن الجليل الذي اسمه الإنسان، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

والقيمة العليا التي أُعطيَها الإنسان إنما جاءت من كونه خليفة خالقه في هذه الأرض، وهي وظيفة سامية حُمّلها الإنسان، وإن لم يؤدها حقَّ أدائها، كما قال تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا) [١].

هذه القيمة العليا التي مُنحها الإنسان من خالق الوجود وهذه الوظيفة التي قلدها من لدن خالق الوجود، تعني أن هذا الكائن المتفرد يتوفر على قدرات عقلية ونفسية لا تتوفر لدى أي كائن آخر مرئي، وبالتالي فهو الكائن الأنسب ـ بتقدير الله ـ لمعرفة علاقته بخالقه، وهي علاقة الجزء بالمطلق، أو علاقة العبودية، كما قرّرها القرآن: (وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاّ ليعبدون) [٢].

وهذه العبودية قضيّة ذات أبعاد عقدية متعددة، وذات التزامات وأعمال كثيرة، كلها تؤدي إلى تحقيق معنى العبودية، وليس هذا مجال بسط الحديث عنها. والمراد هنا الإشارة أن الدعاء مظهر من مظاهر العبودية، وإن كان مظهرا يعبر بعمق عن مصداقية هذه العبودية، وتجسّدها في هذا الإنسان (العبد) الذي يتوجه بذاته كلها إلى خالقه. وهذه الذات وما تعمل من شيء، أو تكسب من شيء، إنما هي لله الذي برأها، وأوجدها من قبل

أن تكون شيئاً (قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين)[٣].

وظيفة الدعاء:

إذا كانت وظيفة الدعاء ـ كما أشرنا ـ تعبيراً عن ارتباطٍ الجزء، وتعلّق الجزء بالمطلق، وحب الجزء للمطلق، وإذا كان تعبيرا عنٍ مصداقية العبودية وذوبان الكائن الإنساني في حب خالقه، وانسجاما مع أوامره ونواهيه، فهو من جانب آخر يمثل حاجة نفسيّة في أعماق هذا الكائن الضعيف.

إنّ ما يعانيه هذا الإنسان من متاعب في الحياة ومصاعب وعقبات ليجعله قشّة في مهب الريح لا يقوى على الوقوف والثبات إلاّ برحمة من الله، وتعلّق بحبل منه ودعاء.

ومن المعلوم أن الإنسان نفسه خلق من تعب وعناء ومشقة، كما قال خالقه، جل وعلا: (لقد خلقنا الإنسان في كبد)[٤] حياته كلها من لحظة ولادته إلى خروج الروح منه، كبد في كبد، بل إنه في يوم القيامة الأكبر سيواجه العقبة، وما أدراك ما العقبة؟ وهي كبد أدهى وأمرّ!!

ترى، من الناحية النفسية، أيُّ ركن ركين، وأي ملجأ حميم، وأية قوة عظمى قاهرة تحفظ هذا الكائن الضعيف، وتقف معه أمام العقبات والمخاوف التي لا حصر لها، ولم تقف عند فترة معينة من حياته؟!!

وهذا لا يعني أن الإنسان يَخلقُ له قوةً وهميّة يحتمي بها من المخاوف، كما تلحد إليه المذاهب المادية الحديثة في تحليلاتها، ولكنها الحقيقة التي تعبّر عن لجوء الكائن الضعيف إلى القوة الحقيقية الكبرى الخالقة والمسيطرة والمنعمة والمراقبة لهذا الوجود. قال تعالى: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصينٍ له الدينٍ)[٥] وقال، جلّ شأنه: (وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما)[٦].

فالدعاء، إذاً، حاجة حقيقية، وإحساس فطري في الذات الإنسانية تعبّر

من خلاله عن علاقتها بخالقها وصدورها عنه، ولجوئها إليه[٧]. فعند الدعاء واللجأ إلى الله في الحوادث والأهوال والحاجات تقرّ النفس عند شاطئ الأمان، وتحس أن يداً من الغيب تلمسها، وأن قوة تمدّ لها أسباب العون والإنقاذ، بما لا طاقة لأية يد وأية قدرة أخرى في الكون على القيام بمثله.

وهذه الظاهرة، ظاهرة اللجأ إلى القوة العظمى عند الملمات ظاهرة عامة في النفس الإنسانية، تجدها حتى لدى النفوس غير الموحدة وغير المؤمنة بالله. إذ انها عند محنتها تلجأ إلى الله بطريقة أو أخرى، وبتعبير أو آخر، والغاية واحدة.

ولكن النفس المؤمنة الموحدة تحدّد أهدافها من الدعاء مسبقاً، وتعرف وظيفتها مسبقا، وتعرف إلى من هي متوجهة، وفي حضرة من هي داعية. بل لا تقرّر مسبقا نتائج الدعاء، ولكنها تقوم بالمقدمات وتأخذ بالأسباب، والنتائج بيدٍ من دعاها إلى التوسل به والاعتماد عليه.

نحن إذاً، أمام سنة ثابتة في الحياة الإنسانية والنفس الإنسانية، عودة الإنسان إلى بارئه في الملمات. وهذا لا يعني أن النفس البشرية لا تنسى بل إنها تبتعد عن الله في لحظات الرفاه والرخاء، ولكنها تعود، وتجأر بالدعاء إلى الله، حين لا يكون ثمة ملجأ إلاّ إليه.

على أننا في هذا المجال نريد أن نزيل لبساً تتداوله بعض الكتابات غير الدينية، أو المناوئة للدين، أو هو يتمثل بهذه المقولة: إذا كان الله قد قدّر كل شيءٍ مسبقاً في حياة الإنسان قبل أن يُخلق، فما قيمة الدعاء بعد هذا؟

حقا هذه قضية كبيرة شغلت الفكر الإسلامي لقرون طويلة، ولا أظننا نفرغ منها في صفحات قلة. ولكن هذا لا يمنع من أن نلخّص الفكرة ونقول فيها ما انتهى إليه العلماء.

من المقرّر أن هناك قضايا كبرى في حياة الإنسان، وأن هناك سُنناً

أثبتها الله في كتبه. وعلى ألسنة أنبيائه تتمثل في وعده ووعيده. هذه القضايا الكبرى لا تبديل لها، وهي إنزال العقاب بالكافرين في الحياة الدنيا، وقضايا الموت أو النهاية التي ينتهي إليها الإنسان من شقاء أو سعادة. فهذه في (أم الكتاب)، لا تبديل لها[8]. بقي ما يكتب على الإنسان من أرزاق أو أحداث أو ابتلاءات، فمن الممكن محوها أو نسخها على ضوء طبيعة السلوك الذي يغيّره الإنسان والتصرف الذي يستدعي رحمة الله. قال الثوري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء، ويثبت وعنده أم الكتاب)[9]، قال: يدبر أمر السّنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت)[10].

وبهذا فالدعاء الصادق الذي ينبعث عن نفس تائبة ومنسجمة مع منطق العبودية، وسائرة في طريق هدي الله، هذا الدعاء قد يردّ القضاء، وقد يكرم الله فيه عبده بنسخ ما كتب عليه. ففي الأحاديث الشريفة أنه (لا يرد القضاء إلاّ الدعاء، ولا يزيد في العمر إلاّ البرّ)[11].

على أننا نريد أن نشير إلى محدودية علم الإنسان وجهله بحكمة الله وتقديره. لربما ألحّ بالدعاء، ولم يُستجب له، ولربما كان في نفسه شيء من عدم الاستجابة هذه. وهذا موضع يذر الشيطان فيه قرنه، وينشط فيه.

والذي يجب أن نفهمه على ضوء التوجيه الرباني والتوجيه القرآني أنه قد يكون من صالح الإنسان ألا تُستجاب له دعوته، وقد يكون من الخير له أن يُجري الله فيه قضاءه، لأنه قد يكون في إجراء القضاء الثواب والخير، وقد يكون في إجرائه المصلحة للبلاد والعباد.

وكثيراً ما تكون نظرة الإنسان ضيّقة، فينظر للأمور من زاويته الخاصة ومصلحته الخاصة دون النظر إلى صلة هذه القضية أو تلك بمصلحة الآخرين، أو فائدة المبدأ الذي يؤمن به.

وخلاصة الأمر أن الإنسان المؤمن راضٍ بقضاء الله وقدره، سواء

استجيب لدعوته أو لم يُستجب، فهو يدرك تماماً عدل الله ورحمته به التي قد تكون في الحياة الدنيا، وقد يدخّرها له في الآخرة.

ويتحدث العلماء في كتب الأخلاق والآداب عن شروط استجابة الدعاء حتى عدّها أبو حامدٍ الغزالي عشرة شروط وليس هنا مجال ذكرها[١٢]، كما أن هناك بابا طويلا في أصول الكافي للكليني عن تفاصيل الدعاء، منزلته، ومواعيد استجابته، وشروطه[١٣].

الدعاء في القرآن:

في القرآن الكريم مادة غنية من الأدعية، نلحظ خلالها التوجيهات الربانية للبشر في أن يتضرّعوا إلى الله وينيبُوا إليه، ويتوسّلوا به وحده في الملمات. وكلما تفهم المسلم هذه التوجيهات كان أكثر قربا من الله، وأجدر في تحقيق معنى العبودية في نفسه.

فالملاحظ من صفات المؤمنين في القرآن أنهم يدعون ربّهم تضرّعاً وخيفة؛ وأنهم يكثرون من الاستغفار والإنابة، ويكثرون من الذكر في أحوالهم كلها، كما وصفهم ربّهم تعالى: (الذين يذكرون الله قياماً وقعودا، وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)[١٤].

وفي أدعية المؤمنين هذه تتجسّد لنا صورة الإنسان المرتبط بالله، المحبّ له، المنسجم مع سننه وأوامره (ربّنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفّر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ولا تُخزنا يوم القيامة، إنك لا تُخلف الميعاد)[١٥].

وفي هذا الدعاء نلحظ سرعة الإجابة من لدن العبد لنداء ربّه (.... سمعنا مناديا... فآمنا)، ومن هذا المنطلق، منطلق الإجابة للنداء والانسجام مع الأوامر الإلهية يتلمس الإنسان طريق الطلب والدعاء

لحاجته. وتلاحظ معي أنَّ هذه الحاجات ليست آنية، ولا هي من متاع الحياة، بل تتصل بالرغبة في مرضاة الله ومغفرته. فعندما يتحقق قوله تعالى: (رضي الله عنهم ورضوا عنه)[16]، يكون هذا غاية ما يبتغونه.

بينما يكون الغالب من أدعيتنا نحن ينصبّ على حاجات آنية زائلة، وعلى متاع زائل. على أن هذا ليس من الممنوعات في التوجيهات القرآنية والنبوية، ولكنها درجات في التفاضل بين مَن حاجاته الرغبة في المغفرة والمرضاة الإلهية، وبين مَن حاجته اشباع الرغائب المادية التي هي من متاع الدنيا الفانية.. بين من يدعو فيقول: ربّ ارزقني الشهادة، وبين من يقول: ربّ ارزقني مالاً، أو زوجة أو وظيفة حكومية.

قلت: وإن كان هذا ليس مكروها، ولكن هناك فارق بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية.

ولانريد أن نستطرد كثيراً في هذا المجال، بل نريد الوقوف عند أدعية محدّدة للأنبياء في القرآن، فالأنبياء هم الأشخاص الذين يمثلون قمة التواصل بين الخالق والمخلوق، قمة الحبّ، وقمة الطاعة وقمة العبودية.

أدعية الأنبياء في القرآن:

إن الأفكار المجرّدة قد لا ترسخ في الذاكرة إلاّ إذا تجسّدت في سلوكات بشرية، وتحركت من خلال شخصيات لها حظ كبير من الاستقامة والثبات. وخير ما يمثل هذا هو الشخصيات النبوية التي اختارها ربّها لتبليغ رسالاته.

ومن الملاحظ أن لكل نبي من الأنبياء الذين ذكر دعاؤهم في القرآن طابعاً خاصاً، ومطالب خاصة على ضوء الظروف التي مرّ بها الأنبياء.

فنوح عليه السلام الأب الثاني للبشرية تدوم فترة دعوته، ويقل الناصر والمستجيب له، فيسأم ويدعو على قومه بالتبار والهلاك (وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا. إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك، ولا

يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا)[١٧].

وإبراهيم عليه السلام يواجه دعوة الشرك، ويدعو الله أن يقتلعها من أصولها المتمثلة بالآلهة الموهومة من الأصنام المنحوتة، ويدعوه أن يجعل من مكة منطلقاً للتوحيد والإسلام. (وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً، واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام)[١٨]. وقد وصف الله نبيه إبراهيم بقوله (إن إبراهيم لأواه حليم)[١٩]، والأواه الدعّاء، أي الكثير الدعاء، كما وردَ عن الإمام محمد الباقر عليه السلام[٢٠].

وأيوب عليه السلام يشتد به المرض فيدعو ربّه مخلصاً في أن يدفع عنه الضرّ، فيكشفهُ عنه (وأيوب إذ نادى ربّه، أني مسَّنيَ الضرُّ وأنت أرحم الراحمين)[٢١].

وزكريا عليه السلام يدعو ربه أن يهب له الولد الصالح والذرية الطيبة على كبر منه وعقم في زوجته (ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربّه نداءً خفيّا، قال ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأسُ شيبا، ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا)[٢٢].

ويعقوب إذ دعا ربّه بعودة حبيبه يوسف، فضلاً عن دعاء سادتنا موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء.

ولقد كانت الإجابة لكل دعوة من هذه الدعوات، كانت الإجابة لدعوة نوح بالطوفان المدمر الذي أتى على كلّ شيء على وجه الأرض. وكانت لدعاء إبراهيم في تحطيم الأصنام في حياته وفي حياة وريثه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعل مكة البلد الحرام الآمن الذي انطلقت منه دعوة التوحيد إلى العالمين، والتي سينطلق منها التوحيد ثانية ليعمّ الأرض كلها، الأرض التي لم يصلها نور الإسلام بعد.

وكانت الإجابة بكشف الضرّ والمرض عن أيوب، والإجابة لزكريا بالولد البار (يحيى عليه السلام)، وكانت الأجابات تترى لغير هؤلاء الأنبياء

كذلك.

وهـذا مـا يجعلنـا نقـف أمـام حقيقة واضحة وهي أنه حينما يكون الصدق في الدعـاء، ويكـون العمـل مـع الدعـاء، ويكـون الانسجام مع سنن الله الكونية في الدعـاء، تكـون الاستجابة، وهكـذا كانـت استجابة الله لدعـوات أنبـيائه. وهكـذا عقب سيدنا يعقوب بعد أن أرجع الله إليه ولده يوسف: (ألم أقلْ لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون)[٢٣].

وتلحظ هـذا في تعقيـب سيدنا يوسف بعد أن رأى أخـاه (بنيامين) (قال أنـا يوسف، وهـذا أخـي، قد منّ الله علينـا، إنـه من يتقِ ويصبر، فإنّ الله لا يُضيع أجر المحسنين)[٢٤].

ومـن أدعيـة الأنبيـاء هـذه يستشـف المـرء كيف يكون أدب الدعـاء، وكيف تكـون الشـروط الموضـوعية لاستجابة الدعـاء، وكـيف تكـون الإجابـة لهـذا السلاح، فعن الإمام الرضا قال (الدعاء سلاح الأنبياء)[٢٥].

أدعية النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم:

لقـد تجسـدت في حياة نبيـنا محمـد صلّى الله عليه وآلـه وسلّم حيوات الأنبـياء كـلهم، ودعـوات الأنبـياء كـلهم. فدعوتُـهُ خلاصـة تلـك الدعـوات وخاتمـتها. وقـد كانـت سيرته وحياته مسجلة لديـنا مـن خـلال مصـادرها القريبة الموثوقة، بيـنما ضـاع عليـنا كثير مـن التفاصيل في حيوات الأنبـياء السابقين.

ولقـد كانـت حياتُه (عليه الصلاة والسلام) كلها عبادة ودعاء وانسجاماً كـاملاً مـع توجـيهات الله في العمـل والقـول والسـلوك والاعـتقاد. فكـان إذا حزبه أمرٌ توجه بالدعاء الخالص لربه وباعثه رحمة للعالمين.

تحدثـنا السـيرة أنـه صلّى الله عليه وآلـه وسلّم عـندما اشـتدّ عليه أذى قـريش توجه إلـى الطائف أملاً في أن يجد أذناً صاغية لدعوته، فكان خلاف

المأمول، كان رفضٌ وأذىً وسوءُ أدب، حيث رُمي بالحجارة والروث حتى دميت قدماه، فكان أن لجأ إلى بستان أو حائط لعتبة بن ربيعة، فجلس إلى ظل شجرة وأخذ يدعو: (اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربّ المستضعفين. وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب، فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك)[٢٦].

ولا أحسبك تخطئ هذا الاخلاص والإنابة والتوكل الكامل على الله، بل إنك تقف أمام الهدف من العبودية مباشرة، فلم يكن للأنبياء من هدف سوى تبليغ الرسالة وتحقيق مرضاة الله. ويهون عداهما كل شيء (إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي!!).

هذه الكلمة التي تلخص منهجاً وترسم طريقاً لورثة الأنبياء والسائرين على هديهم إلى يوم الدين.

وحين نرصد سيرة النبي نجدها كلها توجيهات إلى أعمال يتخلّلها الدعاء والتوكل والإنابة. فهنا دعاء للاستسقاء وهناك دعاء للاستخارة، ودعاء للنوم، ودعاء عند السفر، ودعاء عند دخول المسجد، ودعاء عند الكرب والشدّة ودعاء عند الوضوء... فما كان له من عمل صلّى الله عليه وآله وسلّم إلاّ وأرفقه بدعاء، كبر هذا العمل وجل أم صغر ودقّ. فكان يريد بذلك أن يربط بين الأعمال وأهدافها، والظواهر ونياتها. فقد مرّ علينا أنّ هذا الإنسان كائن مكرم عند الله ومستخلف له في الأرض، وهو نفخة من روحه، وقبضة من يده، فلا ينبغي إلا أن يكون منه وله في أحواله كلها.

ومن يشأ فليراجع أدعيته عليه السلام في كتب الفقه والآداب والأدعية[٢٧].

أدعية الأئمة والصحابة والتابعين:

لقد أدّب الله رسوله فأحسن تأديبه، ثمّ أدب الرسول آله وأصحابه فأحسنَ تأديبهم. ومن مظاهر هذا التأديب تخلقهم بأخلاق الله، وانتقال صفاته بالقدر الذي يتعلق بالكائن الإنساني - إلى سلوكهم وعلاقاتهم بالناس.

وقد تعلم الآل والصحب والتابعون لهم بإحسان منهج الدعاء من الرسول عليه السلام، فكانوا يحفظون أدعيته في المقامات المعلومة ويزيدون عليها في مقامات المناجاة والتوكل مما لا حدود لحصره والوقوف عنده.

وسوف نكتفي بذكر مثال واحد من دعاء الإمام علي عليه السلام في الاستسقاء: (اللهمّ إنا خرجنا إليك تحت الأستار والأكنان، وبعد عجيج البهائم والولدان، راغبين في رحمتك، وراجين فضل نعمتك، وخائفين من عذابك ونقمتك. اللهم فاسقنا غيثك، ولا تجعلنا من القانطين، ولا تهلكنا بالسنين[٢٨]، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين)[٢٩].

هذا الإمام الذي كانت حياته ثمرة من ثمار تربية الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، إذ اختصه من سائر الناس وآخاه. فكان منه بمنزلة هارون من موسى، فلا عجب أن يأتي كلامه مشبعاً بروح التوجيهات النبوية في الدعاء. ولا عجب أن يأتي نسله على منهجه.

وهكذا جاءت أدعية الحسن وأدعية الإمام الحسين عليهما السلام، ومن ثم أدعية الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية. هذه الصحيفة التي نقف عند معالمها المضمونية والعاطفية والفنية. وعلى هذا المنهج سار بقية الأئمة وسار الصالحون والتقاة من هذه الأمة.

ننتهي من هذا كله إلى أن الدعاء من أعظم درجات العبادة في الإسلام، بل هو العبادة ذاتها، كما جاء في فهم قوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين)[٣٠] أي عن الدعاء[٣١].

إن الله جعل الباب في الدعاء مفتوحاً بينه وبين عباده دونما واسطة إذ قال: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني)[٣٢]، ولم يأتِ بعد السؤال بـ (قل) مثلما يتكرر في القرآن في مواضع كثيرة منه مثل قوله تعالى: (يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول)[٣٣] ومثل قوله: (يسألونك عن المحيض قل هو أذىً)[٣٤]، حيث يأمر الرسول أن يبلّغ عنه بـ (قل). أما في الدعاء فلا واسطة فيه بين العبد وربّه، كما أشار الفخر الرازي[٣٥].

ويكفي الدعاء مقاما ومنزلة هذا الدعاء الذي رواه عبادة بن الصامت عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوةٍ إلاّ آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بأثم أو قطيعة رحم. فقال رجل: إذاً، نكثر. قال: الله أكثر.)[٣٦]، يعني أكثر إجابة.

وأعتقد أن هذا القدر من الحديث عن الدعاء ـ على إيجازه ـ يضعنا أمام الأهمية الكبيرة للصحيفة السجادية في مجال توثيق الصلة بين الإنسان وربه، وتعميق فهم الإنسان لمسؤولياته أمام ربّه. وربّما يكون هذا التمهيد وسيلة لنا للدخول في موضوعات الفصول التالية، وهي فصول تعتمد في مادتها على أدعية الصحيفة للإمام علي بن الحسين، وتتعرف على خطوطها العامة في النفس والحياة.

الهوامش

[1]- الأحزاب، ٧٢.

[2]- الذاريات، ٥٦.

[3]- الأنعام، ١٦٢.

[4]- البلد ، ٤ .

[5]- لقمان ، ٣٢ .

[6]- يونس ، ١٢ .

[7]- يُراجع الفصل القيم الذي كتبه الشهيد محمد باقر الصدر في (الفتاوى الواضحة) بعنوان (العبادة حاجة إنسانية).

[8] - ينظر: البيان في تفسير القرآن، السيد أبوالقاسم الخوئي، دار الزهراء، بيروت، ط ١، ١٩٦٨، ص١٢٥.

[9] - الرعد، ٣٩.

[10] - مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ ، اختصار وتحقيق، محمدعليالصابوني، مج٢، ص٢٨٦.

[11] - رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.

[12] - إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ط، د. ت، ج ١، ص ٣٠٤.

[13] - تنظر: أصول الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٣، ١٣٨٨هـ ، ص ٤٥١.

[14] - آل عمران، ١٩١.

[15] - آل عمران، ١٩٣، ١٩٤.

[16] - البينة، ٨.

[17] - نوح، ٢٦_٢٧.

[18] - إبراهيم، ٣٥.

[19] - التوبة، ١٣٤.

[20] - الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٤٦٦.

[21] - الأنبياء، ٨٣.

[22] - مريم ، ٢ ، ٤.

[23] - يوسف، ٩٦.

[24] - يوسف، ٩٠.

[25] - الأصول من الكافي، ج٢ ، ص ٤٦٨.

[26] - تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط ، و.ت، ص١١٠.

[27] - ينظر على سبيل المثال، مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي، طبعة طهران، وأخلاق النبي، للحافظ أبو محمد جعفر بن حيان الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣،

١٤٠٩، ١٩٨٩م.

[٢٨] - جمع سنة محركة: القحط والجدب. ينظر: مختار القاموس، مادة (س.ن.ه).

[٢٩] - طبعة دار الأندلس، بيروت، شرح محمد عبده، ط ٦، ١٩٨٣، ص ٢٥٤.

[٣٠] - غافر، ٦٠.

[٣١] - روح الدين الإسلامي، عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، د.ت، ص١٩٩.

[٣٢] - البقرة، ١٨٦.

[٣٤] - الأنفال، ١.

[٣٤] - البقرة، ٢٢٢.

[٣٥] - شرح أسماء الله الحسنى، دار الكتاب العربي، مراجعه طه عبدالرؤوف سعد، ط ٢، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص٨٨.

[٣٦] - أخرجه الترمذي والحاكم وأبو داود والنسائي. ينظر كتاب (ثواب الأعمال الصالحة). جمع وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، ط ٢، ١٩٨٦، ص٦٩.

الفصل الثالث

العرفانية الربانية في الصحيفة السجادية



قبل الحديث عن مضامين الصحيفة السجادية واتجاهاتها الموضوعية، لابدّ من الاشارة إلى الملاحظات التالية:

أولاً:

إذا كانت أدعية الصحيفة قد أملتها ظروف سياسية خاصة، فإن هذا لا يعني أن الإمام لو عاش في غير تلك الظروف لابتعد عن الدعاء وأجوائه. فالمعروف عن حياة أهل البيت جميعاً أنها كانت حياة عبادة وطاعة ودعاء. وهذا ما عرفناه عن حياة المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم، وحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ولعل الدعاء الذي رواه كميل بن زياد عن الإمام علي خير دليل على ذلك. ومقارنة أولية بين أدعية الصحيفة وبين هذا الدعاء تدلك على أنهما من شجرة واحدة، شجرة البيت النبوي المطهر.

فالصحيح - إذاً - أن يقال بأنّ طابع الدعاء وموضوعاته قد تلوّنت بلون الظروف التي عاصرها الإمام زين العابدين عليه السلام. أما الدعاءُ نفسه فهو صفة ملازمة لكل مؤمن فضلاً عن حملة الرسالات من الأنبياء وورثة النبوة من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ثانياً:

إن أدعية الصحيفة تكتسب أهميتها من خلال تعبيرها عن ظروف العصر الأموي، وتكيفها مع تلك الظروف. ونظراً لما فيها من كنوز معرفية وروحية وتوجيهات سلوكية وأخلاقية، وجدنا الإمام يمليها على ولديه محمد الباقر وزيد، وهما يمليانها على أولادهما جعفر بن محمد، ويحيى بن زيد، ويظل أهلُ البيت يتوارثونها إماماً عن إمام.

وهي بهذا ليست أدعية رجل صوفي منعزل عن الحياة بالتأمل في آثار ذات الله، وغارق في التعبير عن حبه لهذه الذات. وإن كان في الصحيفة

الشيء الكثير من هذا التأمل، وهذا الحب.

ثالثاً:

إنّ موضوعات الصحيفة واهتماماتها الفكرية والعرفانية والتربوية تتنوع تنوعاً لافتاً للنظر، بحيث يمكن أن يوظف أهل الاختصاصات المتعددة في هذا العصر علومهم واختصاصاتهم لدراسة الموضوعات التي تناسب تلك الاختصاصات، فيتناول العالم النفسي ما يهمه من الصحيفة، ويتناول عالم التربية ما تعكسه الصحيفة من توجيهات تربوية، ويتناول أصحاب الدراسات الفلسفية أو العرفانية ما في الصحيفة من آثار لهذه العلوم. أما الباحث الأدبي فسوف يجد بلا شك مجالاً رحباً للأدب الصادق المعبّر عن نفسية صاحبه البعيد عن التكلف والزخرف والمعبر عن مراميه بلغة شفيفة وصور حية، وموسيقى عذبة...

أقول إن موضوعات الصحيفة من الغنى والثراء بحيث يصعب إن تضمها دفتا كتاب، وهذه إشارة إلى أن القضايا التي سوف أعرض إليها في الصفحات المقبلة لن تغطي المجالات التي أشرت إليها آنفاً، ولكنها سوف تشير إلى جوانب منها، وحسبنا أن نحرض الباحثين على دراسة هذا الأثر العلمي التربوي الأدبي الذي لم يلتفت إليه إلا في بيئات محدودة ولدى جماعات من أهل الدين والتقوى والعبادة.

وإلى الحديث عن الموضوع الأول من الموضوعات التي سنقف عندها، ألا وهو العرفانية الربانية.

معرفة الله:

الإيمان بالله فطرة قائمة في النفس الإنسانية، ولكنها قد تطمس وتكفر على تفاوت في درجات هذا الطمس والكفر، فهناك من ينفي الألوهية ويتخذ من المادة وقوانينها قاعدة لتفسير الكون والحياة، وهناك من يتخذ

مع الله شريكاً، وهناك من يتوسل إلى الله بطواغيت وأصنام... ويبقى الكل يبحث عن مطلق يفسر به أصل الكون وحركته ومسار الحياة وعلاقات البشر، ولكن شتان ما بين مطلق مبدع خالقٍ مصوّر ليس كمثله شيء، وبين مطلق يصنعه الإنسان نفسه، ويصبح أسيرا له، ولتصورات يتوهمها عن ذلك المطلق.

والذين يؤمنون بالمطلق الإلهي يتفاوتون في هذا الإيمان ودرجاته وسبله ومناهجه، ولكنهم مدعوون جميعا إلى المعرفة بما يؤمنون، وإن وقف البعض عند حد، وسار الآخرون إلى اللاحد!! وبين الحد الأدنى والحد الأعلى، درجات ودرجات، ولكن الدعوة إلى التعرف على المعبود قائمة وواجبة لا تقليد فيها.

يقول الإمام علي عليه السلام في أول خطبة من خطب نهج البلاغة: «أول الدين معرفتُهُ»[1]، هذه المعرفة التي ستكون سبيلا للتوحيد وسبيلا إلى أجلال الخالق والخوف منه والعمل بطاعته: كما يشير الإمام زين العابدين في أدعية الصحيفة: «سبحانك، أخشى خلقك أعلمهم بك، وأخضعهم لك أعملهم بطاعتك»[2]. وهي إشارة لا تدل على بدايات المعرفة والحد الأدنى منها، بل تصل إلى درجة التفاضل والوصول إلى الحد الأعلى في المعرفة (أعلمهم) و (أعملهم).

والإمام يعتبر المعرفة الإلهية ذاتها تفضلاً من الله على الإنسان إذ لولا هذا التفضل لما استطاع الإنسان أن يجد لذة هذه المعرفة، ولا اهتدى إلى سبلها. يقول الإمام في الدعاء الأول من أدعية الصحيفة «الحمد لله على ما عرّفنا من نفسه، وألهمنا شكره، وفتح لنا أبواب العلم بربوبيته، ودلنا عليه من الإخلاص له في توحيده، وجنّبنا الإلحاد والشك في أمره»[3].

وكلما كانت هذه المعرفة معمّقة، ومتأتية عن طريق منهج صحيح، ومتوسلة بسبل واضحة كانت أكثر عُمقاً وتأثيراً في حياة الإنسان وأعماله

وعلاقاته وإعماره للكون. بل إن الإمام الصادق عليه السلام يُسأَلُ: ما بالنا ندعو الله، فلا يستجاب لنا؟ فيقول: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه!!»[٤].

إذن لابدّ من المعرفة الصحيحة لاستجابة الدعاء، الحد المرضي عنه من هذه المعرفة وفقاً للمستوى الروحي والمعرفي للإنسان، وليس المطلوب أن تكون هذه المعرفة معرفة الأنبياء (سلام الله عليهم)، أو معرفة علي بن أبي طالب الذي قال (لو كشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً) بمعنى أنه وصل إلى درجة من المعرفة واليقين بحيث أنه لو رأى الله ـ على سبيل الاستحالة ـ ما زادت معرفته به، وما زاد يقينه وتوحيده له!!

ولا معرفة ذلك الصحابي الجليل الذي سأله الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: كيف أصبحت ياسُراقة؟ قال: أصبحتُ مؤمناً والحمدُ لله، قال: وما حقيقة إيمانك؟ قال: أصبحت وكأني أنظر إلى أهل الجنة، وهم فيها يتزاورون، وأنظر إلى أهل النار، وهم فيها يتضاغون!!، قال عرفت فالزم!»[٥].

فالناس ليسوا سواء في درجات هذه المعرفة، كما أشرنا، والله ـ سبحانه ـ يرضى من هذه المعرفة، بالقدر الذي يعلمه هو، ولكنه لا يرضى الجهل به، ولا بالزيغ في توحيده وتنزيهه.

ولنتأمل قليلا في الاتجاهات إلى هذه المعرفة الإلهية، وهي الاتجاهات التي سادت التفكير في العالم الإسلامي منذ عهد بعيد.

جذور التصوف وأصوله:

قد يوحي هذا العنوان بأننا قادمون على البحث التفصيلي عن جذور التصوف الإسلامي ونشأته وتطوره ومدارسه، والحق أننا لا نريد أكثر من التعرف على بدايات هذا الاتجاه، والمآل الذي انتهى إليه من حيث تأثره بالفلسفات الوافدة من الشرق والغرب آنذاك.

ما من شك في أن جذور التصوّف قائمة في المنهج الإسلامي كما جاء في كتاب الله العزيز، وسنة رسوله الكريم، ومسيرة الأئمة من أهل بيت النبوة والصحابة والأولياء الصالحين من التابعين، وهو تصوف بالمعنى الذي يعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها بصورة من التوازن فريدة (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا)[٦]، وإن كانت الآية تشف عن تفضيل للآخرة ـ وهو الحق ـ وجعل السعي الدنيوي والنصيب الدنيوي وسيلةً للنصيب الخالد، ومن ثم، فهو إذا قيس بالسعي المطلوب للآخرة، عُدّ قليلاً. ولكنه مع ذلك جزء من السعي الأخروي ووسيلة إليه، فلا انفصال بين السعيين، ولا تدابر، بل تكامل واتصال.

وهذا التوجيه انعكس بوضوحه وإيحائه على مسار النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلى مسار الأعم الأغلب من أمته في جيلها الأول. وبهذا يمكن القول بأن التصوف لدى الأئمة أو لدى الصحابة تصوّف سني لا بعد فيه ولا «تطرف» ولا خروج عن منهج رسالة الإسلام[٧].

ويشير الباحثون إلى أن صورة الزهد في الدنيا تجمعت في سلوك الأئمة من أهل البيت بشكل خاص، وظهرت بشكل بارز لدى الإمام علي بن الحسين عليه السلام، ثم بدت بشكل منهجي ومعرفي أكثر لدى حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فكانٍ هذا الإمام (أول جامعٍ لما كاد يتفرق من أمر المسلمين، وكان بهذا رائداً للسنة والشيعة معاً على أساس العلم والدين)[٨]، وكان هذاٍ في بدايات الاتجاه إلى تطور التصوف إلى مذاهبٍ ومدارس تبتعد قليلاً عن المنهج السّني، ثم تأخذ مسارات أكثر بعداً حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من حلولية، ومن وحدة للوجود ومن شطحات وأوهام.

إذن فمنهج أهل البيت في الزهد والعبادة و(التصوف) هو منهج الإسلام، وهو المنهج النبوي، وما جاء بعده من مناهج فلسفية فهو من

المناهج التي قال عنها ابن خلدون بأنها حادثة في الملة، وليس لها ما يدعمها في ملة الإسلام. يقول في مقدمته الشهيرة (هذا العلم - التصوف - من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عن سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة. وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية)[٩].

ثم بدأت الاتجاهات تتنوع حسب المزاجات الفردية للمتصوفة وحسب المؤثرات المختلفة التي طرأت على المجتمع الإسلامي إبان الاختلاط بالفرس والهنود واليونان في العصر العباسي خاصة.

ولعلّ أبرز أثر في الاتجاهات الصوفية المتطورة هو الأثر (الغنوصي) gnosis، وهي (كلمة يونانية معناها المعرفة، ولكنها تطورت حتى أخذت معنىً اصطلاحياً، هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو هو تذوق المعارف تذوقاً مباشراً، بأن تلقى فيه إلقاءً، فلا تستند إلى الاستدلال والبرهنة العقلية)[١٠].

فهذه الغنوصية أثر يوناني امتزج بالروحية الشرقية عبر الافلوطينية الحديثة، وعبر الديانة المسيحية ثم الديانات الشرقية القديمة حتى وصلت أخيراً إلى الفكر الإسلامي فأثرت تأثيراً كبيراً في الاتجاهات الصوفية، فضلاً عن الاتجاهات المذهبية المتعددة في تاريخ الإسلام[١١].

ولا نريد أن نستطرد في هذا المقام فنتحدث عن منهج الحلاج أو السهروردي، أو منهج ابن عربي الاشاري الباطني، فهي مناهج لا يمكن فهمها على ضوء منهج أهل البيت الذين تمثلوا الإسلام وجسّدوه أصدق

تجسيد. وسوف نرى أن المنهج الذي يتسق وروح التوجيه القرآني والنبوي هو غير هذا المنهج الصوفي في مراحله المتأخرة.

وربما يكون من المفيد الاشارة هنا إلى أن المستشرقين وتلاميذهم من المتغربين في العالم العربي والإسلامي قد توجهوا توجها كليا إلى دراسة التصوّف في صورته الأخيرة ليدلوا على الأثر اليوناني والمسيحي في الفكر الإسلامي، وليغرقوا العالم الإسلامي المسلوب والمنهوب في مفاهيم بعيدة عن علاج مشكلاتهم التي تسير بهم إلى الاستلاب والانغماس كليا في حضارات الأمم المعادية.

خلاصة الأمر أن منهج الأثر المعرفي الذي ندرسه، وهو الصحيفة السجادية، غير المنهج الصوفي في صوره المتطورة والمتأثرة بالتيارات الغريبة عن الإسلام.

في علم الكلام والفلسفة:

لقد عرفنا أن النهاية التي وصلت إليها الاتجاهات الصوفية لا تلتقي والمنهج الإسلامي بل تزيغ عنه، ولا تنتهي إلى معرفة الله بل تنزل به إلى الحلول بالبشر، فترفع قدر بعض الأقطاب والأولياء من الصوفية إلى صفات الألوهية أو ما يشبه صفات الألوهية.

أما منهج علم الكلام والفلسفة فعلى الرغم من أنه يلتقي والمنهج الإسلامي في الطريق إلى معرفة الله من حيث توظيف العقل والمنطق والإفادة من طاقتهما وجهدهما بحدود ما ألهم الإنسان من طاقات أو إمكانات لهذا العقل، ولكن النتائج كانت غير موصلة إلى الأهداف المرجوة، فقد أضنى أولئك الفلاسفة عقولهم وأجهدوا أنفسهم، ولم يصلوا إلى الغاية التي يستريح إليها العقل أو يطمئن إليها القلب[١٢].

ومن المعلوم أن المتكلمين والفلاسفة المسلمين استعانوا بتجربة اليونانيين

في البحث الفلسفي. ونحن نعلم أن اليونانيين كانوا قوماً وثنيين يبحثون بمناهجهم الخاصة عما وراء الطبيعة، وعن واجب الوجود وعن الصانع الأكبر، ولكن تلك المناهج كانت متأثرة بالعقل الوثني وبالفهم المادي للوجود، وبالأساطير التي تؤمن بتعدد الآلهة وتصارعها من جانب آخر..

والحق أن متكلمينا وفلاسفتنا كانوا في حرز من التأثر بالفهم الوثني لما وراء الطبيعة، ولكن منهجهم ونتائجهم لم تخلُ من نوع أو آخر من التأثر، وليس هذا موضع التفصيل في هذه القضية. ولكن النقطة المركزية التي نريد إيضاحها هنا هي أنّ أهداف البحث عن الذات الإلهية في المناهج الوثنية اليونانية تختلف عن الهدف في البحث الكلامي والفلسفي في المنهج الإسلامي انطلاقاً من الظروف الموضوعية المختلفة لكل من المجتمعين اليوناني والإسلامي. فبينما كان اليونانيون يبحثون عن إله لا يعرفونه كان المسلمون يمتلئون احساساً بهذا الإله عبر الدين الإسلامي الذي جاء به الرسول الموحى إليه وعبر الكتاب الذي نزل بكلمات الله، وبملائكة الله، بما في هذا الدين وهذا الكتاب من وضوح منهج ووضوح أوامر وقصد توجيهات روحية وتربوية واجتماعية وسياسية خالقة للمجتمع الفاضل الذي يسير فيه الإنسان على هدى الخالق الأعظم والموجد الأحد الصمد[١٢].

فكان لأولئك مناهجهم عن الإله المجهول الذي يريدون أن يكتشفوه، ولم يكن ثمة ضرورة لأن يسلك المسلمون تلك المناهج نفسها، بل كان ينبغي أن تكون وجهة منهجهم وجهة أخرى مخالفة تماما خلاصة أمرها أن تعمق الإيمان بالإله الموجد، وأن تحرك المشاعر لحبه والتعلق به، وأن تعمل على تجسيد أوامره ونواهيه. وأن تحاول صياغة نظم اجتماعية وسياسية حضارية تسهم في بناء المجتمع الرباني الذي يطور الآلة ويساعد الإنسان على تسهيل معاشه، وتسهيل سبل التعامل مع أخيه الإنسان، ثم حمل رسالة الإسلام إلى الجهات الواسعة من الأرض لأعلاء كلمة الله بعيدا عن مطامع

الدنيا أو جباية المال أو الرغبة في النفوذ والسلطان.

هذه الأهداف، وغيرها كثير كان يمكن أن يتوجه إليها جهد التفكير الإسلامي بعيداً عن إضاعة الوقت في أبحاث غير مجدية للمجتمع الإسلامي المؤمن بل ربما كانت مجدية للمجتمعات التي كانت تبحث في بدايات الطريق عن موجد الوجود..

ومن الانصاف أن نقول إن ذلك التوجه الكلامي كان نوعاً من ردود الفعل، ولم يكن فعلاً أو مبادرة خارجة عن الحافز الخارجي، لقد كان هناك نوع من الضغط على العقل الإسلامي في الفلسفات الوثنية اليونانية والهندية والفارسية، هذه الفلسفات التي تسلك مسالك عقلية واستدلالية متنوعة غالباً ما كانت خاضعة للظروف الاجتماعية أو الحضارية السائدة لدى الأمم القديمة. وقد اقتحمت هذه الفلسفات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي. وهزّته هزاً، وأحدثت بلبلة في العقول وشكوكاً لدى الناس، فكان لابدّ من الإفادة من تلك المناهج ذاتها، لاستخدامها للردّ على تيار الشرك والشك والزندقة، كما سميت حينذاك.

ولو خلي المجتمع الإسلامي وعقله في البحث عن الذات الإلهية، لسلك المنهج الإسلامي والمنهج القرآني الذي سوف نتحدث عنه، ولكنه أجبر واقتيد مضطراً إلى مناهج غريبة عن طبيعته، وكانت نتائج هذا الاقتياد أن ابتعدت الفلسفة عن توجيه المجتمع إلى أهدافه في الخلافة الربانية، إلى أهداف وأبحاث في المجرّدات والميتافيزيقيا، وكانت النتائج خلافات وصراعات وأوهاماً لا حدّ لها، انتهت إلى التنكيل بالعلماء المخالفين واللجوء إلى السلطة في إسناد هذه الفئة دون تلك، كما حدث في زمن المأمون وتأييده للمعتزلة وتنكيله بأهل السنة، وكما حدث في زمن المتوكل وتأييده لأهل السنة وتنكيله بالمعتزلة..

لقد كان الطريق غير الطريق المأمول للسير بالمجتمع الإسلامي، بل

وغير الطريق المأمول في معرفة الله وتعميق هذه المعرفة في الكيان الإنساني ليتحرك في أداء رسالي جيد، وتحمل الأمانة التي خلق من أجلها في حين أبت الأرض والجبال أن يحملنها....

الطريقة القرآنية:

مرٍّ علينا أن الطريق إلى معرفة الله بمناهج الفلاسفة كانت بشكل عام طريقاً غير قاسطة أجبر العقل الإسلامي على أن يخوض فيها، وكان عليه أن يعمق البحث عن «المسؤولية» إزاء الخالق، وليس تفسير ذات الخالق. وهذا البحث عن المسؤولية والذي سوف نجده في المنهج القرآني بعد الاستدلال الفطري والعقلي على تفرد الله سبحانه بخلق العالم وتدبيره.

ومن المعلوم أن الرسل عليهم السلام لم يبدأوا دعواتهم بالبرهنة على وجود الله، وإنما كانوا يدعونهم بقولهم: (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[١٤] ثم يلفتونهم إلى عظمة الله وجلاله وكبريائه وهيمنته الكاملة على العالم، وذلك من خلال الأدلة الفطرية والعقلية واستثارة وجداناتهم ونظرهم غير المتأثر بالمفاهيم المسبقة عن الإله المبدع لهم ولما حولهم من الوجود.

وهذا ما نجده بشكل منهجي واضح في القرآنٍ الكريم، الكتاب المهيمن على الكتب السابقة والأثر الإلهي الذي بقي خالداً دون أن تمتد إليه اليد البشرية بالتحريف. فانظر إلى هذا المنهج القرآني الذي يدعو الإنسان أن يتأمل نفسه أولا لينتهي إلى الاجابات الوجودية عن أصله ونشأته، فيقول له: (وفي أنفسكم، أفلا تبصرون)[١٥]، (وضرب لنا مثلاً، ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم؟، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم)[١٦].

ثم يتخذ من السموات والأرضين دليلاً لقدرة الله على خلق الإنسان

نفسه، فيقول: (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى وهو الخلاق العليم)[١٧].

على أن الدعوة القرآنيّة إلى التأمل فيما يحيط بالإنسان من موجودات دعوة واضحة المعالم في القرآن. ونحن نريد أن نقف عندها لا على سبيل الاحصاء، لأن هذا ليس من خطة البحث، ولكننا نريد أن نقف عند نموذج واحد نتأمل فيه ملامح المنهج القرآني أو الطريقة القرآنية في التعرف على ذات الله بعيدا عن السبل (الغنوصية) الصوفية، وبعيدا عن الاستدلالات اليونانية الفلسفية.

يقول الله سبحانه في سورة النمل: (أَمّنْ خلقَ السموات والأرض؟ وأنزل من السماءِ ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أنٍ تُنبتُوا شجرها، أإلهٍ مع الله؟ بل هم قومٌ يعدلون. أمّن جعل الأرضٍ قرارا، وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسيَ، وجعل بين البحرين حاجزا، أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أمّنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض، أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكرون. أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر، ومن يرسل الرياحَ بشرا بين يدي رحمته. أإله مع الله؟ تعالى الله عمّا يشركون. أمّنْ يبدأ الخلقَ ثم يعيده، ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[١٨].

في هذا النص القرآني المحدود تتجسد معالم الطريقة القرآنية كلها في بسط الأدلةٍ الفطرية والفلسفية والعلمية لاستجاشة الكيان الإنساني كله وجعله مؤمناً مذعنا لملكوت الله وعظمته.

فالدليل الفطري تنبئ به الآية: (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)؟ فتستحضر أمامنا صورة ذواتنا أو ذوات غيرنا وهي تُمتحن في ابتلاء أو ضيق حيث تضيع في صحارى مجهولة، أو تلفها أمواج من البحار مظلمة، أو تسقط في هاوية سحيقة، ترى من تدعو حينئذٍ وبم تستغيث؟! ثم

من تتوقع أن يجيب دعوتها أو ينقذها مما هي فيه؟!

ثم الدليل الفلسفي الذي يُلخص بقانون الأثر والمؤثر، فمن ياترى أوجد هذه الموجودات كلها؟ وهي موجوات ناطقة بمرجعيتها إلى صانع ومدبر لها. فمن أنبت ومن جعل ومن سيّر ومن بدأ ومن أرسل؟! (بل أكثرهم لا يعلمون).

وقد كان العلم قديمه وحديثه يأتي بالدليل تلو الدليل، ويكتشف القوانين إثر القوانين في طبيعة الجو، وعلاقات البحار، وأسرار الرياح والغيوم والبرق، فضلا عن الكائن الذي انطوى فيه العالم الأكبر، هذا الكائن المسمى بـ(الإنسان)، وهو أكرم مخلوق في الوجود، وكل ما في الوجود خلق من أجله وله.

والذي أحب أن ألفت إليه في هذه الوقفة أنّ المنهج القرآني وعبر هذا النص الموجز يخاطب العقل والعاطفة ويهز الشعور ويتعمق في مكونات الجهاز البشري كله، عقلاً وقلباً وأعصاباً. (قليلا ما تذكرون)، وإذاكان صاحب إبراهيم قد بُهت من دليل واحد لإبراهيم فماذا تراه صانعاً إزاء هذا الاستنطاق الذي لا يجد أمامه بُداً من الاستسلام لرب العالمين؟

وهذا المنهج يمكن أن يُخاطب به الملحد الذي لا يؤمن بالله إطلاقاً، ويمكن أن يخاطب به الجاهلي الذي كان يؤمن بوجود الله، ولكنه يُشرك معه آلهة أخرى، (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، ليقولن خلقهن العزيز العليم)[١٩]، كما يمكن أن يُعمّق فيه إحساسُ المؤمن الموحد المسلم.

وهو منهج غير فلسفي تجريدي، بل يمزج بين أسلوب الفيلسوف والداعية المغيّر الذي يستدرج الإنسان إلى الحركة والعمل والدأب والإعمار، بعد أن ينتزع منه الاذعان للخالق البارئ المكلف خلقه بمسؤولية العبادة.

وهذا المنهج هو الذي سوف تستعين به الصحيفة السجادية في بلوغ مقاصدها وفي إطار مجتمع مسلم انحرف به الحكام عن أهدافه، فاتجه

إلى غير الوجهة التي استخلفه الله بها، وندبه إليها.

وقبل الوقوف المتأني عند نصيب الصحيفة من العرفانية ومنهجها ومفردات هذا المنهج ومادته، نثبت هذا المقطع من دعاءالإمام عند كل صباح ومساء، وهو دعاء وليد ذلك المنهج القرآني الذي مثلنا له بالنص السابق الذي يستدرج الإنسان إلى تعريفه بنفسه وبالوجود الذي حوله، وبالموجد الذي أوجده.

يقول الإمام: (... الذي خلق الليل والنهار بقوته، وميّز بينهما بقدرته، وجعل لكل واحدٍ منهما حدا محدودا، وأمدا ممدودا. يولج كلّ واحدٍ منهما في صاحبه، ويولج صاحبه فيه بتقدير منه للعباد، فيما يغذوهم به، وينشئهم عليه. فخلق الليل ليسكنوا فيه من حركات التعب، ونهضات النّصب. وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومنامه، فيكونٍ ذلك لهم جماماً وقوة، ولينالوا به لذة وشهوة. وخلق لهم النهار مبصرا ليبتغوا فيه من فضله، وليتسببوا إلى رزقه، ويسرحوا في أرضه، طلباً لما فيه نيل العاجل من دنياهم، ودرك الآجل في أخراهم...)[٢٠].

فهذا ليس دعاءً طلبيا، وإنما هو دعوة للتأمل ومنهج للتعرف على صنع الله الذي أحسن كل شيء صنعه. وهذا هو عين المنهج الذي وقفنا عنده مع آيات الذكر الحكيم. وهذا هو هدفنا من الاستشهاد بهذا الموضع من الدعاء، أما الوقوف عند أهدافه التربوية وآثاره النفسية ودوافعه الاجتماعية، فلنا معها تأملات في الصفحات القادمة من البحث.

في صفات الله وأسمائه الحسنى:

لم يكن الجيل القرآني الفريد ليسأل عن الذات الإلهية، وما كنهُها أو من خلقها!!، لأنه كان مبهورا بآيات الله وعظمته وكلماته، وكان منغمرا بالعمل والجهاد، وكانت معظم اسئلته لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

من قبيل: أي الأعمال أحبّ إلى الله؟، وأي الأعمال خير؟ دلني يارسول الله على عمل يدخلني الجنة. وغير ذلك من الصيغ المتنوعة لمضمون هذا السؤال[21].

ولكن الأجيال التالية خاضت في هذا الموضوع، وتوقفت كثيراً عند صفات الله، فسمي الأشاعرة بالصفاتية لأنهم فصلوا بين الذات الإلهية وصفاتها، وسمي المعتزلة بالمعطلة لأنهم اعتبروا هذه الصفات هي عين ذاته، وتشعبت السبل في هذا المجال وتعدّدت بتعدد الفرق حتى وجدنا من يجسد الله ويشبهه بخلقه ويجعل له أعضاء كأعضاء عباده، كما يلاحظ هذا على عقائد الكرامية[22].

ومهما يكن فإن التوجيهات القرآنية والنبوية وما أُثر عن الأئمة وأهل النظر الصحيح من المتكلمين والفلاسفة تنتهي إلى الإيمان المطلق باتصاف الله بكل كمال وهذا ما يسمى بالصفات الكمالية لله سبحانه، مثل العلم والقدرة والإرادة والحياة... وأما الصفات السلبية فهي الدالة على المحدودية والنقص كالجسمانية والموت والظلم، والله تعالى منزه عنها[23].

وتدلنا نصوص نهج البلاغة على أنها كانت معلماً بارزاً في هذا المجال، وما من شك في أن النهج أثر من آثار التربية القرآنية والمحمدية الرشيدة. يقول الإمام عن صفات الله سبحانه وتعالى: (لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين. متكلم لا بروية، مريد لا بهمّة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء)، ويقول: (ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولاوقت معدود، ولا أجلٌ ممدود)[24].

ويبدو أن الإمام السجاد عليه السلام سليل المدرسة العلوية كان ينظر إلى هذه المعاني وهو يتحدث عن صفات الله سبحانه، فيقول في الصحيفة: (اللهم يامن لا يصفه نعتُ الواصفين)[25]، ويقول في موضع آخر: (أنت الذي

قصرت الأوهام عن ذاتيتك، وعجزت الأفهام عن كيفيتك، ولم تدرك الأبصارٍ موضع إنيّتك. أنت الذي لا تُحدُّ فتكون محدودا، ولم تمثل فتكون موجودا، ولم تلد فتكون مولودا، أنت الذي لا ضدّ معك فيعاندك، ولا عدل لك فيكاثرك، ولا ندَّ لك فيعارضك)[٢٦].

وبهذا التوجيه يكون الادراك الإنساني أعجزٍ ما يكون أن يدرك كنه الذات الإلهية، إذ كيف يحد مخلوقٌ خالقا، وكيف يصف عاجزٌ كاملا، وكيف يحيط محدود بمطلق؟! بل إن المقاييس التي ينشئها الإنسان لفهم الأشياء كيف يستطيع أن يقيس بها عالما لا يعرف أبعاده، وهو الذي لم يستطع أن يستقصي الأبعاد المحدودة في نفسه وفي العالم المشاهد المحيط به؟!

ولهذا تجد الإمام زين العابدين لا يوغل في الحديث عن هذه الصفات شأن الأجيال التي أعقبته، بل يكتفي بالقدر الذي يتناسب والفهم القرآني والتوجيه النبوي. فيكفي أن يقف المؤمن عند الصفات التي وصف الله بها نفسه، وكفى به عالما بها. فأنّى للإنسان أن يتحدث عمّا لا يعلم؟ فقد قال تعالى عن شأنه عزّوجلّ: (ليس كمثله شيء)[٢٧]، ثم قال: (ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)[٢٨].

كما أنه علّم عباده المؤمنين أن يدعوه بأسمائه الحسنى: (ولله الأسماء الحسنى، فادعوه بها)[٢٩]. يقول الزمخشري: «سميت كذلك لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن»[٣٠].

وبسبب من هذا تجد الإمام يقف طويلاً عند أسماء الله الحسنى ويكرر ذكرها في الأدعية المختلفة، ولا يذكرها في مواضع تمجيد الله بل في مواضع طلب رفده وتسديده.

وما من شك في أن ذكر الله بأسمائه الحسنى له فضل عظيم، لأنه دليل

ـ كما قال الرازي ـ على فهم قوله تعالى: (وذروا الذين يلحدون في أسمائه)[٣١] والالحاد في اللغة هو الزيغ والذهاب عن سنن الحق والصواب، أي أن ذكر الله سبحانه بأسمائه الحسنى تحقيق للبعد عن وصفه بما لا يليق بجلاله وعظمته، كوصف النصارى له بما لا يليق، وكوصف الكرامية من المسلمين له على أنه جسم كأجسام مخلوقاته!!

ونحن في هذا الموضع من الفصل لا يمكننا أن نذكر الأسماء الحسنى كلها كما وردت في الصحيفة، نظراً لكثرة هذه الأسماء وكثرة ورودها في الصحيفة، وسوف نقف عند أسماء تتكرر كثيراً في الصحيفة، وهي أسماء المعاني الدالة على العطاء والرزق والرحمة والعفو والمغفرة والعدل.

ولعلّ أكثر هذه الأسماء وروداً في الصحيفة هي صفة الرحمة، ومن المعلوم انها وردت كثيراً في القرآن الكريم مع صفة الرحمن، حتى وصلت إلى ثلاث وسبعين ومائة مرة بالاضافة إلى ذكر الرحمة مرات كثيرة، وذكر المشتقات الأخرى من الرحمة، مثل رحم، ويرحم، وأرحم. وربما تبادر إلى الأذهان أن اسم الله الأعظم هو الرحمن نظراً لكثرة وروده في القرآن، أو لاقترانه باسم الله في قوله تعالى: (قل ادعو الله أو ادعو الرحمن، أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى)[٣٢].

ولكنه لم يتأكد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه حدّد اسماً معيناً على أنه الاسم الأعظم لله سبحانه.

مهما يكن، فاننا نتملى هذا الاسم من أسمائه تعالى على لسان عبد من عباده الذين استخلصهم لعبادته وطاعته، فنجد في الذكر حلاوة، كما وجدها الإمام وهو يرطب لسانه به حيث يقول: (وأوجدني بَرْد عفوك، وحلاوة رحمتك)[٣٣]، وحيث يقول: (... فيامن رحمته واسعة، وعفوه عظيم)[٣٤]، وحيث يقول: (... ولا تحرمني، وقد رغبتُ إليك، ولا تجبهني بالردّ، وقد انتصبت بين يديك، أنت الذي وصفت نفسك بالرحمة)[٣٥].

ويلاحظ اقتران الرحمة بالعفو الإلهي فالذي وسعت رحمته كل شيء يزيل عن المذنب ذنبه ويعفو عنه كما تعفو الديار وتزول آثارها، أو هو العفو من الفضل، أي ما صفا من الأخلاق، ولعمري فإنّ صفات الله سبحانه كاملة مثل كماله، فهو الذي يعطي الكثير، ويهب الفضل، ويتجاوز عن السيئات.

إن الذي يردّد لفظ الرحمة يجد برداً وحلاوة، كما قال الإمام عليه السلام، وإنها لفظة ربما ذكرتنا بحنان الرحم الأمومي وهو يشتمل على الجنين فيقيه برد الشتاء وحرّ الصيف، كما يقيه الكدمات التي يتعرّض إليها أثناء حركة الأم واصطدامها بالأشياء.. والله سبحانه أرحم بالعباد من ذلك الرحم الرقيق الذي تجسدت فيه عجائب صنع الله وأسرار خلقه.

فما دام الله ـ سبحانه ـ وصف نفسه بالرحمة، فلماذا لا يردّد العبد كلام سيده؟ ولماذا لا يخاطبه بأحب الصفات إليه؟ وهو يعرف هذا السيد، ويعرف مدى جوده وهو ينادى بأسمائه العظمى.

وإمامنا (سلام الله عليه) يتحدث عن قوانين استمدها من معرفته الإلهية، فهو يقول مخاطباً ربّه: (أشبه الأشياء بمشيئتك، وأولى الأمور بك في عظمتك رحمة من استرحمك)[٣٦].

هذه صفاتك يارب، أنت أنبأت بها أحبّاءك، أنك ترحم من استرحمك صادقاً. وتلك سجية فيك وخلق هو عين ذاتك، فأنت عين الرحمة وذاتها، والرحمة أنت، سبحانك!!

فهل هناك أوجب للرحمة من هذا العبد المتأله الذي بلغ عنده التأله حد الانعتاق من كل عبودية إلاّ العبودية لله؟!

ومثل حديث الإمام عن الرحمة حديثه عن عدل الله في معاملة عباده، بل إنه يسبق عدله بتفضله وإحسانه ولو آخذ الناس بظلمهم في الحياة الدنيا لما ترك عليها من دابة. والإمام يقول إنه لا يخشى جور الله وظلمه ـ

حاشاه ـ بل يخشى عدله. لأنّ العبد الآبق الكثير الذنوب لا يقوى في الوقوف أمام عدل الله، لأنه خاسر لا محالة، ولذلك يقول الإمام (سلام الله عليه): (الحمدُ لله الذي لا أخشى إلاّ عدله!!)[٣٧]. ويقول في موضع آخر: (فكل البرية معترفة بأنّك غير ظالم لمن عاقبت، وشاهدة بأنك متفضل على من عاقبت)[٣٨].

والإمام يلح في ذكر العدل الإلهي، ويلح في نفي الظلم عن الله سبحانه. وفي هذا بعد عِرفاني عميق لأن هذه الصفة ذات علاقة جوهرية بين العبد وربه، ولذلك قدمت هذه الصفة (العدل) لدى بعض المذاهب الإسلامية على التوحيد نفسه، فقيل العدل والتوحيد، وهو مذهب الإماميّة والمعتزلة.

فكيف تكون علاقة العبد بربه ـ فرَضاً ـ لو أن هذا الرب يجوز أن يصدر عنه الظلم ـ حاشاه ـ وهذا ما يلج عقول البعض من المسلمين على سبيل التأدب مع الله، وعلى سبيل عدم فرض شيء على الله، بأن نقول إن العدل واجب عليه!!

ولعلّه بسبب من أهمية قضيةٍ العدل الإلهي وصلته بالمخلوقات، صار المفهوم ذا بُعد سياسي، لأن كثيراً من الحكام كانوا يمارسون الظلم والجور باسم الحكم الإلهي وباسم الجبرية التي تأول لها المتأولون من أجل تثبيت أركانِ الظلم والاستبداد وسرقة جهود العباد. وربما أشبعنا هذه القضية بحثاً في فصل (الأبعاد السياسية في الصحيفة السجادية)، فيما سيأتى من البحث.

ويكثر الحديث، أيضاً، عن صفة الكرم والتفضل والإحسان الإلهي على العباد، والإمام ـ كما يحس القارئ ـ ممتلئ إحساسا بهذا التفضل والكرم والإحسان، ولا يعد نفسه شيئاً لولا هذا الالتفات الإلهي على العبد المعتمد عليه الذي لا يرجو غيره. وهذا ما يتضح في قوله: (... وعادتك الإحسان، وسبيلك العفو)[٣٩] وكثيراً ما يردد: ياكريم... ياكريم!!

والحق أن عطاء الله لا ينفدُ، فما عند الناس ينفدُ، وما عند الله باق، ولا ينقصه عطاء منَّ به على عبده، ولا يمنُّ حين يعطي، ترى فلماذا لا يكون التوجه إليه وحده من دون مخلوقاته؟! هذا هو السؤال الفطري البسيط، ولكن أين الناس منه؟!

ولا أحسبني قادراً على متابعة السير في هذا المجال، لأن أسماء الله الحسنى بلغت تسعة وتسعين واختلف في الزيادة، فكيف استطيع متابعة هذا في الصحيفة في فصل منهجي محدود الصفحات. وأعتقد أن ما ذكرته كافٍ للدلالة عليه ورود الصفات الإلهية الأخرى في الصحيفة، واكتفي بهذا القدر، على انه من الضروري الاشارة إلى أن مادة الأدعية هي الحديث عن هذه الصفات، لأن الإمام يتوسل بها لتعظيم الله وإجلاله، وجعلها مقدمة لطلب حاجاته، كما سنرى.

تمجيد الله وتعظيمه:

إذا كان الدعاء مخ العبادة فأفضله ما مُجد الله به وعُظم، وهو المجيد الأجل الأعظم، أهل الجبروت والعظمة، وأهل الكبرياء والرحمة، وهو ذاته ـ سبحانه ـ يمجد نفسه، ويدعو عباده أن يمجدوه بتوحيده.

يذكر الكليني بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال: (إن الله تبارك وتعالى يمجد نفسه في كل يومٍ وليلةٍ ثلاث مرات، فمن مجد الله بما مجد به نفسه، ثم كان في حال شقوة حوّله الله عزّوجلّ إلى سعادة)[٤٠]. كما يروي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: (ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلاّ الله، إن الله عزّوجلّ لا يعدله شيء، ولا يشركه في الأمور أحد)[٤١].

وفي إحياء علوم الدين للغزالي حديث يرويه الإمام علي عليه السلام عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: إن الله يمجد نفسه كل يوم،

ويقول: إني الله ربُّ العالمين. إني أنا الله لا إله إلاّ أنا الحي القيوم. إني أنا الله العلي العظيم. إني أنا الله لا إله إلاّ أنا لم ألد، ولم أُولد، إني أنا الله لا إله إلاّ أنا العفو الغفور...)[٤٢].

ويرى فخر الدين الرازي أن المقصود بالطيب من القول في قوله تعالى: (وهُدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد)[٤٣]، هو قول (لا إله إلاّ الله)، فلا أطهر ولا أطيب من هذه الكلمة بدليل قوله تعالى: (إنما المشركون نجس)[٤٤]، ويقول: (ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفرهم سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة. وكيف يعقل ألا يزول وسخ المعاصي بسبب ذكر هذه الكلمة سبعين مرّة؟)[٤٥].

ولنا تعليق واحد على قول الرازي (وكيف لا يزول وسخ المعاصي بسبب ذكر هذه الكلمة سبعين مرة) من باب الاحترام خشية أن يقول قائل: مادام الأمر كذلك، فذكر لا إله إلاّ الله سبعين مرة من أسهل الأمور، بل إن الإنسان لقادر على أن يذكرها آلاف المرات إذا كان فيها محو للذنوب. والحقٍ أن الأمر ليس كذلك، فمع عظمة ذكر لا إله إلاّ الله، وعظمة الذكر عموما، فالمنطق الإسلامي والتوجيه القرآني يؤكد على ضرورة العمل والإصلاح.

وإذا كان القرآن أثنى على الذكر والذاكرين فإنه جاء مقرونا بالعمل والجهاد والسعي وإعلاء كلمة الله والإصلاح بين الناس وإعمار الأرض (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً)[٤٦]، فقد جاءت الاشارة إلى الذكر بعد الصلاة ولازمت الانتشار في الأرض، بما في هذا الانتشار من أعمال في الحياة لا حدّ لها. بمعنى أنّ الذكر لا يلازم حالة واحدة، وهو ليس (لقلقة) باللسان، بل هو لفظ واحساس عميق بالصلة بالله وطلب عونه في أي عمل صالح في هذه الدنيا... فمع السعي لكسب الرزق ذكر، ومع الجهاد ذكر، ومع الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ذكر...

نقول هذا للإشارة إلى أن منهج الحياة في الإسلام منهج ذكر وعبادة وعمل، وليس منهجا منعزلا عن الحياة، مكتفيا بالذكر وحده، كما يلحد إليه بعض التيارات الصوفية غير الرشيدة، وليست التيارات الصوفية العاملة التي كان لها في الجهاد تاريخ وعمل، كما عرف عن جهاد الصوفي عبد القادر الجزائري، والسنوسي عمر المختار في ليبيا، وأخيرا عرفانية الإمام الخميني العالم العارف الذاكر المجاهد وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

ونعود إلى حصيلة الصحيفة السجادية من تمجيد الله وتعظيمه، وهي الأثر الذي استوعب صاحبه التوجيه الإلهي وتربى في حجر البيت الذي طهّره الله تطهيرا، فكان تمجيد الله على لسانه وقلبه، وكان التمجيد مؤثرا ودافعا لكل أعماله وعباداته، فلا شيء ذو قيمة من العمل والعبادة دون التمجيد والتعظيم الحق لله، أهل المجد والعظمة. وكل عمل دون الاستحضار لهذا التمجيد والنية الخالصة لوجهه تعالى فهو محبوط، وهو هباء منثور في ميزان الحق يوم اللقاء الأكبر والمحضر الرهيب.

ولهذا ترى ذكر (لا إله إلاّ الله) الكلمة الثقيلة في الميزان على فم الإمام، وهي تشغل حيزا واسعا من أدعية الصحيفة في مثل قوله في يوم عرفة، يوم الجمع العظيم: (أنت الله لا إله إلاّ أنت، الأحد المتوحد الفرد المتفرد، وأنت الله لا إله إلاّ أنت، الكريم المتكرم، العظيم المتعظم، الكبير المتكبر. وأنت الله لا إله إلاّ أنت، الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، وأنت الله لا إله إلاّ أنت السميع البصير، القديم الخبير، وأنت الله لا إله إلاّ أنت، الكريم الأكرم، الدائم الأدوم. وأنت الله لا إله إلاّ أنت الأول قبل كل أحد، والآخر بعد كل عدد، وأنت الله لا إله إلاّ أنت ذو البهاء والمجد، والكبرياء والحمد...)[٤٧].

وهكذا يأتي تمجيد الإمام لله صورة من تمجيد الله لذاته، سبحانه

وصورة لتمجيد جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وأنت كما تلاحظ في هذا التمجيد العرفاني الخالص، أنه ليس من قبيل الدعاء، بل ذكر للحقيقة العليا التي يتصف بها ربّ السماء. أما الدعاء الطلبي الذي ترد فيه المطالب المختلفة من دنيوية وأخرويّة فموضعها غير هذا الموضع. وإن كانت هذه المطالب جزءا من الدعاء ومادة له، بل ان العبد ليتخذ مقدمات ووسائل يتوسل بها للوصول إلى سيده. وأكرم بتمجيد الله وتعظيمه وسيلة يقدمها العبد بين يدي ربه الذي يعرف ما يريد! ويعرف ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

إن الدعاء المجيدي بهذه الصورة علم بحقائق الألوهية وليس نوعاً من الطلبات البشرية التي لا تعد ولا تحصى، وإن كان الخالق أمر عبده أن يسأله، بل لولا سؤال العباد ودعاؤهم لهلك الكثير منهم (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم)[48]، ففي الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام انه (من لم يسأل الله افتقر)[49]، وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام رجلاً دعّاءً، بل كان إبراهيم عليه السلام أوّاهاً أي دعّاءاً[50].

ولتمجيد الإمام لربّه صور مختلفة تأخذ طابع المناجاة، فيقدمه بـ(يامن...)، فيقول: (يامن يرحم من لا يرحمه العباد، ويامن يقبل من لا تقبله البلاد... ثم يقول: فلك العلو الأعلى فوق كل عال، والجلال الأمجد فوق كل جلال، كل جليل عندك صغير، وكل شريف في جنب شرفك حقير...)[51].

أو يأخذ طابع التعجب من عظمة الله وعجائب صنعه، وعلوّ شأنه، فيقدم أسلوب التعجب بـ(سبحانك)، فيقول: (سبحانك!! ما أعظم شأنك، وأقهر سلطانك، وأشدّ قوتك، وأنفذ أمرك!!)[52].

وللإمام في هذه الصورة دعاء كله تسبيح، وهو من ملحقات أدعية الصحيفة نقتطع جزءا منه حيث يقول في بدايته: (سبحانك اللهم

وحنانيك، سبحانك اللهم وتعاليت، سبحانك اللهم والعز إزارك، سبحانك اللهم والعظمة رداؤك، سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك...)[٥٣]. ولولا خشية الإطالة لذكرنا التسبيح كله، فهو مما تخبت له النفس المؤمنة الخاشعة. وقد روى الزّهري عن سعيد بن المسيِّب قال: كان القوم لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين عليه السلام، فخرج وخرجتُ معه، فنزل في بعض المنازل فصلى ركعتين، فسبّح في سجوده، يعني بهذا التسبيح، فلم يبقَ شجر ولا مدر إلاّ سبّح معه. ففزعنا، فرفع رأسه، فقال: ياسعيد، أفزعت؟! فقلت: نعم ياابن رسول الله، فقال هذا التسبيح الأعظم حدثني أبي عن جدي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح...)[٥٤].

ولا غرابة في عرف القلوب المؤمنة أن يسبّح الشجر والمدر والطير فقد قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين: (وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[٥٥].

ومع هذه الأحوال كلها من الحرص على تمجيد الله في السر والعلن، والفقر والغنى، والفراغ والشغل، وفي الليل والنهار وفي كل حال من أحوال الإمام تجده عليه السلام يخاطب الله سبحانه: اللهمّ صل على محمد وآل محمد. وجنّبنا الالحادَ في توحيدك، والتقصير في تمجيدك...)[٥٦].

ولعمري هذا شأن المتقين الذين لا يستكثرون من الطاعات والعبادات والتمجيد والتسبيح لربّ العزة. أما نحن، فما أكثر ما ندلّ على الله بنفقةٍ ننفقها، أو جهد نبذله في سبيله، أو كلمة نقولها في حقه، وما درينا أن هذا كله من فضله ومن عطائه، فكيف نستكثر على من هدانا للانفاق ورزقنا وأعطانا القوة للعمل له أو القول في حقّه؟! وشتان ما بيننا، وبين أولئك!!

حمد الله وشكره:

إذا تمت معرفة الإنسان لربّه حقاً، عرف كيف يمجده ويعظمه، وإذا عرف ذلك حمده وشكره على ما لا يُحصى من إفضاله وآلائه ونعمه. وكما يرضى الخالق أن يمجده المخلوق، يرضى له أن يذكر نعمه ويحمده على نعمه. ولأهمية التمجيد والحمد.

قدم ربُّ العزة ذكرهما في سورة الفاتحة، وهي السورة التي لا تكون صلاة إلاّ بها، ثم ثنى بالعبادة وأعقب هذا بالدعاء.

ففي الحديث القدسي الشريف يقول الله تعالى: (قُسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي. ولعبدي ما سأل. يقول العبد: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الله: ذكرني عبدي. يقول العبد: الحمدُ لله رب العالمين. يقول الله: حمدني عبدي. يقول العبد: الرحمن الرحيم. يقول الله: أثنى علي عبدي. يقول العبد: مالك يوم الدين. يقول الله: مجدني عبدي، فوّض إلي عبدي. يقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل...)[٥٧].

وهناك أحاديث كثيرة تبين فضل الحمد مقترنا بالتمجيد أو التسبيح. في (إحياء علوم الدين) قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من قال ثلاثا وثلاثين مرة سبحان الله، وثلاثاً وثلاثين الحمدُ لله، وثلاثاً وثلاثين الله أكبر، وختم بلا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر)[٥٨].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (التسبيح نصف الميزان، والحمدُ يملأ الميزان، والله أكبر يملأ ما بين الأرض والسماء)[٥٩].

وعن أبي عبد الله (أي الأعمال أحب إلى الله؟، قال: أن تحمده)[٦٠].

والحق أن تتبع المواضع التي ورد فيها ذكر الحمد لله في الصحيفة كثيرة، وهي تدل على نباهة حس ودقة تأمل في آلاء الله لدى الإمام، وهو يكرر

لفظ الحمد كما لو كان يجد حلاوة خاصة في حروفه كما تلاحظ في الدعاء الأول من الصحيفة: (... والحمدُ لله الذي لوحبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من سننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا في مننه فلم يحمدوه، وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه... والحمدُ لله على ما عرّفنا من نفسه وألهمنا من شكره، وفتح لنا أبواب العلم بربوبيته، ودلنا عليه من الإخلاص له في توحيده، وجنّبنا الإلحاد والشك في أمره. حمداً نعمّر به فيمن حمده... حمداً يضيء به لنا ظلمات البرزخ، ويسهل علينا به سبيل المبعث... حمداً يرتفع منا إلى أعلى عليين في كتاب مرقوم...)[٦١].

فهو عليه السلام، يحمد الله على أن دلّ عباده على حمده، وهذه نعمة كبيرة لا يعرفها إلاّ الرّبانيون، لأن الإنسان إذا تصرف في نعم الله، ولم يحمده لم يعد يملك معنى الإنسانية التي كرّمه الله بها، بل لتحوّل إلى معنى البهيمية كما قال تعالى: (إن هم إلاّ كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلا)[٦٢].

ويحمده على تعريفه نفسه للعباد، وهدايته لهم بالشكر، وتسهيله لهم سبيل توحيده والإخلاص له... ثم إن نوعا من الحمد بهذه الدرجة لقمين أن يكون عظيما يرتفع بالعدد إلى درجة الحامدين، وتُضاء له به ظلمات القبور، ويسهل به طريق النشور، ويسجل عند ربّ العالمين في أعلى درجات من عليين.

وهناك مواضع أخرى للحمد تشير إلى مواد وموضوعات للحمد. منها حمد الله على ابتداعه للخلق وهدايته لهم سبيل الرشاد وامتحانهم بالحياة، واستعادتهم إلى ملكوته الأبدي بالموت. والإمام يسوق هذا المعنى بضمير الغائب، وبطريقة العرض التربوي الذي يختلف عن الدعاء الطلبي، فيقول (... ابتدع بقدرته الخلق ابتداعا، واخترعهم بمشيئته اختراعا، ثم سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في سبيل محبّته، لا يملكون تأخيرا عمّا

قدّمهم إليه، ولا يستطيعون تقدماً إلى ما أخرهم عنه. وجعل لكل روح منهم قوتاً معلوماً مقسوماً من رزقه...)[٦٣].

ومما يُحمد الله عليه، كذلك، في احساس الإمام أنه كرّم بني آدم بأقوم الخلق وأعدله، وجعل لهم فضيلة على جميع خلقه، وهذا غير قليل من لدن رب الرحمة. ومهما حمد العبد هذا الفضل فلن يستطيع أن يؤتي حق الحمد.. يقول الإمام: (والحمدُ لله الذي اختار لنا محاسن الخلق، وأجرى علينا طيبات الرزق، وجعل لنا الفضيلة بالملكة على جميع الخلق، فكل خليقته منقادة لنا بقدرته، وصائرة إلى طاعتنا بعزته)[٦٤] فمن نكون نحن حتى تطوّع كل الخلائق لخدمتنا وطاعتنا وتيسير سبل حياتنا، لولا الكرامة من الله علينا؟

فهل نحن ـ مع هذا الفضل كله ـ قادرون على أداء الحمد كما ينبغي لجلال وجه المانح الأعظم (فكيف نطيق حمده؟ أم متى نؤدي شكره؟ لا، متى...؟)[٦٥].

ولو أن العبد تأمل ذاته وحدها لرآها عجباً من عجائب خلق ربّه، ولحمده حق حمده (والحمدُ لله الذي ركّب فينا آلات البسط، وجعل لنا أدوات القبض، ومتّعنا أرواح الحياة، وأثبت فينا جوارح الأعمال...)[٦٦]. ولكنه جهول ظلوم لنفسه حين يجهل حمد ربّه، وظلوم لنفسه أيضاً حين يطغى على أخيه ويسلبه حقه.

والحق أن أفضال الله على بني البشر لا تعد ولا تُحصى، وهم غير قادرين على حصرها، والإمام يكرر هذا المعنى، ويبسط القول ما استطاع إلى الحديث عن مواضع هذه النعم، من يحمدُ الله على ان أعانه على التوبة، وستر عليه ما لا ينبغي أن يعلمه العباد من سيرته الخاصة، ويحمده على إعلاء مكانته بين الناس، وردّ كيد الأعداء، كما يحمده على أن كفاه الحاجة إلى لئام الخلق وجعل حاجته عنده وحده. وإذا قرأت دعاء

(الصباح والمساء) وحده رأيت العديد من هذه المحامد التي تليق بالعبد أن يستحضرها بين يدي ربّه قبل أن يدعوه، ورأيت فوقها ما يذكره الإمام في هذا الدعاء من تهيئة الكون من ليله ونهاره في خدمة الإنسان.

وهناك خُصوصية في حمد الإمام لربّه تشبه خصوصية سيدنا أيوب عليه السلام في حمده الله على ما فيه من بلاء المرض انظر إلى الإمام حيث يقول: (ولك الحمدُ على ما أحدثت فيّ من علة في جسدي، فما أدري، يا إلهي أيُّ الحالين أحق بالشكر لك، وأيُّ الوقتين أولى بالحمد لك، أوقت الصحة التي هنأتني فيها طيبات رزقك ونشطتني بها لابتغاء مرضاتك وفضلك، وقوّيتني معها على ما وفقتني له من طاعتك؟ أم وقت العلة التي محّصتني بها، والنعم التي أتحفتني بها تخفيفا لما ثقل به على ظهري من الخطيئات، وتطهيرا لما انغمستُ فيه من السيئات...؟)[٦٧].

فهذه شفافية خاصة من التعلق بالله أثناء المرض لا يُرزَقُها إلاّ الذين وجدوا حلاوة العشق لله، وأنِسُوا عبق الخلوة إليه تحميداً وشكراً وتضرعاً.

ولا غرابة في هذا من الإمام فهو سليل التوجيه القرآني الذي سنّ منهج الحمد للعباد، حيث قال تعالى في سورة الأنعام (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور...)[٦٨] وسليل الأدب النبوي مع الله (لك العُتبى حتى ترضى...)[٦٩] بل إن أول خطبة من خطب جدّه علي بن أبي طالب في نهج البلاغة هي (الحمدُ لله...).

ولأن دواعي الحمد كثيرة، ودوافعه واسعة، كان ينبغي لهذا الحمد أن يكون عميقاً وواعياً، وليس حمداً لسانياً لا يتعدى الآذان ولا يتسلل إلى أعماق الجنان. فالحمد عمل والشكر عمل بكل ما للعمل من مفردات وجزئيات في الحياة تؤول بالعبد إلي أن يقدمها بين يدي ربّه لحظة لقائه.

انظر إلى قوله تعالى مخاطبا آل داود عليه السلام: (اعملوا آل داود شكرا)[٧٠]، ولم يقل اشكروا باللسان فقط، بل اعملوا.. وفي هذا ما فيه من

توجيه إلى العمل البشري الذي يستعين بالتمجيد والحمد والشكر ويتخذ من هذه الوسائل مادة للاعانة على العمل نفسه.

وبسبب من هذا نود أن نختم هذا الفصل بفقرة نراها هامة وهي ثمار التمجيد والتحميد والشكر، وآثارها على القلب الإنساني، والعمل الإنساني معاً.

ثمار المعرفة الإلهية:

تعرفنا في الصفحات السابقة على جانب من ثمار المعرفة الإلهية، وهو جانب التمجيد والحمد والشكر، وبدا لنا أنّ هناك جوانب أخرى هامة يتجسّد بها تحقيق معنىالعبودية، وحب المعبود وعبادته والخوف منه.

معنى العبودية هذا يُعدّ من أعلى الأوسمة التي يقلدها الله للإنسان، لأنّ فيها عتقاً من كل تبعية وعبودية لغير من يستحق العبادة والولاء. ولهذا تجد الباري جل وعلا يذكر محمداً صلّى الله عليه وآله وسلم بـ(عبده) في أسعد لحظة من لحظات التكريم الإلهي والحب الإلهي، وذلك حين أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقال: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...)[٧١].

وعن هذا الفهم يصدر الدعاء في الصحيفة السجادية فيقول الإمام (... وعبّدني لك)[٧٢]. وهو مطلب عظيم لأن معناه الخلاص من ربقة الشيطان الرجيم الذي لا يُرى، ومن ربقة شياطين الإنس من الطواغيت الذين يريدون تعبيد الناس لأنفسهم، واستخلاصهم لطاعتهم وإبعادهم عن مسار عبوديتهم لله معتقدين، أو ظانين أن طريقهم هو طريق الرشاد من دون الله، وهكذا قال فرعون من قبل، وهكذا يقول الطواغيت في كل عصر حتى يوم الناس هذا، وهم يملكون ما يملكون من الأموال والوسائل الإعلامية، ويملكون ما يملكون من وسائل الترغيب والترهيب مما لا حصر له. ولكن

الذين امتلأت قلوبهم بالعبودية العليا يجدون أحوالهم أشدّ حبّاً لله من كل حب، وجوارحهم أشد انقيادا لله وطاعة من كل طاعة، مهما كان حجم المخلوق، ومهما طغا هذا المخلوق، ومهما هدّد، وأرعد، وأزبد...

(وعبّدني لك..) تعني هذا، وتعني الاعانة على العبادة الواجبة والمندوبة. وهكذا كان الإمام..

يروي أبو نعيم وابن الجوزي، (أن علي بن الحسين كان إذا فرغ من وضوئه للصلاة، وصار بين وضوئه وصلاته أخذته رعدة ونفضة. فقيل له في ذلك، فقال: ويحكم أتدرون إلى من أقوم، ومن أريد أناجي؟)[٧٣].

وجاء في أصول الكافي عن محمد بن أبي حمزة عن أبيه قال: رأيت علي بن الحسين عليه السلام في فناء الكعبة في الليل وهو يصلي، فأطال القيام حتى جعل مرة يتوكأ على رجله اليمنى ومرة على رجله اليسرى، ثم سمعته يقول بصوت كأنه باك: يا سيدي تعذبني وحبُّك في قلبي! أما وعزّتك لئن فعلت لتجمعنّ بيني وبين قوم طال ما عاديتهم فيك!!)[٧٤].

ما هكذا الظن بك، ولا المعهود من عدلك. وحاشاك أن تجمع بين هذا القلب الذي أحبك، والقلب الذي أبغضك بل بين القلبين اللذين تخاصما في شأنك، أحدهما يدعو لتعبيد الناس لك، والآخر يدعو لتعبيد الناس للدنيا وشهواتها أو قل يدعو لتعبيد الناس للقلب الذي أغفلته عن ذكرك، وكان أمرُهُ فرُطا!!

ولا نريد الاطالة في الوقوف عند عبادة الإمام، وهو المعروف بـ(ذي الثّفنات)[٧٥]، وهي الآثار التي في ركبتيه من كثرة السجود، وهو الذي سُمي بـ(السجاد) لكثرة سجوده وطول سجوده (اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم)[٧٦].

هذه هي الثمرة العليا من ثمار المعرفة الربانية بعد تمجيد الله وحمده وشكره، فقد أشرنا إلى ما في سورة الفاتحة أم الكتاب من توجيه إلى

التمجيد والحمد ثم العبادة والدعاء.

الوجود إلاّ ورأى الله فيه وفوقه وتحته وعن يمينه وعن شماله. أما المقياس الذي يَعرف فيه العبد درجة حب الله له، فهو في داخله، في قلبه.. فكم يحب الله هو، يحببه الله، وكم هو موجود حيث أمره، وكم هو غائب حيث نهاه!!

روي عن بعض السلف أنّه قال: (إذا أحبَّ أحدُكم أن يعلم كيف منزلتُهُ عند الله، فلينظر كيف منزلة الله من قلبه. فإنّ الله يُنزّل العبد من نفسه حيث أنزله العبدُ من قلبه)[٧٧].

إنه مقياسٌ حق، لا يخيب من جرّبه ومن استنطقه حقاً. وإذا كان الشرك ـ والعياذ بالله ـ سبباً لخراب العالم، فإنّ المعرفة الإلهية ـ دونما شك ـ ستكون سبباً لعمارة القلب، وامتلاء القلب بالاحساس بالعبودية والاحساس بالجد الغامر للمحبوب، والخوف من المعبود مهما بلغت درجة الجهد في العبادة والطاعة..

(سبحانك عجباً، من عرفك كيف لا يخافُك...)[٧٨]، هذا هو نداء الإمام ودعاؤه. مقياس آخر في أثر المعرفة الإلهية (المعرفة تساوي الخوف) فمن لم يخف الله في السر والعلن، ومن لم يخف الله في القلب واللسان، وفي المعاملة، وحين يُؤتمن، وحين يعمل، وحين يحكم الناس ويرعى شؤون الناس، فما عرف الله حقاً. وإذا كان يصلي ويصوم، فلن تزيده صلاته وصيامه من الله إلاّ بُعداً!!

وكلما كانت الثمار حلوة ومفيدة، كانت دليلاً على المعرفة الصحيحة، فالشجر الطيب يُعرف من ثماره، والشجر الخبيث يعرف من ثماره، والبرق المطر يعرفه المتوسم الحصيف من بعد، والبرق الخلب يعرفه أهل الخبرة

والتجربة أيضاً.

هذه هي المعرفة القلبية العاشقة الخاشعة، وليست معرفة علم الكلام والمنطق اللذين لم يُخرّجا لنا إلاّ أناساً أهل جدل وليسوا أهل عبادة. فمنذ اليوم الذي توجه فيه المسلمون إلى علم الكلام كان المسار مغايراً لمسار الروح القرآني في معرفة الله.

وبسبب من هذا نقول إن أدعية الصحيفة السجادية تؤسس لمنهج في علم الإلهيات، وتستوحي الطريقة القرآنية في هذا العلم. وهي طريقة استجاشة الكيان الإنساني كله بما له من قلب وعقل وشعور، ولا شعور، بينما لا يحرك علم الكلام إلا القدرات العقلية في هذا الكيان، ومن ثم فهو غير قادر على أحداث الفاعلية في بناء الحضارات. والله - سبحانه - يريد من هذا الكائن أن يتحرك، وأن يكدح إلى لقائه، ولن يكون بوسع العقل وحده أن يحرّك هذا الكيان ذا التركيب العجيب. فلابدّ - والحال هذه - من تحريك الكيان الإنساني كله، بطاقاته وأجهزته كلها، وتلك هي الطريقة القرآنية، وذلك هو منهج الصحيفة السجادية وأسلوب الإمام زين العابدين عليه السلام.

الهوامش

[1]- نهج البلاغة، تحقيق، د. صبحي الصالح، ص٣٩.

[2]- الصحيفة الدعاء ٥٢، ص٢٠٤. ولن أكرر ذكر كلمة الصحيفة، بل أشير إلى رقم الدعاء، ورقم الصفحة.

[3]- ١ / ٣.

[4]- الفلسفة الصوفية في الإسلام، د. عبد القادر محمود، ص١٥٦.

[5]- من حديث الحارث بن مالك الأنصاري، رواه الطبراني. وتجده بصياغة مختلفة قليلاً في: العقائد الإسلامية، سيد سابق، ص١٣.

[6]- سورة القصص، ٧٧.

[7]- دراسات في التصوف الإسلامي، د. محمد جلال شرف، ص ٦٩.

[8]- الفلسفة الصوفية في الإسلام، ص (ح) من المقدمة، وص١٥٦.

[9]- مقدمة ابن خلدون، ص٣٩٠.

[10]- الفلسفة الصوفية في الإسلام، ص٤.

[11]- ينظر، الغزو الفكري، وهم أم حقيقة، د. محمد عمارة، ص٢٢٠.

[12]- الله ذاتاً وموضوعاً، عبد الكريم الخطيب ص٣٦٨.

[13]- تجد إيضاحاً لهذه الفكرة أكثر في كتاب المرحوم مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص٥٥.

[14]- الأعراف، ٥٩. وهو د، ٥٠. والنحل، ٣٦.

[15]- الذاريات ، ٢١.

[16]- يس، ٧٨ ـ ٧٩.

[17]- يس، ٨١.

[18]- آيات ٦٠ ـ ٦٥ (سورة النمل).

[19]- الزخرف، ٩. وينظر لتفصيل في هذا المقام، إحياء علوم الدين للغزالي، ج١ ، ص١٠٥.

[20]- ٦ / ٣٢.

[21]- يراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مادة عمل، وعلم. وينظر أيضاً، الله ذاتاً وموضوعاً،

عبد الكريم الخطيب، ص٤١٠.

[٢٢]- شرح أسماء الله الحسنى، فخر الدين الرازي، ص٥٣.

[٢٣]- ينظر معالم التوحيد في القرآن الكريم، الشيخ جعفر السبحاني، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط١، ١٤٠٠هـ ، ص٢٧٩، كما ينظر لمزيد من الايضاح، رسالة التوحيد لمحمد عبده، ص٤٠. والعقائد الإسلامية، للسيد سابق، ص٧١ كذلك.

[٢٤]- نهج البلاغة، تحقيق د. صبحي الصالح، ص٣٩، وفي ظلال نهج البلاغة لمحمد جواد مغنية شرح لهذه المعاني، ص٢١.

[٢٥]- ٣١ / ١٠٤.

[٢٦]- ٤٧ / ١٦٦.

[٢٧]- الشورى، ١١.

[٢٨]- النحل، ٦٠.

[٢٩]- الأعراف، ١٨٠، والإسراء، ١١٠، وطه، ٨، والحشر، ٢٤٠.

[٣٠]- الكشاف، ج٢ ص٢٩٦.

[٣١]- شرح أسماء الله الحسنى، ص٥٣.

[٣٢]- الإسراء، ١١٠، وفي اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، ينظر، العقائد الإسلامية، سيد سابق، ص٢٤ .

[٣٣]- ٤٧ / ١٨٤.

[٣٤]- ٤٨ / ١٨٩.

[٣٥]- ١٦.

[٣٦]- ص ٤٦.

[٣٧]- دعاء يوم الأحد، ص٢٢١.

[٣٨]- ٣٧ / ١٢٤.

[٣٩]- الصفحة نفسها.

[٤٠]- أصول الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، دار الكتب، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ، ج٢، ص٥١٦، باب الدعاء.

[٤١]- المصدر نفسه، ج٢، ص٥١٦.

[٤٢]- ج١، ص٣١٧.

[٤٣]- الحج، ٢٤.

[٤٤]- التوبة، ٢٨.

[٤٥]- شرح أسماء الله الحسنى، ص١٤٦.

[٤٦]- ٤٧ / ١٦٥.

[٤٧]- الفرقان، ٧٧.

[٤٨]- الفرقان، ٧٧.

[٤٩]- أصول الكافي، ج٢، ٣٦٧.

[٥٠]- المصدر السابق، ج٢، ص٤٦٦.

[٥١]- ٤٦ / ١٦٠، ١٦١.

[٥٢]- ٥٠ / ٢٠٥.

[٥٣]- ص٢١١.

[٥٤]- عن هامش الصحيفة، ص٢١٢.

[٥٥]- الإسراء، ٤٤.

[٥٦]- ٤٤ / ١٤٦.

[٥٧]- إحياء علوم الدين، ج١، ص٢٩٨، رواه مسلم.

[٥٨]- أصول الكافي للكلينى، ج٢، ص٥٠٦.

[٥٩]- المصدر السابق، ج٢، ص٥٠٣.

[٦٠]- خالي.

[٦١]- ١ / ١٦.

[٦٢]- الفرقان، ٤٤.

[٦٣]- ١ / ١٥.

[٦٤]- ١ / ١٨.

[٦٥]- الصفحة نفسها.

[٦٦]- الصفحة نفسها.

[٦٧]- ١٥ / ٥٤.

[٦٨]- الأنعام، ١.

[٦٩]- تهذيب سيرة ابن هشام، تحقيق عبدالسلام هارون، ص١١٠.

[٧٠]- سبأ، ١٣.

[٧١]- الإسراء، ١.

[٧٢]- ٢٠ / ٦٧.

[٧٣]- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣،١٤٠٠هـ،١٩٨٠م،ج٣، ص ١٣٣.

[٧٤]- أصول الكافي، ج٢، ص٥٨٠.

[٧٥]- مثير الأحزان، الشيخ جعفر شريف الجواهري، منشورات الرضي، قم، إيران، ط٢، ١٣٦٩هـ، ص٢٣٦.

[٧٦]- رواه مسلم، وينظر إحياء علوم الدين، ج١، ص٣٠٥.

[٧٧]- الله ذاتاً وموضوعاً، عبد الكريم الخطيب، ص٢٣٢.

[٧٨]- ص ٢١٢.

الفصل الرابع

منهج يومي للسلوك

هـذا المنهج لـن يكـون سـوى تـرجمة لفلسـفة أو فهـم معـين للحيـاة، لأنـه منهجٍ والمنهج ثمرة تفكير إرادي منظم. ولا تكمن هذه الفلسفة وهذا الفهم بعيدا عـن فكـرة وظيفة الإنسـان في الحيـاة عـلى ضـوء التوجيـه الإلهـي في استخلاف الإنسـان في الأرض للقيام بأعباء «العبودية» لله وإعمـار الأرض وفق مفاهيم العبودية وفلسفتها.

إن أسئلة قديمـة، جديـدة مـن مثل: مـن أنـا؟ مـن أيـن؟ وإلى أيـن؟ يمكن فهمها من خلال نظرية الاستخلاف الإلهي التي تحمل الإنسان فيها الأمانة في حين أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، وهي الكائنات المنقادة لله طوعاً وكرهاً دون أن يكون لديها استعداد لعدم الانقياد، بينما الإنسان كـائن لديـه استعداد لهـذا الانقـياد وعدمـه في آن واحـد، ومـع ذلـك أبـدى استعداده لحمل هذه الأمانة العظيمة.

ومـا هـذه الأمانـة إلاّ الطاعـة لأوامر الله ونواهيهِ وحمـل رسالته إلى بني البشر كافـة[1]. ولا يمكن للخليفة إلا أن يكون سـائرا عـلى ضـوء المنهج الذي يـرسمه المستخلِف، ولكن الإنسان لجهل منه وظلم، حمل هذه الأمانة، ولم يفِ بحقهـا مـن الالـتزامات، إلاّ مـن رحـم الله، وهـذا الاسـتثناء يجعلنـا غير مترددين مـن أن نقـول إن نظـرية العـبودية ونظـرية الاسـتخلافِ تجـد مصـاديقها في أجيال البشـر سـواء كـانوا انبيـاء أو ورثـة أنبيـاء أو أناسـاً ممن هدى الله واجتبى.

هـذه الأسئلة المتعلقة بالكيان الإنسـاني المخلـوق ووظيفـته بالحيـاة ومآلـه فيما بعد الحياة واضحة المعالم في الفكر الإسلامي والتربية الإسلامية. فلن يقـول المسلم: لا أدري!! بـل أدري أنـي مخلـوق لله، وعـبد لله، مسـتخلف لـه وحامل أمانته وشرعه، ثم صائر إليه للثواب والحساب.

إنٍ قصة هـبوط سيدنا آدم إلى الأرض بعد الخلق وبعد الابتلاء تجعلنا وجهـا لوجـه أمـام قضـية (الـزمن)، وقضـية العمـر البشـري الـذي لـه أمـد

محدود ليس على مستوى الفرد بل على مستوى الوجود الإنساني على الأرض..

فقد قال الله تعالى بعد حواره مع الملائكة حول خلق آدم وبعد تجربة آدم مع الشيطان وإغوائه، قال تعالى لآدم وزوجه: (اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)[2].

(إلى حين)، إلى وقت محدود، لا ندري مدى محدوديّته، الله يعلمه، ولكننا نعلم أنه (حين) ينتهي إلى لقاء الله بعد تجربة يخوضها بنو البشر على ظهر هذه الأرض، هذه التجربة التي يجب أن يُحسن البشر خوضها ويفيدوا من تجربة أبيهم مع الشيطان، ويفيدوا من التوجيهات الإلهية عبر أجيالهم المتعاقبة، وعبر رسالات الأنبياء المتعاقبة.

وبما أن الوجود (حين) محدود، وزمن محدود تمثلهُ الصورة القرآنية في لفتتها لقصر هذه الحياة: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا، كماءٍ أنزلناهُ من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح!!)[3].

هكذا، فجأةً، أصبح هشيماً، مختصرا لفترات الحياة وتعاقبها من بذرة صغيرة تحت الأرض، إلى نتوء لدن يتحسس قشرة الأرض، إلى خلق أخضر على الأرض، إلى نبات يستوي على سوقه ويستغلظ ويشتد إلى دبيب الاصفرار فيه ونضوجه.. كل هذه المراحل تختصرها الصورة القرآنية لتوحي بقصر الحياة، فتلقي الضوء على الزاوية التي تريدها من المسرح.. زاوية «الهشيم» والنهاية..

فما دام هذا (الحين) محدوداً، فلابدّ من تقديره وفهمه، أي فهم عُنصر الزمن الذي تمثله مفردة (إلى حين)!!

وما من شك في أن فهم العنصر الزمني فهماً صحيحاً يؤدي إلى رسم المسار العملي في حياة الإنسان، ومن المعلوم أن تاريخ الحضارات البشرية تاريخ أفكار وقيم، وان دخول الفكرة الإيجابية العملية في التاريخ البشري

تؤدي إلى احداث التغيير في سلوكه ونظرته إلى الحياة[٤].

إن مبحثا مستقلا عن عنصر الزمن في القرآن يساعدنا على الفهم القرآني لهذا العنصر، ويُساعدنا على الإفادة منه في تطوير حياتنا واستثمار وجودنا، ويهمنا أن نفيد الآن من استثمار الإمام زين العابدين لهذا العنصر وتوجيه الامة إلى خطورته.

وقبل هذا لا بد من الوقوف عند الإنسان الهادف الذي يقوم بهذا الاستثمار، إذ بدون هذا الإنسان لا يمكن أن تكون لعنصر الزمن قيمة.

فالإنسان الهادف هو الذي يعرف الإجابة على الأسئلة الثلاثة التي مرّت علينا آنفاً، إجابة شافية لا غموض فيها، عندها تتحقق قيمته الإنسانية، ويفيد مما حوله، ومن الوعاء الزمني الذي يتحرك فيه، ويصبح له عطاء متميز على مستوى حياته الخاصة، وعلى مستوى الحياة الإنسانية عامة.

يتحدث الإمام في الدعاء الأول من الصحيفة عن فضل الله على البشر إذ ابتدعهم بمشيئته، ثم حدّد لهم مسار حياتهم ومآلها، وهدفيتها ما بين هذا وذاك، حيث يقول: (... ثم سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في سبيل محبته، لا يملكون تأخيرا عمّا قدمهم إليه، ولا يستطيعون تقدما إلى ما أخرهم عنه. وجعل لكل روحٍ منهم قوتا معلوما مقسوما من رزقه، لا ينقص مَنْ زادَهُ ناقص، ولا يزيد مَن نقص منهم زائد. ثم ضرب له في الحياة أجلا موقوتا، ونصب له أمدا محدودا، يتخطأ إليه بأيام عمره، ويرهَقُهُ بأعوام دهره، حتى إذا بلغ أقصى أثره، واستوعب حساب عمُرِهِ، قبضهُ إلى ما ندبه إليه من موفور ثوابه أو محذور عقابه، ليجزي الذين أساؤا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا الحسنى...)[٥].

فمن هذا النص السجّادي نستنتج الهدفية الربانية من خلق هذا الإنسان، ومراحل الحياة التي يعيشها في التجربة التي منحت له، كما نستنتج ملامح الهدفية الإنسانية حين تحدد وظيفتها على ضوء ما ندبت

إليه من عمل وسلوك، ذلك من خلال الإشارات التالية:

١ـ سلك الله بالعباد طريق إرادته وهو طريق العبودية له.

٢ـ وهذه العبودية عبودية تشريف وتكريم لهذا المخلوق الجميل الذي اسمه الإنسان، ثم هي عبودية مرتبطة بحب الله للإنسان، وحب الإنسان لله خالقه وبارئه.

٣ـ ليس للإنسان خيار في هذا الخلق، ولا خيار في الموت!

٤ـ على الإنسان ألا يخاف الفقر، فرزقه مقسوم شريطة العمل.

٥ـ نهاية التجربة الحياتية، بالمحاسبة (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى).

والإنسان حين يعي هذه الحقائق، يسعى ويدأب ويسير في الخطوط المرسومة له، إذا أراد النجاح في التجربة، وإذا أراد الرضا الإلهي (رضي الله عنهم، ورضوا عنه)[٦].

والإنسان الهادف لا يكدح كدحاً إلاّ في إطار هدف المرضاة الإلهية، وفي إطار الادخار ليوم اللقاء العظيم، فلا يتحدث ولا يجاهد ولا يدعو، ولا ينفق، ولا يصلي ولا يصوم إلاّ في إطار هذا الهدف (قل إن صلاتي، ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين)[٧].

فقبل الحديث عن استثمار عنصر الزمن، لابدّ من الحديث عن الإنسان الهادف الذي يقوم بعمليةٍ الاستثمار، فبدون الإنسان الهادف يبقى عنصر الزمن عنصرا، محايداً في المعادلة التي تبنى من خلالها الحضارة وهي:

الإنسان + وقت + تراب.[٨]

الإنسان الذي تحركه فكرة وعقيدة ومبدأ وهدف ونظرة متميزة للكون والإنسان والحياة، هذا الإنسان هو الذي يستثمر الوقت، وهو الذي يستثمر التراب عن طريق العمل وتحويل المواد الأولية إلى صناعات مختلفة يعالج فيها شؤون حياته.

وبعد هذا الحديث عن الإنسان، العنصر الذي انطوى فيه العالم الأكبر نأتي إلى الحديث عن العنصرين الآخرين مستهدين باشارات الإمام السجّاد عليه السلام وإيجاءات أدعيته الملهمة.

تجسيد الزمن:

أول ما يواجهنا، ونحن ننظر إلى مفردات الحديث عن الزمن في الصحيفة السجادية تجسيد الزمن والنظر إليه وكأنه كائن حي عضوي، وهذا قد يكون مسغربا لدى العقل العلمي العام، ولكنه غير مستغرب في النظر العرفاني الذي ينظر نظرة كلية للوجود فيرى كل ما في هذا الوجود ناطقاً مسبحاً بحمد الله معلناً أنه مخلوق لله.

انظر هذه المخاطبة الحانية والروح النديّة: (... وهذا يوم حادث جديد، وهو علينا شاهد عتيد، إن أحسنّا ودّعنا بحمد، وإن أسأنا فارقنا بذمّ، اللهمّ صل على محمد وآله، وارزقنا حسن مصاحبته واعصمنا من سوء مفارقته...)[9].

فاليوم ـ الزمن، يتولد من كل دورة للأرض حول نفسها، وهو شاهد على اعمال الخلق، وهو يتجدد بحيث يظهر في كل (٢٤) ساعة بوجه جديد، كما جاء في الأثر: (ياابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فاعمل بي، فإني لا أعود إلى يوم القيامة)[10]، فليس اليوم الذي يمرّ بك الآن هو الذي يأتي غداً، ولا يوم الجمعة الذي ستشهده غدا هو يوم الجمعة في الأسبوع القادم، ولا عامك هذا هو العام الذي يأتي بعده.. لحظات وأيام وشهور وسنون تمر دون أن تعود، فانظر ما أنت فاعل بها!!

وهذا التجسيد ليس غريباً على المنطق الإسلامي الذي يرى المخلوقات كلها تسبح بحمد الله، ولكن البشر لا يعلمون بتسبيحهم (وإنْ من شيء إلاّ يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[11]. وليس بعيدا عن حديث

الهدهـد مـع سليمان، وقصـة الـنمل معـه كذلـك، ومعلـوم أن الأرض تشـهد للمصلي، والجـذع قد حـنّ لرسـول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم [١٢] ، وقد مرّ بـنـا أن الشـجر والمـدر قـد سـبح مـع زيـن العـابدين في تسـبيحه الـذي رواه الزهري عن سعيد بن المسيب [١٣] .

والإمـام في الدعـاء نفسـه يُشـهد السـماء والأرض على شـهادة ألا إلـه إلاّ الله، وعدل اللهٍ ورحمته بالعباد [١٤] .

فليس غريبـا بعد هـذا أن ينظر الإمـام إلى عنصـر الـزمن هـذه الـنظرة التي فيها تشخيص وحياة.

ثـم إن الإمـام، بالإضـافة إلى هـذا التشـخيص، يتعاطف مع اليوم تعاطفاً حمـيما ويعتـبره صـديقا يـنـبغي أن يُحسـن مصـاحبته، فهـو رقيـب وشـاهد وصـاحب أمانـة يؤديهـا دونمـا تحيّز، فحذار من أن نُسـيء صحبته بـ(ارتكاب جريـرة، أو اقـتراف صـغيرة أو كبيرة)، كمـا جـاء في الدعـاء نفسـه. (واجعله أفضل صـاحب صـحبناه، وخير وقتٍ ظللنـا فيه)، لأنه سيكون شاهدا علينا وسيُفـاجئنا بأعمالنا، وكأنه الملكان العتيدان الرقيبان المصاحبان لنا واللذان لا يفارقاننا إلاّ في لحظات محدودة!!، لا يحسن وجود الملائكة فيها!!

فالـيوم، إذا، جـنـدي مـن جـنـود الله، مـثل الـريح والمطـر، والجـبال، والإنسـان، والحديد... و...، يعمل بأمر الله، ولا يعصي لله أمرا، فهو مجبول على الطاعة...

وسـوف يمـر عليـنـا خطـاب الإمـام لشـهر رمضـان، إذ سـيقول الإمـام: (اللهمّ اشحنه بعبادتنا إياك، وزيّن أوقاته بطاعتنا لك، وأعنا في نهاره على صيامه، وفي ليله على الصلاة والتضرع إليك والخشوع لك والذلة بين يديك حتى لا يشهد نهارُهُ علينا بغفلة، ولا ليلهُ بتفريط...) [١٥] .

إذا، هكذا سيشـهد شـهر رمضان علينا إن غفلنا عن الطاعات فيه، وعن الذكـر في أوقاته، بل إن الإمام يخاطب الشهر الكريم قائلا: (السلام عليك

ياأكرم مصحوب من الأوقات...) [16].

ومن المعلوم لدينا أن الأزمان والأوقات ليست كلها سواء في القيمة، وليست سواء في قبول الطاعات والعبادات فيها، فهناك شهر رمضان، وهناك يوم الجمعة، بل هناك ساعة مجهولة فيه تقبل فيها الدعوات، وهناك يوم عرفة، ولحظات الأذان وبعد الإقامة، وعند الصدقة ووقت الزحف. والرباني ناظر في هذه الأوقات مراقب لها، لأنه ذاكر غير غافل، فلا ينبغي أن تمر به هذه الأوقات دونما استثمار وهذا ما سوف نقف عنده في الحديث عن المناسبات.

ومما يكسب الزمن العام قدسية خاصة أن هناك حديثاً يروى بصورتين عن الدهر، ففي صحيح البخاري جاء في الحديث القدسي الشريف: (يؤذيني ابنُ آدم، يسبّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار) [17].

وجاء في الجامع الصغير للسيوطي (لا تسبُّوا الدهر، فانّ الله هو الدهر) [18] من حديث الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم.

قيمة الزمن:

لا نتحدث عن مقاييس الزمن خارج حدود الحركة التي تلفّنا والوعاء الوجودي الذي وضعنا فيه، فذلك له مقاييس أخرى فوق طاقة عقولنا، (وإن يوماً عند ربّ كألف سنة مما تعدّون) [19]، نتحدث فقط عن (الحين) الذي منح لنا كأفراد وأمم وجماعات، وهو (حين) كلفنا العمل به والحرص عليه. ومع التطور البشري قسّم الزمن إلى وحدات دقيقة تسهيلا لاستثماره وحساب أجزائه، وتحديد مواعيد العبادة فيه.

فتقسيم الزمن، واستثماره إلى أبعد حد مظهر حضاري لا ريب، ولعلّه المقياس الذي لا يناقش في مقدار تقدم الأمم، ومن المفترض أن يكون أهل

الإسلام من أكثر الأمم حرصاً على هذا التقسيم والاستثمار. ويهمنا الآن الحديث عن المسألة من الناحية النظرية، وكماجاءت في الأثر الديني الأدبي الذي ندرسه، أما من الناحية العملية التطبيقية لدى أمة الإسلام اليوم، فهذا حديث ذو شجون وأحزان!!

إن المسلم الرسالي يدرك خطورة العنصر الزمني، فيوزع أعماله على ضوء ما يتوفر لديه من الزمن، بل إن الأربع والعشرين ساعة موزعة لديه إلى أعمال وعبادات ونوم وراحة وترفيه، وكل وقته لربّه حتى الساعات التي يخلو بها إلى قلبه وراحته، وهي ساعات محسوبة ولها قيمتها من حيث ضرورة عدم اعتدائها على الساعات الأخرى، وقيمتها في الاستعداد إلى ما يليها من عمل.

أترى أننا غير مسؤولين عن عمرنا بما فيه من سنين وأشهر وأسابيع وأيام وساعات ودقائق؟! بل إن أول سؤال يوم الحشر سيكون عنّ هذا الزمن في اطارِ العمر الذي عشناه. وهذا مصداق لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: (لا تزلّ قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل (به)، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه)[20].

فنحن مسؤولون لا محالة، عن هذا وعن أشياء أخرٍ، (وقفوهم إنهم مسؤولون)[21]، وكلما كان إدراك معنى هذه الوقفة قويا وعميقا وحاضرا في الذهن حضورا أشبه بالحضور الحسي للأشياء، كان الاهتمام بالزمن بدقة، وكان الاهتمام بالعمل في اطارِ هذا الزمن.

وبسببٍ من هذا ترى الإمام عليا عليه السلام يقسم وقت المؤمن إلى ثلاث ساعات، فيقول: (للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يرمّ فيها معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمُلُ)[22].

وواضح أن هذه الساعات الثلاث تتجزأ وتقسم إلى أعمال صغيرة ودقيقة.

ويلتفت الإمام الصادق عليه السلام لفتةً توحي إيحاءً قوياً بالاهتمام باللحظة التي أنت فيها، فيقول: (الأيام ثلاثة، فيوم مضى لا يُدرك، ويوم الناسُ فيه، فينبغي أن يغتنموه، وغداً إنما في أيديهم أملُه)[٢٣].

يوم مضى لا تملك إلا الندم على التقصير فيه وعدمِ استثماره، ولو جمعت أحصنة الدنيا كلها لما استطعت أن ترجع واحداً من المليون من الثواني منه إلى الوراء!! فاليوم، والحين الذي أنت فيه فاغتنمه، وهو يوم وحين لا يعود إلى يوم القيامة، كما مرّ بنا في الأثر وفي تجسيد الزمن. أما اليوم الآتي فهو ليس في أيدينا، وإن كان يجمل بنا أن نتهيأ له، ونستعد لاستثماره ضمن خطة وبرنامج عمل واضح.

ونأتي إلى ما في الصحيفة السجادية من اهتمامٍ بعنصر الزمن وفهمهٍ فهماً يثمر العمل والبناء ويجعل الإنسان عبداً حقاً، وخليفة حقاً ومسؤولاً حقاً، لأن الاستخفاف بالزمن مخالف لهذه العبودية والخلافة والمسؤولية.

لهذا ترى الإمام عليه السلام يرقب هذا العنصر ويخشى التهاون في استغلاله أحسن استغلال، فيرجو الله خاشعاً بقوله: (اللهم صلّ على محمد وآله، واكفنا طول الأمل، وقصّره عنا بصدق العمل حتى لا نؤمّل استتمام ساعةٍ بعد ساعة، ولا استيفاء يومٍ بعد يوم، ولا اتصال نَفَسٍ بنَفَس، ولا لحوق قدم بقدم...)[٢٤].

(ولا استتمام نفس بنفس) وهي أقصر لحظة كان يمكن تصورها في عصر الإمام، وهي اللحظة التي يريد الإمام استثمارها ويسأل الله أن لا تضيع منه، بل إنه في موضع آخر من الصحيفة، ربما يشير إلى لحظات أقصر من هذا وهي همسات القلوب. وليست دقاتها، ولا ندري كم هي في عنصر توزيع الزمن، هذه الهمسات؟!! (اللهم صل على محمد وآله، واجعل

همسات قلوبنا، وحركات أعضائنا ولمحات أعيننا، ولهجات ألسننا في موجبات ثوابك)[25].

وكونها في (موجبات ثوابك) يعني أنها موجهة ومستثمرة إلى العمل الهادف، وموجبات الثواب الإلهي لا حصر لها، فقد تكون مالاً، أو جهداً عضلياً، أو كلمة، أو دعوة أو أي عمل كبر أو صغر وكانت نيته لله، وفي الله.

وحين تعيش في أجواء الصحيفة وتستظل بظلالها، وترافق روحها مرافقة حميمة تجد الإمام يكرر الحديث عن العمر كله، وعن أيامه وساعاته ويسأل الله أن يعينه على مراقبة نفسه فيها واستثمارها، فيقول: (... واستفرغ أيامي فيما خلقتني له)[26]، (واعمر ليلي بإيقاظي في عبادتك)[27]. وفي دلالة استفعل في اللغة ما فيها من بذل الجهد والاستقصاء، وهذا يعني أن الإمام يطلب أن يكون استثمر وقته في عمره أقصى استثمار، وبذل فيه من الجهد ما فيه الغاية والنهاية، بحيث لم يبقَ ما فيه غفلة أو نسيان، أو تقصير أو تهاون، وهذا لعمري غاية ما يرجوه الربّانيون الذين يخشون ساعة الحساب، ويخشون السؤال عن (عمره فيما أبلاه!!)، كما مر في الحديث النبوي الشريف.

ولا تحسب أن قول الإمام (... بإيقاظي في عبادتك) أن العبادة هنا، هي قيام الليل والتهجد والتأمل فقط، بل (عبادتك) تعني أعمالاً أخرى، كثيرا ما تغيب عن أذهان الناس (عبادتك) تعني طاعتك، وطاعتك قد تكون في العبادات وقد تكون في المعاملات، وليس للعبادات حدّ للكادح، كما ليس هناك حد للأعمال التعاملية للذين يريدون التنافس، والبيع والشراء، والتجارة الرابحة في ذات الله.

وهل دريتَ بأنّ الإمام لم يكن ليقضي ليله متعبداً بصلاة أو قراءة قرآن، بل كان يسعى في بعض ساعات ليله ويسير في الطرقات التي كانت مظلمة آنذاك، يترقب أحوال الفقراء والمساكين ويوزّع عليهم مؤنهم دون أن

يشعرهم بشخصه، وكان ذلك في عمره الطويل ـ سلام الله عليه ـ ولم يكن الناس يعلمون أنه الإمام الضعيف المريض، حتى مات (رضوان الله عليه). ففي لحظة فقده أدركوا من هي اليد التي كانت تمتد إليهم في جنح الظلام، ومنِ هو القلب الذي كان يتفقدهم، وقد عزَّ المتفقد من الحكام الذين نهبُوا فيْءَ الرعيّة وسلبوها حقها، وتركوها نهباً للجوع والحاجة.

يروي صاحب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) عن أبي حمزة الثمالي أن علي بن الحسين عليه السلام كان (يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به، ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الربّ عزّوجلّ)[٢٨].

وكثيراً ما كان يقول عليه السلام: (ولا تختم يومي بخيبتي!!)[٢٩]. وهذا يعني ـ ضمن ما يعني ـ أن تكون الساعات والدقائق واللحظات مستثمرة أقصى غايات الاستثمار بالطاعات والعمل والتأمل، ولو كان ثمة تقصير أو إهمال للوعاء الذي خلق الإنسان فيه، فمن المحتمل أن تكون الخاتمة خيبة والعياذ بالله، وهذا أقصى ما يخشاه الإمام لنفسه، ولأهل ملته في عصره وفي كل عصر إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

أوقات الفراغ:

قضية خطيرة طالما التفتت إليها الدول وراقبت فيها فراغ الشباب خاصة وبنت المؤسسات لاستثمار أوقات الفراغ لدى الناس عموما بالقراءة أو الرياضة أو الهوايات المثمرة الجادة.

وقد تحدث المفكرون وعلماءُ النفس عما يُسمّى بفكرة (التسامي) لدى الشباب أو لدى الناس عموماً، وهي الفكرة التي تجعله يتأملٍ في المثل العليا ويسير نحوها دون أن يشعر بثقل الزمن، أو أن ثمة فراغاً في يومه، بل إنّه ليشعر أن الوقت محدود، وربما تمنى أن يكون اليوم (٤٨) ساعة حتى

يسير صعداً نحو تحقيقٍ أهدافه.

وأشد ما يكون قاتلا لحياة الأنسان المتبطر، الفراغ. ولهذا ترى الإمام يخشى تبعة هذا الفراغ فيدعو الله بأن يجعله فراغا خاليا من التبعات، لا تسجل فيه الملائكة إلا الحسنات فيقول: (... فإن قدّرت لنا فراغاً من شُغلٍ فاجعله فراغ سلامة لا تدركنا فيه تبعة، ولا تلحقنا فيه ساعة، حتى ينصرف عنا كتاب السيئات بصحيفة خالية من ذكر سيئاتنا، ويتولى كتاب الحسنات عنا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا)[٣٠].

فراغ سلامة!!، لأنه غالباً ما يكون الفراغ دافعاً للقيام بأعمال ليس فيها سلامة على عقيدة المسلم وعلى صحته وعلى خلقه خاصة إذا كان ذا طاقة عنيفة من طاقات الشباب، أو إذا كان ذا مال ووفرة من رغد العيش. وصدق الشاعر القديم حين قال:

إن الشباب والفراغ والجدهْ   مفسدةٌ للمرء أيُّ مفسدة!![٣١]

الشباب والفراغ والمال، ثلاثة يُخشى على الإنسان منها، لأن الشيطان ينشط فيها، والإنسان غالباً ما يعجز عن مقاومة دوافعها إلاّ من رحم الله، ونال حسن التوفيق الإلهي بتوزيع الزمن واستثماره والبعد عن آفة الفراغ!!

ولهذا ترى الإمام يخشى هذا الفراغ ويسأل الله أن يكون فراغاً في طاعة وعملٍ وزهادة (اللهمٍ صل على محمد وآله، وارزقني صحة في عبادة، وفراغاً في زهادة، وعلماً في استعمال...)[٣٢].

أما إذا كان فراغاً لذات الفراغ، فلا يؤتمن فيه الهوى، ولا يضمن القلب أن ينسى ويغفل. ولهذا تجد الإمام يكرر كثيراً الاستعاذة من الغفلة ويسأل الله أن ينبهه إلى الذكر في أوقات الغفلة، وغالباً ما تكون الغفلة هذه في أوقات الفراغ، لأن العبادة والعمل والزهد حضور للقلب والعقل وانغماس في الحركة التي تبعد عن الغفلة. يقول الإمام: (اللهم صلّ على محمد وآله، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر وألسنتنا بشكرك عن كل شكر وجوارحنا

بطاعتك عن كل طاعة)[٣٣].

وهذا النص، وإن كان فيه دلالة على الاستعانة بالله، والتفرغ له وحده، ففيه دلالة على انشغال الجوارح، وعدم فراغها وغفلتها.

ولا أحسب أنه يغيب عن بالك الحديث النبوي الشريف الذي يشكل أساساً لتوجيهات الإمام، ذلك الحديث الذي ندعو الله به عقب كل صلاة، وهو: (اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[٣٤]، فالذكر وحسن العبادة علاجان وعدّتان لأوقات الفراغ، فلن يكون معهما غفلة ولن يكون معهما سطوة لشيطان.

وما من شك في أننا بحاجة اليوم أكثر من أي زمن إلى الإفادة من إشارات الإمام وتوجيهاته لاستثمار أوقات الفراغ خاصة وأن مداخل الشيطان في هذا العصر أصبحت كثيرة وخطيرة في آن واحد، فثمة السينما والتلفزيون والفيديو وثمة مسابح العري على الشواطئ وثم الغناء والورق... و... مما لا حصر له من وسائل اللهو واللعب التي يذر الشيطان فيها قرنه، ويكون فيها السيد على قلب الإنسان وأعضائه.

عناصر العمل في السلوك اليومي:

ما من شك في أن تنظيم الوقت، كما اشرنا من قبل، ثم تنظيم العمل وتوجيه العمل على ضوء الوقت، إنما هو سلوك حضاري متميّز، وهذا هو منطق الإسلام وتوجيهه للإنسان. فهو ينطلق للعمل والكسبٍ بكل ماٍ في العمل من تنوع يخص الفردٍ أو المجتمع أو يكون عبادة وتبتلا محضاً لله، ينطلق بروح المسؤولية بعيدا عن عقدة (الخطيئة) أو لعنتها، تلك اللعنة التي لاحقت بني البشر من أبيهم آدم، كما هو الحال في الفهم النصراني لأعمال الإنسان ومسؤوليته في الحياة.

كما أن الجهد البدني الذي يبذله الإنسان ليسَ مطلوباً لذات الجهد ولا

لتعذيب الجسد، بل هو جهد بحدود الطاقة الإنسانية ولراحة الجسد من خلال راحة النفس والضمير[٣٥].

لقدمرّ بنا في الحديث عن تجسيد الزمن والتعاطف معه، كيف خاطب الإمام اليوم واعتبره رقيباً وشاهداً عليه وعلى أعماله يوم القيامة، وفي هذا الدعاء نفسه يتحدث الإمام عن عناصر العمل اليومي، وهي مادة الدعاء والطلب الذي يتوجه به إلى الله لتوفيقه على القيام به، فيقول: (اللهم صلّ علىمحمد وآله، ووفقنا في يومنا هذا، وليلتنا هذه وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير، وهجران الشر. وشكر النعم، واتباع السنن، ومجانبة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحياطة الإسلام، وانتقاص الباطل وإذلاله، ونصرة الحق وإعزازه، وإرشاد الضالّ، ومعاونة الضعيف، وإدراك اللهيف...)[٣٦].

ألم يقل الإمام (وارزقنا حسن مصاحبته)؟ وحسن المصاحبة هذه تعني القيام بهذه الأعمال كلها وغيرها، وإلاّ فلن تكون مصاحبة، ولن يكون من شيم المصاحب إلا القيام بهذه الأعمال.

أولا: ووفقنا في يومنا هذا لاستعمال الخير وهجران الشر. وهذا عموم وشمول لكل عمل يؤديه الإنسان ويرضى به الله، وكل عمل يؤديه الإنسان وهو مرفوض منه، لأنه شر!!

ثانيا: وشكر النعم.

أترى أن نفساً إنسانية تشكر نعم الله حقاً، ثم تقوم على معاصيه، وتسير في غير طريق الهدى الذي سنّه الله، ودعا إليه؟! فشكر النعم يعني استثمار الأدوات والجوارح التي أعطيها الإنسان في الهدف الذي خلقت من أجله من قبيل العين واليد والقدم...[٣٧]

ثالثا: واتباع السنن.

سنن الأنبياء، والدعوة إليها وتجسيدها عملياً في السلوك اليومي.

فالمؤمنون ورثة الأنبياء والسائرون على خطاهم إلى يوم الدين. واتباع السنن يعني اتباع الخير كله والبعد عن الشر كله.

رابعا: والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اللذان بهما يستقيم السلوك، وتحسن الرفقة والمصاحبة. وهما رمز للعلاقة الحميمة بين العباد، إذ بدونهما يعم الخراب، وباقامتهما يقام الصلاح. وهذه هي الميزة التي مدح بها الله أمة الإسلام، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

خامسا: وحياطة الإسلام.

سمة العبودية الحقة في هذا السلوك اليومي. فكيف أكون عبداً وأنا لا أدفع العوادي عن مُلْك سيدي، وحمى سيدي. وحمى الله دينه وشرعه، وأنا أداة الله لحماية هذا الحمى، وحياطته والذبّ عنه.

سادسا: وانتقاص الباطل وإذلاله.

فأنا موكل بأن أكون مهيأ في يومي كله، يومي الشاهد عليّ، بأن أكون سيفاً للحق على الباطل، أدحضه وأحاربه، وإلا ما كنت خير رفيق لهذا اليوم الشاهد الرقيب. وحين انتقص الباطل وأذله، أكون نصرت الحق وأعززته. فمحو الظلام يعني مجيء الضوء والوضوح الهادي.

سابعا: وإرشاد الضال.

ألستُ السائر على خطى الأنبياء المقتدي بهم، وكانت أولى وظائفهم الإرشاد إلى الهدى الرباني؟ وما دمت كذلك، فلابدّ أن أكون كمن يمتطي صهوة حصانه كلما سمع هيعة طار إليها. فأبادر إلى نقطة الضعف في المسار الإنساني (الضلال) لأعالج الحالة بما آتاني الله من خير وحكمة (ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً).

ثامنا: ومعاونة الضعيف وإدراك اللهيف.

فالخلق عيال الله، وخيرنا خيرنا لعياله. وإذا لم أقم بهذا الواجب، ولم

تقم أنت به، فمن يقوم به إذن؟! ومن لأولئك المعذبين في الأرض الذين استقرت حقوقهم في جيبي وجيبك ووجودي ووجودك؟! هذه عناصر العمل اليومي التي يوجهنا الإمام إليها، وهي عناصر كثيرة ورمزية دالة على أعمال أخرى. ونظرا لصعوبة القيام بها كلها، فالإمام يتسلح بالدعاء وطلب العون الإلهي للتوفيق، فيقول: (واجعله أيمن يومٍ عهدناه، وأفضل صاحب صحبناه، وخير وقتٍ ظللنا فيه).

ومعنى هذا (الخير) أن نكون أدّينا الأعمال المشار إليها فيه.

وواضح لديك أن هذه الأعمال في السلوك اليومي الواحد موجهة إلى الخالق وأمر العبد نفسه، وإلى عقيدته وإلى أخوانه الذين يعيش معهم.

والإيحاء الذي يستنتجه المرء من هذه التوجيهات العملية في السلوك اليومي للإمام، هو أن الحياة ستكون سهلة لو أن المرء فكر بنفسه وعياله وشؤونه الخاصة فقط!! ولكن حمل هموم العقيدة، وحمل هموم الناس ومساعدة الناس والسهر على مصالح العباد مسألة ليست سهلة، ولن يقوم بأدائها إلاّ ذو حظٍ عظيم، وإلا رجل منحه الله توفيقه بعدما رأى منه نيّة صادقة وجهدا دائبا ورغبةٍ صلبة واعية.

فالإمام يضع مقياساً لقيمة الإنسان، وهو مقياس همّ الإنسان وانشغاله، فكلما كان همّه كبيرا كانت قيمته كبيرة والعكس صحيح. حجم المرء بحجم همه.

وحين يدعو الإمامٍ ويقول: (اللهم اجعل أول يومي هذا صلاحاً، وأوسطه فلاحا، وآخره نجاحا...) [٣٨].

إنما يُشير إلى هذا العمل اليومي المكثّف والمنظم والذي يستدعي المباركة الإلهية والتشديد الإلهي. وما الفلاح والصلاح والنجاح إلاّ صفات للأعمال التي ينتظر القبول الإلهي لها.

فأين نحن من هذه الخطة اليومية للعمل؟ وهل هناك شك في أن خيبتنا

وتخلّفنا وهواننا على الأمم إلاّ من بُعْدٍ عن هذا المنهج وهذه الخطة وهذه المراقبة الصارمة لأعمالنا التي تتعلق بواجباتنا نحو بارئنا وواجباتنا نحو أنفسنا وواجباتنا نحو الإنسانية؟!

التكاملية في الشخصية الإسلامية:

وهذه نتيجة من العمل المنظم في الوقت المنظم، كما مرّ بنا واصطلح على تسميتها التكاملية لأنه لا يوجد الإنسان الكامل، وإنما الكمال المطلق لله وحده، وإنما هو سعي ودأب وتنافس ومجاهدة للوصول إلى الحد الأعلى، وما كل الناس ببالغيه ولكنهم يغذّون السير بجدّ ورغبةمع تفاوت في درجات الوصول المقرون بالتوفيق الإلهي.

تكاملية.. وليست مثالية بعيدة المنال وفوق طاقات البشر. كما أنها ليست بالواقعية بالمفهوم المادي الذي يهوي بالإنسان إلى مستوى غرائزه الحيوانية، ولا براغماتية قصارى جهدها الهدف المنفعي المحض.

بل إنها تكاملية بين الواقعية المحدودة والمثالية العليا، يتكامل فيها السعي الإنساني حتى يصل الاستقامة بالمصطلح القرآني. (فاستقم كما أُمرت) [٣٩]، وهي التي قال عنها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: (شيّبتني هود وأخواتها)، وهذه هي آية من سورة هود.

فالتربية، كما قيل في تعريف من تعريفاتها: (عملية نمو واكتساب لخبرة، وتغيير مرغوب في سلوك الفرد والجماعة) [٤٠] وهذا التغيير المرغوب، التغيير الايجابي الهدف هو الذي يقود إلى التكامل والسمو الإنساني، وهو الذي قاد الأنبياء (سلام الله عليهم) حتى وصلوا درجة العصمة، وهو الذي يقود ورثتهم حتى يصلوا إلى درجاتٍ قريبةٍ منها أو يصلوها، وإن لم يكونوا أنبياء.

والذي يقف ملياً عند نصوص الصحيفة السجادية يجد مصداقية السعي

نحو هذا التكامل، فهناك المثال، وهناك السعي التكاملي نحوه. يقول الإمام: (اللهم لا تدع خصلة تعابُ مني إلاّ أصلحتها، ولا عائبة أؤنبُ بها إلا حسّنتها، ولا أكرومة فيَّ ناقصة إلا أتممتها)[٤١].

وهذا سعي نحو الشخصية الإبراهيمية الكاملة التي تجسّدت فيها صفات الأمة كاملة: (إن إبراهيم كان أمة)[٤٢] كما يفسر الزمخشري هذه الآية في أحد وجوه دلالاتها[٤٣].

وحين يقول الإمام: (وهب لي عصمة تدنيني من خشيتك، وتقطعني من ركوب محارمك)[٤٤]، إنماهو يطلب من الله العون في الوصول إلى هذه الدرجة، ويتأهب في الوقت نفسه للعمل ويباشره بأقصى درجات الجد والمثابرة. ومثله قوله: (اللهمّ صل على محمد وآله، وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين..)[٤٥]. أكمل الإيمان وما تلك بميسّرة إلا بالعمل والتوفيق الإلهي المبارك للعمل.

وتجد مظاهر الجد والمثابرة في السعي التكاملي لدى الإمام حين يقول: (اللهم إني أصبح وأمسي مستقلا لعملي...)[٤٦] فعند هذا الشعور بنقص العمل وحاجته إلى الاستمرار والتحسين يكون الاتجاه الصحيح نحو التكامل. ومن المعلوم أنه متى شعر الإنسان أنه اكتمل وبلغ الغاية القصوى من الكمال، فقد بدأ بالتدني والهبوط، لأنه سوف يتوقف عن العمل، وسوف يسبقه السائرون في الطريق، الجادون في الوصول إلى (ملك الجزيرة)، كما حدث للطيور وقائدها الهدهد في رائعة فريد الدين العطار (منطق الطير)، وهي القصة الشعرية المشهورة في الأدب الفارسي، والتي اقتفى فيها العطار أثر الغزالي في رسالته الموجزة (رسالة الطير)[٤٧]، وهما معاً أثر من آثار المعراج الشريف.

إذ لابدّ أن يكونٍ العمل متواصلاً حتى الموت، أي من كان عمله اليوم مِثل البارحة كان خاسرا، ومن كان عمله اليوم، مثل يوم الغد فهو خاسر أيضا.

ولهذا تجد الإمام السجّاد يدعو مخلصاً: (... واجعل غدي وما بعده أفضل من ساعتي ويومي) [٤٨].

وفي السياق العرفاني والعلاقة العرفانية بين العبد وربّه كما يفهمها الإمام زين العابدين، وكما ينبغي أن يفهمها كل مؤمنٍ ومؤمنة، أنّ العطاء الإلهي الدائم والتوفيق الإلهي الدائم يستدعي حبّاً مستمرا وطاعة مستمرة، وعملا محسّنا مُراقبا مستمرا، انظر إلى قول الإمام: (اللهم إنّ أحداً لا يبلغ من شكرك غاية إلاّ حصل عليه من احسانك ما يُلزمُهُ شكرا، ولا يبلغ من طاعتك، وإن اجتهد إلاّ كان مقصراً دون استحقاقك بفضلك...) [٤٩].

فحين تصل إلى درجة من الشكر عالية أعطاك الله درجة أعلى منها من الرضا، فاستدعاك هذا أن تشكره على التفضل الجديد، ثم إنك حين تفعل هذا يأتيك المدَدُ من الرضا والتوفيق ممّا يدعوك إلى بذل جهد جديد يتناسب والعطاء الجديد، وهكذا الأمر يستمر في معادلة طردية لا نهاية لها في هذه الدنيا... حتى ينتهي العمل في الجنان العلى ويبقى الشكر القولي والقلبي ويبقى الرضا الإلهي الدائم... وذلك هو مصداق قوله تعالى: (رضي الله عنهم ورضوا عنه) [٥٠] حيث يرضى أعمالهم الدائمة المتقنة ويرضون بما قسم لهم من التوفيق الذي أفضى بهم إلى رحمته وجنانه التي يخلدون فيها أبدا، كما جاء في السياق السابق للآية.

والحق أن درجات التكاملية ليست سهلة، وإن لم تكن مستحيلة أو مثالية. والمسألة ليس لها ميدان واحد حتى يمكنك أن توجه طاقتك إليه وتجيده، بل هي مجالات شتى من العمل والتعامل، وكلها لابدّ أن تحوز فيها قصب السبق وتنال القدح المعلّى، كما يقال. كلها لابدّ أن تكون فيها القدوة المتفوق على الأقران والحاصل على الأوسمة، حتى ليكون ترتيبك الأول أو الثاني في المسابقة..

ففي مجال العبادة الليلية أنت راهب ليل مثل الإمام السجاد عليه السلام. ذكر الذهبي أن مالك بن أنس كان يقول بلغني أن علي بن الحسين كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعةٍ إلى أن مات[٥١]. فإن كان في نفسك ريب من هذا العدد فلك أن تتخذه رمزاً لكثرة العبادة في النهار والقيام في الليل، دون أن يكون من الضروري تحديد رقم معين.

وإن كان في ميدان العطاء والصدقة وتزكية المال، كان عليك أن تكون ممن قال فيهم الله عزوجل: (ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة)[٥٢]، وإيثار الغير مع الحاجة إلى الشيء أمر عظيم حقاً، استدعى هذا الثناء الرباني الأعظم. وقد مرّ علينا من صفات الإمام كيف كان يحمل جراب الخبز على ظهره الضعيف ويجول الليل ليوصل الطعام إلى أبواب المساكين.

وإن كان ميدان قتال وجهاد للأعداء أو الناكثين عهد الله، المارقين عن الحق، الراغبين في حطام الدنيا وصدّ الناس عن طريق الهدى.. كنت كمحمد بن الحنفية الذي قال له أبوه عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام: أَعِرِ الله جُمجمتَك!![٥٣]

أَعِرْ كيانك كله لله، روحك التي وهبك الله إياها. والجود بالنفس أغلى غاية الجود. عندها تكون في طريق التكامل وقد تصل إلى أقصى الدرجات العالية فيه.

وليس هذا بالهيّن.. وليس بالهين الجزاء الأوفى عليه!! فالمرء الذي ينتهي من عمل ليتهيأ إلى عملٍ آخر ينتظره من الطاعات فلا يجد شيئا اسمه الفراغ في حياته أبداً، لهو المرء السائر في طريق التكامل في شخصيته. وهذا لا يعني اطلاقاً أنه ليس ثمةٍ ساعات للراحة، بل تستطيع أن تقول إن ساعات الراحة هي (عمل) أيضاً. لأنها هادفة إلى إشباع لذة ضمن خط الرضا الإلهي، وهذا الحديث يُسلمنا إلى مفهوم الآية الكريمة

(فإذا فرغتَ فانصبْ، وإلى ربّك فارغبْ) [٥٤].

إننا نؤمن بوجود الأشياء التي ندركها بالحواس إيماناً لا شك فيه البتة، ولكننا حين يبلغ بنا الإيمان بالخالق غير المحسوس، إيماناً يشبه درجة إيماننا بالأشياء المحسوسة أمامنا، نكون قد بلغنا درجة عُليا من الإحساس بالمطلق.. وسوف يترجم إيماننا إلى عمل يومي لا يتناقض مطلقاً مع توجهات الإيمان من الناحية النظرية.

وإن سعياً تكاملياً في الشخصية الإسلامية سوف يكون في إطار الواقعية، وسوف يمرّ بكثير من الاختبارات والمحن والابتلاءات، ليخرج وقد عركته التجارب وخبر السنن الإلهية في الابتلاء والتمحيص. وهذا ما يكثر الإمام من الدعاء فيه وهو يرسم لنا طريق التكامل الإنساني. إذ مع الدعاء الذي يرجو التوفيق الإلهي يكون النجاح في عبور البلاء ويكون النجاح في التمحيص الإلهي.

وأريد أن أنهي هذه الفقرة بإشارة أراها هامة في هذ المجال. وهي أن الطريق إلى التكامل الإنساني في الشخصية الإسلامية طريق واضح المعالم، وطريق يمكن الوصول إلى نهاياته مع الجد والسعي الحثيث. وهو لا يعني على الإطلاق الإنعزال عن الدنيا، وترك ما لله لله، وما لقيصر لقيصر. بل هو انغماس في أعباء الحياة والعيش مع الناس فيها، وعدم الانقطاع عنها بحجة الانقطاع للعبادة والتبتّل.

فهذا إمامُنا السجاد، القدوة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، هذا إمامنا كان يخضب ويلبس فاخر الثياب، ولم يكن صاحب مجاهدة انعزالية عن الحياة، بل إنه لم يكن يلبس الصوف، كما يعرف أو يقال عن أهل التصوّف فيما بعد، كما يروي عنه ابن سعد [٥٥].

إنه منهج من التوازن في بناء الشخصية، فلا هي ملك من ملائكة الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ولا هي حيوانية تخوض في الوحل الذي

تخوض فيه الحيوانات. لا هي سعي في (التكاثر) من الأموال والرياش وحب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ولا هي (تقشف) في المأكل والملبس حدّ التعذيب الجسدي الذي يرفض المتع التي لم يحرّمها الله على عباده، والزينة التي جعلها الله خالصة لعباده. وهذا التوازن والاعتدال والقصد هو الذي يترجمه الدعاء الثلاثون في الصحيفة، وهو الذي نريد أن نختم به هذه الفقرة من البحث.

(اللهم صلّ على محمد وآله، واحجُبني عن السَّرف والازدياد، وقوّمني بالبذل والاقتصاد، وعلّمني حُسْن التقدير، واقبضني بلطفك عن التبذير)[٥٦].

ولقد أشرنا من قبل الى نظرية مالك بن نبي (رحمه الله) في عناصر الحضارة وهي: الإنسان والوقت والتراب. وها نحن قد انتهينا من الوقوف عند الإنسان الهادف الذي تسير شخصيتُه في طريق التكامل والذي يستعين بالمركّب الذي يصهر العناصر الثلاثة وهذا المركب هو العقيدة الدينية الصحيحة.

كما انتهينا من الوقوف عند عنصر الوقت الذي يُستثمر غاية الاستثمار من لدن الإنسان (الإنسان!!).

أما التراب الذي هو رمز لكل المواد الأولية في الكون حتى الذرّة، فإنه يُستثمر أعظم استثمار وأكثره جدوى للإنسانية إذا توفرت الفكرة ـ العقيدة والإنسان الهادف السائر صعداً نحو المرضاة الإلهية.

وأظننا استغنّا بما فيه الكفاية بتوجيهات الصحيفة في هذا المجال.

الهوامش

[١]- تُنظر: آية ٧٢ من سورة الأحزاب، وتفسير الزمخشري، ج٢، ص٥٥١.

[٢]- البقرة، ٣٦.

[٣]- الكهف، ٤٥.

[٤]- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٦٩، ص١٥، وينظر: مقال للباحث بعنوان (أثر الفكرة في بناء الحضارة في رأي مالك بن نبي)، مجلة التوحيد، طهران، أيلول، ١٩٨٨.

[٥]- ص ١٦.

[٦]- سورة البينة، ٨.

[٧]- الأنعام، ١٦٢.

[٨]- شروط النهضة، ص ٦٦.

[٩]- الدعاء السادس، ص ٣٦.

[١٠]- ينظر: إلى مثل هذا في، أصول الكافي، للكليني، ج٢، ص٥٢٣.

[١١]- الإسراء، ٤٤.

[١٢]- رواه البخاري، مناقب (٢٥).

[١٣]- الصحيفة، ص٢١٢.

[١٤]- ص ٣٥.

[١٥]- ٤٤ / ١٤٧.

[١٦]- ٤٥ / ١٥٣.

[١٧]- باب لا تسبُّوا الدهر، مج٤، ج٧، ص ١١٥.

[١٨]- ج٢، ص ٣٥٧.

[١٩]- الحج ، ٤٧.

[٢٠]- رواه الترمذي، وقال هذا حديث حسن صحيح، ج٤، ص ٣٦.

[٢١]- الصافات، ٢٤.

[٢٢]- نهج البلاغة، تحقيق د. صبحي الصالح، ص ٥٤٥. وقد ورد هذا الكلام على أنه حديث رواه أبو ذر عن رسول الله، وهو من صحف إبراهيم. رواه ابن حيان والحاكم. ينظر، العقائد الإسلامية، سيد سابق، ص ١٦١.

[٢٣]- تحف العقول، لابن شعبة الحراني، ص٢٤٠.

[٢٤]- ٤٠ / ١٣١.

[٢٥]- ٩ / ٤١.

[٢٦]- ٢٠ / ٦٧.

[27]- ٤٧ / ١٨٣.
[28]- ج٣ ، ص ١٣٥.
[29]- ٤٦ / ١٦٣.
[30]- ١١ / ٤٣.
[31]- لم استطع التحقّق من صاحب هذا البيت.
[32]- ٢٠ / ٧٥ دعاء مكارم الأخلاق.
[33]- / ٤٧ وانظر ٢٠ / ٧٥ حيث يقول الإمام (ونبهني لذكرك في أوقات الغفلة). وقوله ٥/ ٣١ (واجعل فراغ أبداننا في شكر نعمك).
[34]- رواه ابن حنبل والنسائي وأبو داود.
[35]- ينظر، دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبد الله درّاز، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٠، ١٤٠٠ هـ، ص٦٣٠.
[36]- ٦ / ٣٥.
[37]- تنظر: رسالة الحقوق للإمام زين العابدين في تحف العقول، ص١٨٤.
[38]- دعاء يوم الاثنين، ص٢٢٣، وهو دعاء مأثور عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم. وجاء بعده (اللهمّ اجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة ومغفرة، أخرجه الطبراني، ينظر الإحياء ج١ ص٣٥.
[39]- هود، ١١٢.
[40]- فلسفة التربية الإسلامية، د. عمر محمد التومي الشيباني، المنشأة العامة، طرابلس، ليبيا، ط ٦، ص ١٩٨٦، ص ٣٩.
[41]- ٢٠ / ٦٨.
[42]- النحل، ١٢٠.
[43]- الكشاف، ج٢، ص ٢٢١.
[44]- ٤٧ / ١٨٠.
[45]- ٢٠ / ٦٧.
[46]- ٥٢ / ٢٠٥.
[47]- ينظر: في تحصيل الحديث عن رسالة الطير، ومنطق الطير، في دراسات في الأدب المقارن، د. بديع محمد جمعة، ص١٠٩، وص١١٥.
[48]- ص ٢٢١، دعاء يوم الأحد.
[49]- ٣٧ / ١٢٤.
[50]- البينة، ٨.
[51]- الصلة بين التصوف والتشيّع، د. كامل مصطفى الشيبي، ص ١٤٧،

نقلاً عن تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٧٤.

[٥٢]- الحشر، ٩.

[٥٣]- نهج البلاغة، تحقيق د. صبحي الصالح، ص ٥٥، وينظر، في ظلال نهج البلاغة لمحمد جواد مغنية، ص ١٢١.

[٥٤]- الشرح، ٧، ٨.

[٥٥]- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت، ج٥، ص٢١٧ـ ٢١٨.

[٥٦]- ص ١٠٣.

الفصل الخامس

البعد الاخلاقي في الصحيفة

تمهيد:

كان حديثنا في الفصل الثالث عن صفات الله وأسمائه الحسنى في الصحيفة، وستكون وقفتنا في هذا الفصل عند جانب من تلك الصفات في الكيان الإنساني بالقدر الذي يتمكن هذا الكيان السامي أن يحمله أو يجسده من تلك الصفات.

وعلى الرغم مما في هذا التعبير من حرج قد يؤدي إلى الانزلاق إلى سوء الأدب في النظر إلى صفات الله، واختلافها عن الصفات في العبد، ولكننا نريد القدر الذي نفهمه من صفة (الرجعة) أو (الكرم) أو (الصبر)، على أنها من صفات الله ـ سبحانه ـ وأنها صفات موجودة عند عباده المؤمنين. وهو يدعوهم إلى الاتصاف بها ويؤاخذهم على عدم الاتصاف.

أما الفارق في هذه الصفات بين الخالق والمخلوق، فذلك أمر عظيم، كصفة القدرة بين الخالق والمخلوق! بل إن هذه الصفات البشرية ذاتها من خلق الله في الذات البشرية، وأن نموّها من توفيقات الله للإنسان وحبّه له.

إننا نريد من هذه الأسماء المقدار الذي يتحقق من معانيها كما يقول الغزالي: (إعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلاّ بأن يسمع لفظه، ويفهم في اللغة تفسيره ووصفه ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى ـ فهو منحوس الحظ، نازل الدرجة، ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله)، بل إنه يرى أنه لابدّ من (السعي في اكتساب الممكنِ من تلكَ الصفات والتخلق بها، والتحلي بمحاسنها. وبه يصير العبدُ ربانياً، أي قريباً من الربّ تعالى، فإنه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة...).

فلا حرج ـ إذاً ـ من القول بأن العبد يسعى جاهداً في التخلق بأخلاق الله التي علمها أنبياءه وأولياءه وهدى الإنسان إلى تحصيلها كل بقدر استعداده وفطرته وسعيه.

والـذي يـتأمل في الأخـلاق البشـرية في علاقة الفرد بنفسه وعلاقته بربه، وعلاقـته بمجـتمعه يجدهـا كـثيرة، وقـد سماهـا الدكـتور أحمـد الشرباصـي بـ(أخـلاق القـرآن) وبلغت عنده مائـة وواحداً وثلاثين خلقاً. وذلك في كتابه الـذي يحمل العـنوان نفسـه والذي يتكون من ستة مجلدات. وهـي في الحقيقة صفات الأنبياء وصفات المؤمنين في التاريخ البشري كله.

ومـن الصـعب عليك أن تفصل بـين هذه الصفات الخلقية من حيث كونها مـتعلقة بـذات الفـرد، أو مـتعلقة بصـلته بـربّه، أو مرتـبطة بصـلته بالمجـتمع. فالصفة الـتي يتصـف بهـا المؤمن ـ في أغلب الأحوال ـ هـي صفة تتعلق بنفسه وبـربه وبالمجتمع الـذي يعـيش فـيه. فالصـبر مـثلاً، صـفة تـتحقق فـيها هـذه الأبعـاد وقـلّ في كـثير غيرهـا. فلا توجد أخلاق حسنة مع الله حتى يكون لها بعدهـا عـلى ذات الفـرد، وبعدهـا عـلى العلاقـات الاجتماعـية الواسـعة. ومـع ذلـك فهـناك صـفات يمكن الوقـوف عـندها عـلى أنهـا خاصة بعلاقات العبد بربّه، كما سنلاحظ.

عـلى أنـه مـن الضـروري الاشـارة في هـذا التمهـيد إلى أن المقصـود في الحديث عن الأخلاق من وجهة النظر الإسـلامية هو البعد الديني.

خُلُقٌ مع الله:

على الـرغم مـن أنـنى قلت إنـه مـن الصـعب الفصـل بـين عناصـر الخلـق الإسـلامية، فهـي كلها لله سواء مـا كـان مـنها مـع الله، أو مـع الـنفس أو مـعٍ العـباد. فهـي أخـلاق ربّانـية يقصـد بهـا وجـه الله، والعـبد يكون فيها متربيا على مائدة الله، والمربي هو الله.

ولكننا سنكون مضطرين إلى الحديث عن بعض الخلق التي لا يشرك بها العـبد غـير ربّـه، ولا يـتوجّه بهـا إلـى غـير ربـه. ولا نقـول إن هـذه الخلـق هـي الخلـق الديـنية وغيرهـا ليس كذلك. بل الأخلاق الإسلامية كلها خلق دينية.

ولكنَّ جزءاً من الاطلاق يكون خالصاً بين العبد وربه على أنه لابدّ أن سيكون لهذه الأخلاق انعكاس على الأخلاق الفردية والاجتماعية والسياسية، بل إن هذه من تلك، لا ريب.

وهذا النوع من الخلق، الخلق مع الله، كثير في الصحيفة، حيث يتوجه الإمام إلى مناجاة ربّه في مواقف من الحبّ والخشية والخضوع، فيصف الله بصفاته الحسنى، ويتحدث من المواقف النفسية التي لا تكون إلاّ بين العبد وربّه، ليخرج بعدها العبد متسلحا بالرضا الإلهي والتوفيق الإلهي، يخرج متسلحا للتعامل مع نفسه ومع الناس، وقاهرا عدوه وعدو الله ـ الشيطان الرجيم الذي يجري من الإنسان مجرى الدم في العروق.

ومن هذه الأخلاق:

التوبة:

ومن يقرأ الصحيفة يلاحظ أن الإمام يكثر من سؤال الله التوبة، وكأنه اقترف أخطاء العالمين كلها. وهذه سمة العبد الحق الذي لا يزكي نفسه، بل يشعر أنه في تقصير دائم، ويحثّ خطاه إلى المرضاة الإلهية العليا.

والتوبة منهج تربوي تدلنا على رحمة الله بالعباد، وإنه لم ينقطع السبيل أمام العصاة والمنحرفين، بل إنه ما زال المجال واسعا أمامهم للعودة إلى بناء أنفسهم وبناء المجتمع، ولو انقطع سبيل التوبة ـ حاشا لله ـ لظلّ كل منحرف سادرا في انحرافه ولخسر الناس أنفسهم حقا، ولخسر المجتمع ملايين البشر الذين حيل بينهم وبين أن يعودوا أعضاء نافعين فيه.

والإمام يجعل عنوانا خاصا، ودعاءً خاصا للتوبة، كما في الدعاء الحادي والثلاثين، وقد يأتي ذكر التوبة متناثرا هنا وهناك في الأدعية المختلفة.

ففي الدعاء التاسع يقول الإمام: (اللهم صل على محمد وآله، وصيّر محبوبنا من التوبة، وأزلنا عن مكروهك من الأصرار. اللهمّ ومتى وقفتنا بين نقصين في دين أو دنيا، فأوقع النقص في أسرعهما فناءً، واجعل التوبة

في أطولهما بقاءً...)[1] فمتى ما أقلع العبد عن الاصرار على الصغائر أو الكبائر، كان الطريق ممهّداً أمامه إلى الصلاح، ومتى ما أصرّ وداوم على أصغر الأمور فإنّ الطريق أمامه ممهّدة إلى ولوج الكبائر والعياذ بالله. ولهذا يتعوّذ الإمام من الإصرار...

وغاية أمل الإمام، وهو أمل كل عبد صالح يسير على منهج الإمام، أن تكون أعمالنا مختومة بالتوبة المقبولة، فخير الأمور خواتيمها. (.. فصل على محمد وآله، واجعل ختام ما تحصي علينا كتبة أعمالنا توبة مقبولة لا توقفنا بعدها على ذنب اجترحناه، ولا معصية اقترفناها، ولا تكشف عنا ستراً سترته على رؤوس الأشهاد، يوم تبلو أخبار عبادك...)[2] حسن العاقبة - إذا - هو غاية ما يرتجيه العبد الصالح، أما المرحلتان الأولى أو الوسطى من مسيرة الحياة، فلا يبعد أن تكون فيهما هفوات وأخطاء مرتبطة بطبيعة النفس الأمارة بالسوء وبالكيان الإنساني الضعيف، ولكن العقبى والفعل الأخير الذي ينعقد عليه القلب وتترجمه الجوارح هو المحل الأول من الاعتبار...

الاستغفار:

وهذا من تلك، فالتوبة الرجوع عن المعصية، وتاب الله عليه، وفّقهُ للتوبة. والمغفرة: التغطية والستر. واستغفره من ذنبه، طلب منه غفرَه وستره.[3]

فالاستغفار فيه ملحظ ليس في التوبة، فهو ليس رجوعاً عن معصية وطلب التوفيق إليه، بل هو ستر للمعصية وإزالتها نهائياً من صحائف الأعمال، فالتوبة أولاً، والاستغفار ثانياً.. وهو درجة أعلى..

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال: (إني لاستغفر الله تعالى، وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة)[4]. وعنه صلّى الله عليه وآله وسلم: (خير الدعاء الاستغفار)[5]. وظاهر الأمر أن الرقم (٧٠)

ذا دلالة رمزية، فليس للاستغفار حد، بل هو ميدان يتبارى فيه الصالحون، ويتنافس فيه المتنافسون، وما هم ببالغي أقصى غاياته.

والإمام السجاد عليه السلام دائم الاستغفار، ملحٌّ فيه، ناظرٌ إلى ثماره في الدنيا وثماره العظمى في الآخرة.

سمع الإمام رجلاً يُكثر من الاستغفار، فقال له: ثكلتك أمُّك!! أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستةٍ معان. أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها. والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلتصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله!!)[٦].

أبعد هذا معنىً أدق وأقوم وأجدى وأوقع في النفس، وآمل في المغفرة من هذا المعنى؟!

ولعلّه بسبب من هذا المعنى، اعتبر الإمام السجاد أن أحبَّ العباد إلى الله هم المستغفرون، كما جاء آنفاً في أدعية الاستغفار.

الذكر:

وهذا من ذاك أيضاً، وإن كان للذكر صفة تعظيم الله، واستحضاره في القلب واللسان في كل حين وآن. حتى جاء مقروناً في القرآن الكريم بالكثرة (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات)[٧]، وفي مواضع أخرى عديدة في القرآن[٨].

وهو لا يختص بحالات خاصة من حياة الإنسان، ولا في حالات الخلوة من العبادة، كما هو مشهور، بل هو يرافق هذه الحالات ويرافق حالات عملية من الحياة أخرى. فهو يكون مع أداء مناسك الحج، ويكون في أوقات الجهاد والزحف، ويكون في أوقات التمتع بالنعم، وفي اوقات الذبح، وفي أوقات

العمل، وفي كل حالة من حالات الإنسان في الوفرة والحاجة، وفي الغضب والرضا، وفي الإقامة والسفر، وفي اليقظة وقبيل المنام، وقياما وقعودا وعلى الجنوب.. إلى آخر حالات الإنسان..

فما يدل على أنه هدف لا يُستقصى، ومرمىً لا ينال إلاّ بالمجاهدة والتربية حتى يُصبح سجيّة في العبد غير مخلقة. وقد جاء في كتاب (أخلاق النبي) للحافظ أبي محمد جعفر بن حيان الأصبهاني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان: (إذا صلى الصبح لا يبرح من مجلسه حتى تطلع الشمس حسناءَ!!)[٩]. والعباد مندوبون إلى التحلي بسيرة المصطفى وسيرة الأئمة الميامين من ولده والسلف الصالح من أصحابه ومن تبعهم باحسان.

وقد قسم الرازي الذكر على ثلاثة أقسام: ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالجوارح[١٠]. وخير الذكر كلمة (لا إله إلاّ الله) وقد قيل إن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصوم، أما طاعة الذكر فإنها لا تزول[١١].

وأدعية الذكر في الصحيفة كثيرة أيضاً تتوزع أغلب الصفحات تقريباً. وللإمام دعاء خاص باسم (مناجاة الذاكرين)، وهو من الملحقات بالصحيفة. يقول فيه : إلهي أنت قلتَ وقولك الحق (ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا، وسبّحوه بكرة وأصيلا). وقلت ـ وقولك الحق ـ (فاذكروني أذكركم)، فأمرتنا بذكرك، ووعدتنا عليه أن تذكرنا تشريفا لنا وتفخيما وإعظاما. وها نحن ذاكروك، كما أمرتنا. فأجزل لنا ما وعدتنا ياذاكر الذاكرين[١٢].

وقد مرّ علينا قوله عليه السلام: (اللهمّ صلِّ على محمد وآله، وأشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر ، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة)[١٣].

ومما يتصل بالذكر الشكر باللسان والعمل وهي درجة من درجات

الربانيين ولها نصيب كبير من أدعية الصحيفة، مما يدل على أن هذا السفر الصغير في حجمه، كبير في دلالاته، ومضامينه وتوجيهاته.

ومن أدعية الإمام في الشكر (... ولا تذهب عني شكرك، بل ألزمنيه في أحوال السهو عند غفلات الجاهلين لآلائك، وأوزعني أن أثني بما أوليتنيه، وأعترف بما أسديته إليّ...)[١٤].

ومن لفتات الإمام في هذا المجال قوله: (واجعلْ شكري لك على ما زويتَ عني أوفر من شكري إياك على ما خوّلتني!!)[١٥].

ترى من منّا يصل إلى هذا المقام الرفيع من درجات العارفين، أصحاب الخلق السامي مع الله، والأدب الجم مع البارئ عزوجل؟ ونحن من عادتنا الشكر على ما خوّلنا الله، والشكر على ما في أيدينا، بل إنه ليس من عادة أغلبنا!! (وقليل من عبادي الشكور)[١٦].

أما الإمام (سلام الله عليه) فشكرُهُ على ما انزوى عنه أكبر من شكره على ما في يديه. ولا أدري أبسبب أن ما انزوى عنه آت إليه وهو أعظم مما في يديه؟ أم أن الخير في انزوائه عنه، لأنه لو جاء في يديه، ربما لا يقوى على حقه من الشكر؟! أم هو هذا وذاك!! ذلك من إيحاءات الأسلوب الأدبي في الصحيفة.

الاعتراف والتذلل:

أريد بدءاً أن أعرض عليك هذه النماذج للاعتراف والتذلل معاً، وإن كان بينهما انفصال، فما بينهما من الاتصال يساعد على تأولهما معاً، مثلما وقفنا عند الذكر والشكر معاً في الفقرة السابقة.

تأمل معي هذا الخلق الرباني، بين العبد وربه:

١ ـ (... فها أنا ذا بين يديك صاغرا ذليلاً خاضعاً خاشعاً خائفاً معترفاً بعظيم من الذنوب تحملتُهُ، وجليل من الخطايا اجترمتُهُ، مستجيراً بصفحك، لائذاً برحمتك، موقناً أنه لا يُجيرني منك مجير، ولا يمنعني

منك مانع...)[١٧].

٢ ـ (.. أتيتك مقراً بالجرم والإساءة إلى نفسي، أتيتُك أرجو عظيم عفوك الذي عفوت به عن الخاطئين، ثم لم يمنعك طول عكوفهم على عظيم الجرم أن عُدتَ عليهم بالرحمة والمغفرة...)[١٨].

٣ ـ (... فها أنا ذا يا إلهي واقف بباب عزّك وقوف المستسلم الذليل، وسائلك على الحياء مني سؤال البائس المعيل. مقرٌ لك بأني لم أستسلم وقت إحسانك إلاّ بالإقلاع عن عصيانك، ولم أخلُ في الحالات كلها من امتنانك. فهل ينفعني، يا إلهي، إقراري عندك بسوء ما اكتسبتُ؟ وهل ينجيني منك اعترافي لك بقبيح ما ارتكبتُ؟... بل أقول مقال العبد الذليل الظالم لنفسه، المستخفّ بحرمة ربّه...[١٩].

والنصوص من الاعتراف والتذلل أمامي كثيرة، وهي موزّعة في مواضع متعددة من الصحيفة. ولستُ في حالة من يُحلّل النص جزءا جزءا، ولكني سوف أقف مبهورا ـ مثلك ـ أمام هذا الصدق والإخلاص والخشية والرهبة في هذا الاعتراف النابع من قلب لم يعرف إلاّ حب الله وحبّ من أمره الله في حبه، وهذا التذلل الصادر من قلب كسير ونفس خاشعة، هذا التذلل الذي لا ينبغي أن يكون، على الاطلاق، لأحد غير الله، ومن يا ترى يملك السلطة على النفس في هذا الوجود حتى يصدر منها هذا الاعتراف والتذلل له؟ وانهما لا يجملان، ولا تكون لهما روعتهما إلاّ في هذا المحضر، فجلَّ من كان له وحدهُ التذلل!!

أترى لو أن محكمة وقف أمامها جان هذا الموقف واعترف بجرمه، وبيَّن الدوافع التي دفعته إلى هذا الجرم، أترى أنها لا ترحم هذا المعترف المتذلل، وقضاة المحكمة بشر، بما في القضاة من تمسك بقدسية القوانين...؟!

أترى لوأن هذا الاعتراف والتذلل كان أمام ملك طاغ، أترى أنه لا يرقّ

قلبُهُ لِهذا الصادق في كل كلمة يقولها وهذا المعترف الذي يتقطع قلبُهُ خوفاً ووجلاً؟ مع ما للملوك من غلظة وبطش وشعور بالاستغناء؟!!

ألم ندرس في الاعتذاريات من الشعر أن الملوك يعفون عن الشاعر الجاني، كما حدث للنابغة الذبياني مع الغساسنة أو مع غيره من شعراء العصور المختلفة؟ لا لشيء إلاّ لأن أولئك الملوك قد أيقنوا أن شاعرهم ذاك كان صادقاً في اعتذاره، صادقاً في بسط أسباب الجرم الذي صدر منه. بل لو لم تكن هناك أسباب معقولة للجرم، فالشاعر متمسك بأهداب عفو الملك وكرمه وتجاوزه.

بعد هذا كله، ألم يكن الخالق البارئ المصور الذي يعلم النوايا، ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقربُ إلى العبد من حبل الوريد، ألم يكن هذا العالم علماً أزلياً بصدق العبد أولى بقبول الاعتراف والتذلل من هذا العبد الذي يتوسل إليه؟!

بلى، إذا التزمنا هذا المنطق، وبلى إذا عرفنا أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه قال لعباده: (ادعوني أستجب لكم) [٢٠]. وهو الذي من شيمتة إكرام وفادة الوافدين عليه، القادر على محو الذنوب، وقبول عثرة المستقيل من ذنبه. فأين أولئك القضاة وأين أولئك الملوك من سماع صوت هذا المعترف المتذلل الذي شقّ صوته عنان السماء، مدركاً أن لا أحد يسمعُهُ إلاّ الأحد الصمد!!

(فسبحان الذي جعل الاعتراف بالنعمة له حمداً) [٢١] كما قال الإمام السجاد نفسه.

ولعمري هذه سجية في أئمة أهل البيت، فهذا أبوهم علي بن أبي طالب، يقف معترفاً متذللا أمام ربّه، حتى كأن ما سمعناه من اعتراف الأمام السجاد وتذلله صورة ناطقة عن اعتراف جدّه وتذلله:

(.. وقد أتيتك يا إلهي، بعد تقصيري وإسرافي على نفسي، معتذراً نادماً

منكسراً مستقيلاً مستغفراً مُنيباً مُقرّاً مُذعناً معترفاً.. اللهم إني أسألك سؤال خاضع متذلل خاشع أن تسامحني وترحمني)[٢٢] وبهذه الروح الحانية وهذه اللهجة الصادقة، وهذا القلب المنكسر...

ومن جنس الاعتراف والتذلل اللجأ والفرار إلى الله. وهو شعور يتملك العبد المقبل على الله بكل كيانه معتقداً يقيناً أنه لا ملجأ ولا فرار من الله إلاّ إليه، وإذا كان ثمة ملجأ وثمة فرار فإلى أين يا ترى؟! وهذا المعنى يعبّر عنه دعاء الإمام (اللجأ إلى الله)، وهو الدعاء العاشر من أدعية الصحيفة، حيث يقول: (.. فإلى من حينئذ منقلبنا عنك، وإلى أين مذهبنا عن بابك، سبحانك نحن المضطرون الذين أوجبت إجابتهم!..)[٢٣]، وقوله: (.. ولو أن أحداً استطاع الهرب من ربّه، لكنتُ أحقَّ بالهرب وأنت لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء إلاّ أتيتَ بها...)[٢٤].

بهذا الاحساس الغامر بأنه في قبضة الله، وأنه غير معجز الله، وأنه على سبيل الاستحالة، لو فكر بالهرب من الله، فإلى أين؟! بهذا السؤال الدال على النفي والاستنكار إذ لا أين!!

ونكتفي بهذا القدر، فالأمثلة كثيرة، وكلها مؤثر في النفس ودال على الصدق في العبودية.

الرجاء:

الأمل والرجاء والثقة بما عند الله سمة من سمات العارفين، والشعور بأنه سميع الدعاء مجيب الطلبات من الصادقين خلة من خلال الأصفياء الذين اصطفاهم الله لطاعته وأخلصهم لعبوديته.

والإمام يؤكد هذه المعاني في أدعيته، ويؤكد معنىً آخر هامّاً وهو اليأس مما في أيدي الناس، والتعويل على ما في يد الله، وعلى عطاء الله وحده. وهذه سجيّة محروم منها أغلب الناس لأنهم يعوّلون على أناس أمثالهم، أو على حكام يملكون رقاب الناس، أو يعتمدون على أموالهم أو جاههم أو

مركزهم الاجتماعي أو على قوىً أخرى معلومة أومجهولة، وهذا منهج تربوي يعيد الأمة إلى جادة الصواب، وإلى الباب الذي يجب أن تؤتى منه الأمور، وتطرق إليه الحاجات، خاصة في فترة العصر الأموي الذي ضعف فيه الوازع الديني وأصبح للناس آمال، وثقات وأبواب يطرقونها غير باب الله العظيم، بل هو توجيه من الإمام للناس كلهم، وفي عصور الإنسانية كلها، وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وسوفَ أكونُ مُضطراً إلى أن أحرمك من سياق النصوص التي سوف أعرض إليها، لأنني لا مجال لى إلاّ أن أبتسر من النص ما أراه شديد المساس بمعنى الرجاء والأمل بالله، واليأس مما في أيدي الناس. وليس لك إلاّ أن تعود إلى سياق الصحيفة وتحسّ بما أحسَّ به الإمام في مناجاته.

وإليك هذه الجمل والمقاطع القصيرة جداً في هذه الدلالات:

١ ـ (.. واجعل فيما عندك رغبتي..)[٢٥].

٢ ـ (اللهم من أصبح وله ثقة أو رجاء غيرك، فقد أصبحتُ وأنت ثقتي ورجائي في الأمور كلها...)[٢٦].

٣ ـ (.. أقبلَ نحوك مؤمّلاً لك، مُستحيياً منك، ووجّهَ رغبته إليك ثقة بك، فأمَّكَ بطمعه يقيناً، وقصدك بخوفه إخلاصاً، وقد خلا طمعُهُ من كل مطموع فيه غيرُك...)[٢٧].

٤ ـ (اللهم إني أخلصتُ بانقطاعي إليك، وأقبلتُ بكلي عليك، وصرفتُ وجهي عمن يحتاج إلى رفدك، وقلبتُ مسألتي عمن لم يستغنِ عن فضلك. ورأيت أن طلب المحتاج إلى المحتاج سفه منٍ رأيه، وضلة من عقله. فكم رأيت يا إلهي من أُناس طلبُوا العزّ بغيرك فذلوا...)[٢٨].

٥ ـ (.. وقلتُ: سبحان ربي. كيف يسأل محتاجٌ محتاجاً؟. وأنّى يرغبُ مُعدمٌ إلى مُعدم؟، فقصدتُك، يا إلهي، بالرغبة، وأوفدتُ عليك رجائي بالثقة بك..)[٢٩].

أرأيت إلى هذه المعاني التي هي قوام العبوديّة لله، وقوام الصلاح للنفس، وقوام قوة هذه النفس. لأنها باعتمادها على الله وثقتها به وحده وبأسها مما في أيدي لئام الناس خاصة، تكون تحرّرت نهائياً من كل سيطرة، وأشرأبت أعناقها إلى مالك الملك الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذلّ من يشاء، والذي لا مانع لما يعطي، ولا راد لما يأخذ.

فحرية العبد وقوته وشموخه في الثقة بأهل الثقة العظمى والقوة العليا، والحصن الحصين. ولو كان علماء التربية من الموحدين لما جازوا هذا المعنى في إنشاء أجيالهم وتربية نشئهم على هدى بارئ النفوس، وفالق الحب والنوى، ذي القوة المتين، والحول والطول الكبير المتعال.

وقريب من معنى الرجاء معنى التوكل على الله، أوخلق التوكل الذي تكون معه الإنابة إلى الله والتفويض إلى الله وحده بحيث لا يكون مع هذا التوكل أسَفٌ على ما فات لأنه بعلم الله، ولا فرح بما هو آت لأنه مقدّر ومقضيّ من لدن الله.

والإمام كثير ترديد هذه الصفة من الخلق مع الله، وهي من أخلاق القرآن وأخلاق المؤمنين الذين أثنى الله عليهم في كتابه العزيز. وقد أشرنا من قبل إلى ما في هذا التوكل من بعد اجتماعي وتربوي خلاصتُهُ الارتفاع بمعنويات الأمة وسموّها، كلما اعتمدت على القوة العليا المنظمة والمبدعة لهذا الوجود.

ولم يكن من وكدنا أن نستقصي الخلق الذي يجب أن يتصف به العبد مع ربه، فهي كثيرة، من مثل الخشية والإخلاص والصدق والرهبة والرضا والحب إلى غير ذلك من الصفات التي عدّها العلماء فبلغت المئات.

ومن الملفت للنظر أننا وجدنا في الصحيفة أمثلة لأغلب هذه الأخلاق، وقد أشرنا إلى جانب يسير منها مما له دلالة على باقي الأخلاق، ومما

فيه تزكية للنفس وارتفاع بها إلى الهدف الذي خلقت من أجله، وهو العبادة.

وقد تجسد هذا الخلق حقاً في شخصية الإمام زين العابدين، وترك آثاره في تاريخ العارفين مناراً وهدى للسائرين على خطى الإسلام.

وقد قيل حقاً بأنه (صار للزهد رأس علوي، كما كان له رأس في العلم والشجاعة، وسائر المثل التي كانت تتصل بالمجتمع الإسلامي) [٣٠].

ولا عجب فتلك مدرسة أهل البيت، المدرسة القدوة التي حافظت على ميراث الإسلام وقيمه، ولولاها لحاول أصحاب الدنيا من الحكام المسلمين أن ينحرفوا بالأمة عن خط عقيدتها، ومنهج بارئها.

مكارم الأخلاق:

ذلك الذي تحدثنا عنه من الخلق مع الله جانب من هذه المكارم الخلقية. وبقي جانب آخر، وهو ما يتعلق بالأبعاد الاجتماعية مما يفيض به الإنسان على أخيه الإنسان. وهي محك الأخلاق الأولى وانعكاسها الذي لا يخطئ الدليل على صدق ذلك الخلق مع الله، وعمقه وثباته في النفس.

وبمقدار توفر هذا الخلق الاجتماعي في أكبرٍ قدر ممكنٍ من الأفراد تكون آثاره في المجتمع كبيرة، بحيث يصبح مجتمعاً متماسكاً وقوياً.

والخلق في اللغة (السجية والطبع والعادة والمروءة والدين) وفي الاصطلاح (حال في النفس راسخة تصدر منها الأفعال بسهولةويسر في غير ما حاجة إلى فكر ورويّة) [٣١] ومن شعر حسان بن ثابت في مدح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم:

سجيّة تلك فيهم غير مُخلقة إنّ الخلائق، فاعلم، شرها البدعُ [٣٢]

والإسلام ينشّئ معتنقيه على التدريب في اكتساب هذه الخلق بناءً على ما لدى الفطرة الإنسانية من أسس لها، حتى تصبح طبيعة في النفس لا تقوى أضداد هذه المكارم أن تنازعها أو تستزلّها عن مكانها فيها [٣٣].

والحق أنه ما من عقيدة في الكون حثت على مكارم الأخلاق مثل ما حثت عليها العقيدة الإسلامية في دستورها القرآني، وفي أحاديث النبي المرسل وفي الشخصيات التي تربّت على هدى هذين المصدرين العظيمين.

وقد ذكر بعض الباحثين أن من الدلالة على اهتمام القرآن بمكارم الأخلاق أنه أشار إليها في ألف وخمسمائة وأربع آيات[٣٤]. كما أن صحاح السنة وأسانيدها المعتبرة عنيت عناية فائقة بنقل السيرة النبوية التي جسدت هذه المكارم فعلا وقولا.

ومن أحاديثه (عليه الصلاة والسلام): (بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق)[٣٥]، وقوله صلّى الله عليه وآله وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا)[٣٦]، وغيرها الكثير. بل إنّ ربَّ العزة يخاطب نبيّه بقوله: (وإنّك لعلى خلق عظيم)[٣٧]، وهذه شهادة ما بعدها من شهادة، لأنّها من خالقه وبارئه ومصوره، وكفى به عالما بسرائر عباده، بصيرا خبيرا بدواخل نفوسهم ودرجة خشيتهم منه، وطبيعة تعاملهم مع عباده.

ويهمنا في هذا الموضع البعد الاجتماعي لهذه الأخلاق. وهو بُعد ليس غريبا على العقيدة الإسلامية التي بنيت عباداتها على التواصل الاجتماعي والتعارف والأخوة والمساواة، وهذا ما يلاحظ في العبادات كلها تقريبا على تفاوت في درجة الجانب الاجتماعي فيها كما يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رحمة الله عليه)[٣٨].

حتى أن القرآن يقرّر بأنه لا خير في كثير من نجوى الناس أو أقوالهم أو أعمالهم ما لم تكن ذات إفاضة على الناس بعد أن تكون صادرة عن خلق راسخة في النفس، كما أشرنا.

قال تعالى في سورة النساء: (لا خيرَ في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس...)[٣٩].

ولعلَّ خير مجال في متابعة مكارم الأخلاق في القرآن هو إحصاء صفات

المؤمنين في سور القرآن وآياته خاصة في بداية سورة البقرة، وبداية سورة (المؤمنون) وآخر سورة الفرقان، وفي مواضع أخرى كثيرة، ليس هدفنا الآن الوقوف عند تفصيلاتها.

والذي يهمنا في هذا الحديث هو البعد الاجتماعي للأخلاق الإسلامية في القرآن وفي السنة المطهرة، وإن كان يصعبُ الفصلُ بين الخلق مع العباد والخلق مع الله. ومراجعة سريعة لصفات المؤمنين في القرآن تجعلك أمام هذه المزاوجة بين الخلق مع الله والخلق مع الناس.

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام، قال: إنا لنحبُّ من كان عاقلاً فهماً فقيهاً حليماً مداريا صبورا صدوقاً وفيّاً، إن الله خصَّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله، ومن لم تكن فيه، فليتضرع إلى الله عزوجل، وليسأله إياها. قلت: جعلتُ فداك، وما هنَّ؟ قال: هنّ الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة والبرّ وصدق الحديث وأداء الأمانة)[٤].

وأنت تلاحظ معي أن من هذه الصفات ما هو شديد الصلة بالله، ومنها ما هو خاص بالتعامل مع الناس. وفي هذا المزج بينهما نلحظ دقيق دلالته أن هذه الخلق كلها يستجيب فيها العبد لأمر الله، ومن تكريم الله للناس أنه جعل حسن الخلق بينهم، كحسن الخلق بينهم وبينه. فالخلقُ عيالُ الله وأسرته ـ إذا صحّ التعبير ـ فخير الناس عنده هم خيارهم لعياله في التعامل والخلق والعطاء والتكريم.

ونحن إذا نظرنا إلى نصيب الصحيفة السجادية من الحث على مكارم الأخلاق من خلال دعاء الإمام وسؤاله الله ـ سبحانه ـ أن يرزقه إياها ـ وهو دعاء وسؤال يتعدى الإمام إلى كل مسلم ومسلمة ـ وجدناه نصيباً كبيرا.

فهو ـ عليه السلام ـ مثلما يدعو إلى نفسه، كما شاهدنا من نماذج في

الصفحات السابقة، يدعو إلى والديه ويدعو إلى ولده، ويدعو إلى جيرانه وأرحامه والمسلمين والمسلمات عامة. ويسأل الله أن يُعينه على أداء حقوقهم جميعاً وحسن معاملتهم وصلتهم وبرّهم. تجد هذا في الصحيفة وتجده في وثيقته القانونية المستوحاة من خلق القرآن (رسالة الحقوق)، حيث يتحدث ـ لا بطريقة الدعاء ـ ولكن بتقرير القيم الأخلاقية في التعامل مع الأصناف المختلفة مع الناس على تفاوت في درجات قربهم وصلتهم منه. بل إن الإمام ليتحدث عن حقوق يغفل الناس عن التنبه إليها كحق لسانك عليك وسمعك وبصرك ورجليك ويدك وسائر أعضائك. ثم حق صلاتك وعباداتك الأخرى[٤١]. ومن منا يتذكر حق (المؤذّن) عليه؟!

بينما المسلم الربّاني يرى للمؤذن فضلاً كبيراً لأنه يدعوه إلى طاعة الله، ويذكره بالقيام لله، كما رأينا من ذكر حقه لدى الإمام.

فكلٌّ واهتمامه، فربما نحن فكرنا في حقوق الناس الذين تفضّلوا علينا بشيء مادي، أو كان لهم منزلة اجتماعية أو كان لهم سلطان علينا.. أما هذا النوع من التفكير في الحقوق فبعيد عن عالم الناس في كثير من الأزمان!!

أما هؤلاء الأئمة ـ سلام الله عليهم ـ فهم سليلو بيت اجتباه الله وهدى أهله. وقد جاء القرآن ناطقاً بتصوير مكارم أخلاقهم. أليس موقف الإمام علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من المسكين واليتيم والأسير يشبه المثال البعيد المنال في عرفنا اليوم؟! ولكنّهُ عمل يسيرٌ القيام به ومتوقع صدوره من تلك النفوس التي يصدر منها الخلق الطيب كما يصدر الضوء من الشمس أو كما يصدر العطر من الورد...

وقد شاء الله أن يخلد ذكر هذه الصفوة في الآخرين ويسجل عملها في صفحات اعجازه العظيم، فقال: (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً)[٤٢].

وقد روي عن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام أنّها كانت تكثر من الدعاء لجيرانها، حتى أن ولدها الإمام الحسن كان يقول لها: فماذا أبقيتِ لنفسك يا أماه؟!

والإمام علي بن الحسين من هذه الدوحة، وهذه الشجرة الطيبة المباركة، التي نتفيّأ في ظلال المكارم من أخلاقها، ونجنى الحلو من ثمارها.

وحديث الإمام من مكارم الأخلاق يتوزع أدعية الصحيفة، ولكننا سوف نقف عند جانب يسير منها. وربما وقفنا بشيء من التريث عند الدعاء العشرين الذي عنوانه (في مكارم الأخلاق ومرضي الأعمال)، ونقتطف منه بعض المقاطع:

(... وأجْرِ عليَّ يدي الخير ولا تمحقه بالمنّ، وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر. اللهم صل على محمد وآله، ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها. ولا تُحدثْ لي عزّاً ظاهراً، إلا أحدثتَ لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها....). فالإمام يسأل الله أن يجعل منه أداة للخير وسبيلاً موصلة إلى الله، دون شعور بالمنّ أو الفخر، لأنّ المنّ والفخر يمحقان العمل الصالح، ولا يكون هذا الشعور في النفس إلا حين تحس بأن العمل الصالح الذي تقوم به إنما هو من فضلها ومن عطائها... بينما النفس المؤمنة يغمرها الاحساس بأنَّ الخير الذي في يدها والعمل الذي تقوم به إنما هو من فضل الله وكرمه، فكيف يكون مع هذا الاحساس شعور بالمنّ والفخر؟! بل لن يكون معه إلا شعور بالشكر والسجود.

ولاحظ هذا الشعور بعدم الترفع على الناس وعدم الاستعلاء النفسي الداخلي، حيث يطلب الإمام من الله أن تكون درجة الاحترام والعز الخارجي، معادلة بدرجة مثلها من الذلة الباطنة!! إذ لو حدث عز داخلي مع العز الخارجي، لمحق العمل!! وقد روي عن الإمام انه (كان إذا ناول

الصدقة السائل قبّله ثم ناوله!!) [٤٢] فأية خلق نبوية هذه؟ وأين الناس منها؟!

ويقول الإمام في الدعاء نفسه: (.. وسدّدني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبرّ، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر..).

هذه هي القمة من مكارم الأخلاق!! وهي ألا تعامل الناس بالعدل لأنّك تصبح مثلهم، بل تعاملهم بالاحسان، وكأن العدل درجة أقل من الاحسان في الخلق. وها هو الإمام يطلب من الله ـ سبحانه ـ أن يعينه على مقابلة من غشه بالنصح، وهي درجة من الاحسان، لأنه لم يقابل الاساءة بالمثل. ويسأله أن يعينه كذلك، على أن يجازي من يهجره ليس بالهجر، بل بالبر، وأن يثيب من حرمه بالعطاء، وأن يرد على من اغتابه بعكس الغيبة، وهو حسن الذكر..

اللهمّ إن هذه هي أخلاق النبوة!! والله أعلم حيث يجعل رسالته. أليس هذا من وحي الخلق المحمدي؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أوصاني ربي بتسع، أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفوَ عمنٍ ظلمني، وأعطيٍ من حرمنيٍ، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عِبَرا) [٤٤].

فالمشكاة واحدة، فلا عجب أن يكون الضوء الصادر منها واحداً!!!

هذا ما يعكسه القول في الدعاء الصادق. أما العمل فكان الترجمان لأدعية الإمام حقاً. روى سفيان الثوري، وهو من شيوخ الزهاد في القرن الثاني أنه (جاء رجل إلى علي بن الحسين فقال له: إنّ فلانا قد ذمّك ووقع فيك، قال فانطلق بنا إليه. وانطلق معه وهو يرى أنه سينتصرُ لنفسه. فلما أتاه قال: يا هذا إن كان ما قلتَ حقاً، فغفر الله لي. وإن كان ما قلت فيّ باطلاً فغفر الله لك!!) [٤٥].

فمن كان قوله في الدعاء مثل ذاك، فمن الطبيعي أن يكون فعله من النوع هذا.

ولا أحب أن أترك الدعاء العشرين، دعاء مكارم الأخلاق دون أن أثبت ما يعضد عمق تعلق الإمام بهذه المكارم. فبالاضافة إلى مكرمة الاحسان التي أشرنا إليها، تجد المكارم التالية من الخلق:

(اللهم صل على محمد وآله، وحلني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء الثائرة، وضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالفة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضل، وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق، والقول بالحقّ وإن عزّ...).

فهذا عدد جامع لمكارم الأخلاق من عدل وكظم للغيظ، وإطفاء الشر بين الناس، وجمع المتفرقين منهم، وإصلاح الخلافات الأسرية بينهم، وإفشاء المعروف من الخلق، وستر عيوب الناس، والانة الجانب والتواضع لهم، وعدم المراء والمشاجرة معهم، والتسابق نحو الفضائل، وترك تعيير الناس بما نُسدي إليهم من إحسان، بل والتفضل حتى على غير المستحق منهم!!

ترى لو أردنا أن نقف عند كل مكرمة من هذه المكارم شرحاً لأبعادها في صياغة الجماعة الخيرة والأمة الصالحة، أترانا قادرين دون أن نخرج عن منهج هذا الفصل المحدود؟!

والحق أن كل مكرمة تشكّلُ عنصراً هاماً من بناء الصرح الاجتماعي في الإسلام، واجتماعها هو الصرح المتكامل للسمو الأخلاقي في الإسلام.

والإمام يحرص على الالحاح في طلب هذه المكارم لنفسه، وهو يريد من الأمة أن تفعل فعله في مسيرة تصاعدية نحو الشخصية التكاملية، كما

أشرنا في الفصل السابق.

إن المنطق الذي يملأ احساس الإنسان المسلم هو (ماذا يجب أن أعمل)[٤٦]، وليس وراء تلك القائمة من مكارم الأخلاق من عمل. فالملاحظ أنها أعمال وليست دعوات أو أقوالاً ترسم مثالا في الوهم أو الخيال!!

وكأن الإمام عليه السلام يرشدُ على هذا المعنى في دعائه حين يقول: (وارزقني... عِلما في استعمال) في دعاء المكارم نفسه[٤٧]. وإلاّ فما فائدة العلم الذي يقبع في الصدور دون امتحانه في محك العمل والتفاعل. وبهذا البعد العملي من الأخلاق سُمّيت بـ(علم السلوك)[٤٨]، والسلوك درجة وتغيير وجهد ومسيرة إلى هدف مقصود.

ويمكن إثارة الملاحظة التالية: هل الجانب الاجتماعي من الخلق الإسلامية يذيب الجانب الفردي ويقضي على عنصر النبوغ والذاتية ويُصيّر الإنسان مدفوعا للعمل الاجتماعي ناسيا حقوق نفسه عليه؟!

ونستعين بالاجابة على هذا التساؤل بالدكتورة بنت الشاطئ التي ترى (أن الإسلام ألغى الحواجز غير الطبيعية بين الفرد والجماعة، فهما فيه لا ينفصلان، وهو في عنايته بالإنسان فردا، إنما ينظر فيه إلى اجتماعيته التي لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنها)[٤٩].

فالإنسان الفرد عندما تتجسد فيه هذه المكارم الخلقية الاجتماعية إنما يحقق ذاته من خلال شعوره بأنه يقود الجماعة إلى الفضائل ويهديها إلى الاستقامة. فلا تناقض بين الفردية والجماعية في الخلق الإسلامي كما دلتنا عليه أخلاق الصحيفة التي تترجم أخلاق الإسلام أصدق ترجمة، وتعبّر عن عناصر القوة في مجتمعه وأفراده. فهذه الأخلاق سواء عبّر عنها الفرد أو الجماعة المسلمة إنما هي عناصر قوة وتماسك وثبات على المستوى النفسي والاجتماعي. أليس الإحسان قوة؟ إذ كيف يمكن أن نتصور شخصا يقابل من يسيء إليه بالاحسان وليس السكوت عن الإساءة؟ أليس هذا قوة

في العقل وقوة في الضمير وامتلاكاً للأعصاب والغرائز العدوانية؟

وابحث عن أية مكرمة من مكارم الأخلاق التي وجه إليها القرآن والرسول صلّى الله عليه وآله وسلم وصورتها الصحيفة بصيغة ادعية تجد القوة مقترنة فيها، بل هي القوة ذاتها.[٥٠]

على أنه من الضروري الاشارة إلى أن هذه المكارم لا ينبغي أن تكون صفات أفراد قلة. وإلا لما كان يمكن أن يكون لها أثرها الاجتماعي، فكلما ازدادت انتشاراً في النوع الإنساني أو الأمة المؤمنة كانت أمة مقتصدة حقاً ووسطى حتماً. وهكذا كانت أمة الإسلام.

إن النظر البصير يشدّد على لفظة (قوم) من قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)[٥١]. فلا جدوى من التغيير الفردي حتى ولو كان بدرجة عميقة، بل لابدّ من تغيير على مستوى عريض من قطاعات الأمة، وبالعمق الذي يُشهدُ لدى الأفراد النماذج.

ومن الواقعية القول إن هذا ليس مستحيلا إذا تهيأت الظروف السياسية في ظل حكم شرعي يشيع الإيمان والورع ويعين الناس على الطاعات ويشرح صدورهم لها ويبعد عنهم الشرور والمآثم وليست المسألة الخلقية بالصورة التي عرضها الإمام السجاد في دعائه مسألة مثالية يعز فيها التحقق، بل هي بمستوى الواقع. أما إذا كانت من قبيل التعسير وطلب ما لا يُنال فهذا ليس من أهداف الإسلام كما جاء على لسان جندي الإسلام الإمام زين العابدين عليه السلام: (واعلم أن الله يُراد باليسير، ولا يُراد بالعسير. كما أراد بخلقه التيسير ولم يُرد بهم التعسير)[٥٢].

وقد أشرنا من قبل أن هذا يتم حين تتمكن هذه الخلق في النفس وتصدر عفوية دونما تكلّف. وفي النفس استعداد لهذا وفي الدرجة والتخلق مجال للحصول على الدرجة المرغوبة في الإسلام.

وفي دعاء الإمام استعانة بالله على تيسير المضي في طريق المكارم من

الأخلاق التي تصبح سجيةً ثابتة في النفس. يقول الإمام: (اللّهم صل على محمد وآله، وارزقني بالتحفّظ من الخطايا، والاحتراس من الزلل في الدنيا والآخرة في حالٍ الرضا والغضب، حتى أكون بما يرد عليَّ منهما بمنزلة سواء، عاملاً بطاعتك مؤثراً لرضاك على ما سواهما في الأولياء والأعداء، حتى يأمن عدويّ من ظلمي وجوري، وييأسَ وليّي من ميلي وانحطاط هوايَ!!)[٥٣].

فحين يرزق الإنسان التحفّظَ والاحتراس من الخطايا ويطلب هذا التحفظ بجد ووعي، يتعامل مع الأمور التي ترد عليه في الدنيا بمقياس ثابت وخلق مستقيم. (حتى يأمن عدوّي من ظلمي وجوري، وييأس وليّي من ميلي وانحطاط هواي)!!.

كيف تكون هذه الاستقامة وكريم الأخلاق، بحيث لا يجورُ معها على عدو، ولا يميل إلى صديق على حساب القيم؟!! وما من شك في أنها لن تكون إلاّ بالتوفيق الإلهي، والجهد الإنساني الذي ينظر إليه الله من عل ويقدره في أهله حق تقديره.

الاستعاذة من سيئات الأخلاق:

ومع الإلحاح في الالتزام بمكارم الأخلاق، يلح الإمام في أدعيته على الاستعاذة من منكرات الأخلاق حتى يتحقق بالنفي الإثبات، وحتى تنفر النفس من كل ما يعارض سجيتها أو يثلم من البناء الخلقي الذي شادته بالصبر والمجاهدة.

وهناك دعاء خاص بالاستعاذة من (المكارم وسيّئ الأخلاق ومذموم الأفعال)، وهو الدعاء الثامن من الصحيفة وهو جامع لأغلب المذمومات من الأخلاق والأفعال: (اللهم إني أعوذ بك من هيجان الحرص، وسورة الغضب، وغلبة الحسد، وضعف الصبر، وقلة القناعة، وشكاسة الخلق،

وإلحاح الشهوة، وملكة الحمية، ومتابعة الهوى، ومخالفة الهدى، وسِنَة الغفلة، وإيثار الباطل على الحق، والإصرار على المآثم. واستصغار المعصية، واستكبار الطاعة، ومباهاة المكثرين، والإزراء بالمقلين، وسوء الولاية لمن تحتنا، وترك الشرك لمن اصطنع العارفة عندنا....) [٥٤].

والحق أن هذا دستور من دستور. فأية نفس عظيمة هذه التي حباها الله واجتباها وأبعدها عن مثل هذه الرذائل التي يسقط معها الإنسان ويهبط عن عليائه التي يسر الله له الولوج إليها.

وكل خلق من هذه الخلق قاصم للنفس، وقاصم لعرى العلاقات الحميمة بين الناس مثل الحرص والغضب والحسد... ثم إن هذه الخلق وغيرها رمز للضعف لدى الإنسان وتمكن الشيطان منه، على خلاف مكارم الأخلاق التي قلنا عنها إنها تعبير عن قوة وتمكن ورسوخ.

وفي غير هذا الدعاء استعاذات أخرى منه سيّئ الخلق حتى ليكاد الإمام يحصيها كما أطنب وأحصى مكارم الأخلاق من قبل. يقول (سلام الله عليه): (.. ولا تفتني بالبطر وأعزني ولا تبتلني بالكِبْر، وعبّدني لك ولا تُفسدْ عبادتي بالعجب) [٥٥].

فحين يتخلص المرء من هذه العقد والأمراض يكون عطاؤه الاجتماعي عظيما، ويسير في خط الطاعات وخدمات الناس لأنه يستقل عمله باستمرار بخلاف لو ابتلي ــ والعياذ بالله ــ بداء البطر والكبر والعجب... [٥٦].

وللإمام أسوة برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم في دوام الاستعاذة من سوء الأخلاق. وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المجال من مثل قوله (اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن...) [٥٧]. وقوله (اللّهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء) [٥٨].

خاتمة:

بعدهذه الأهمية العظيمة للأخلاق على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة في بناء شخصيّتهما المتفردة التي تمتاز بها عن شخصيات الأفراد الآخرين والأمم الأخرى. حتى ليمكن القول إن قوة الأمة في تماسك خلقها، وإن انحطاط خلقها سبيل إلى انقراضها، وإن بدت ـ لفترة ـ أنها قوية ومتماسكة. وأصحاب العقل الحصيف يلتفتون إلى السمو الخلقي لدى الأمم أو الانحطاط الخلقي فيها.

فعندما انهارت فرنسا أمام الزحف النازي في يومٍ وليلة قال المارشال (بيتان) إن انهيار فرنسا ذاك كان إنهياراً أخلاقياً قبل أن يكون هزيمة عسكرية[٥٩].

ولا يَسعُنا المجال للحديث هنا عن الهبوط الأخلاقي في العالم اليوم، بل وفي عالمنا الإسلامي نفسه، فلهذا الحديث مقال آخر، ولكننا نريد أن نثبت موقفاً رائعاً للإمام الخميني (رحمة الله عليه) وهو يرد على الوضع المتدني للأخلاق في إيران قبل الثورة الإسلامية، كما يردّ على من يعتقدون أن الدعوة إلى الأخلاق دعوة وعظية تجاوزها الزمن!!

فكان يقول لهم: أليس الأنبياء (سلام الله عليهم جميعاً كانوا يعظون الناس ويغرونهم بمكارم الأخلاق، ويحذرونهم من سيّئ الأخلاق والأفعال وسوء عاقبة هذه الأخلاق والأفعال؟!)[٦٠] أيغض من شأن الأنبياء أنهم كانوا منذرين ومبشرين وواعظين ولا نملك نحن ـ الهداة السائرين على خطى الأنبياء ـ إلاّ السير في هذا الاتجاه، وهو اتجاه تشريف وتكريم؟

ثم لماذا نضع المدرسين للفقه والأصول والفيزياء والكيمياء ولا نعنى بمدرس الأخلاق؟! أليس هذا استهانة بأهمية الأخلاق؟ مع علمنا بأن المعرفة مهما بلغت درجتها في النفس لا تعصم الإنسان من الوقوع في الرذيلة بينما الأخلاق الراسخة الثابتة التي يُربّى عليها الإنسان منذ

طفولته ونشأته تكون عاصماً له من الانهيار.

ويروي الإمام أنّ الشيخ الأنصاري (رحمه الله)، وهو استاذ الفقه والأصول كان يجلس في مجلس مدرس علم الأخلاق ويتعلم منه[٦١]، لأن هذا العلم لا ساحل لبحره، ولا منتهى لمطلبه.

ولعلَّ في هذا البسط من الحديث عن أهمية الأخلاق وتتبعها في أدعية الصحيفة لدى الإمام زين العابدين، ما يثير الالتفات إلى هذا الكنز العظيم، وما يشد الأمة إلى الخلق التي ندبها ربها إلى السير على هداها. خاصة في زمن أضحى فيه الحديث عن الأخلاق ضربا من الوهم والمثالية.

ولعلَّ في تنبيه الأمة إلى ما في الصحيفة من تصوير لمكارم الأخلاق ما يدعوها إلى إحياء هذه المعاني التي صارت مهجورة، وربما وُصف أهلها بالتخلف، وعدم مجاراة العصر البراغماتي النفعي الذي يقيس الأمور بمقياس النفع والخسارة الدنيويين.

الهوامش

[1] - ٩ / ٤.

[2] - ١١ / ٤٣.

[3] - يراجع مختار القاموس، مادة ثوب، وغفر، ص٧٩، و٤٥٧. الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط١. ١٩٨٤.

[4] - رواه البخاري، وهو في إحياء علوم الدين، ج١، ص٣١١.

[5] - أصول الكافي للكليني، ج٢، ص٥٠٤.

[6] - نهج البلاغة، تحقيق د. صبحي الصالح، ص٥٤٩.

[7] - الأحزاب، ٣٥.

[8] - يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

[9] - الحافظ أبومحمد جعفر بن حيان الأصبهاني، دارالكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٩، ١٩٨٩. (تحقيق السيد الجميلي)، ص٢١٨.

[10] - شرح أسماء الله الحسنى، ص٥٣.

[11] - نفسه، ص١٥٨.

[12] - ص٢٥٦.

[13] - ص٤٧. وانظر: الفصل الرابع، فقرة (أوقات الفراغ).

[14] - ٤٧ / ١٨١.

[15] - ٣٥ / ١٢١.

[16] - سبأ، ١٣.

[17] - ٤٧ / ١٧٥.

[18] - ٤٨ / ١٨٩.

[19] - ١٢ / ٤٥.

[20] - غافر، ٦٠.

[21] - تحف العقول عن آل الرسول، لابن شعبة الحرّاني، ص٢٠٥.

[22] - ينظر: دعاء كميل في مفاتيح الجنان، للحاج عباس القمي، ص٦٤

.

[23] - ص٤٦.

[24] - ص٢٨٦.

[25] - ٥٤ / ٢٠٩.

[26] - ٥٤ / ٢١٠.

[27] - ٣٥ / ١٠٥.

[28] - ٢٨ / ١٠١.

[29] - ١٣ / ٤٩.

[30] - الصلة بين التصوف والتشيع، د.

كامل الشيبي، ص١٤٧. ويقول ابن سعد في الطبقات الكبرى: (كان علي بن حسين، ثقة مأموناً كثير الحديث، عالياً، رفيعاً، ورعاً). ج٥، ص٢٢٢.

[٣١] - المعجم الفلسفي، د. جميل صليبيا، ص٥٣٩.

[٣٢] - ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، بيروت، ص١٤٥.

[٣٣] - اصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ص١٢٤.

[٣٤] - فلسفة التربية الإسلامية، د. عمر محمد التومي الشيباني، ص٢٢٢.

[٣٥] - رواه مالك في الموطأ، حسن الخلق، (٨). وأحمد بن حنبل ٣ / ١٣٨.

[٣٦] - رواه أحمد ٣ / ١٨٥، والدارمي، سنّة (١٤).

[٣٧] - القلم، ٤.

[٣٨] - الفتاوى الواضحة، ص٦١٥-٦١٦.

[٣٩] - النساء، ١١٤.

[٤٠] - الجهاد الأكبر، للإمام الخميني، ص١١.

[٤١] - تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٨٥.

[٤٢] - الإنسان، ٨، ٩.

[٤٣] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٣، ١٣٧. وكان يقول أيضاً (إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٥، ص٢١٦.

[٤٤] - فلسفة التربية الإسلامية، ص٢٢٣.

[٤٥] - الصلة بين التصوف والتشيع، ص ١٥٣. وتنظر قصته مع الوالي هشام بن إسماعيل في الطبقات الكبرى، ج ٥، ص٢٢٢.

[٤٦] - دستور الأخلاق في القرآن،ص٦٨٨.

[٤٧] - ينظر: الدعاء في ص٦٧.

[٤٨] - المعجم الفلسفي، ص٥٤٠.

[٤٩] - الشخصية الإسلامية، دراسة قرآنية، د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، ص١٨٣.

[٥٠] - الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، المجلد السابع، ص٣٢.

[٥١] - الرعد، ١١.

[52] - تحف العقول، ص١٨٦.

[53] - ٢٣ / ٨٣.

[54] - ٨ / ٣٨.

[55] - ٢٠ / ٦٧.

[56] - ينظر في تفصيل الحديث عن سيء الأخلاق هذه وغيرها في روح الدين الإسلامي، عبد الفتاح طبارة، ص ٢٢٥ وما بعدها.

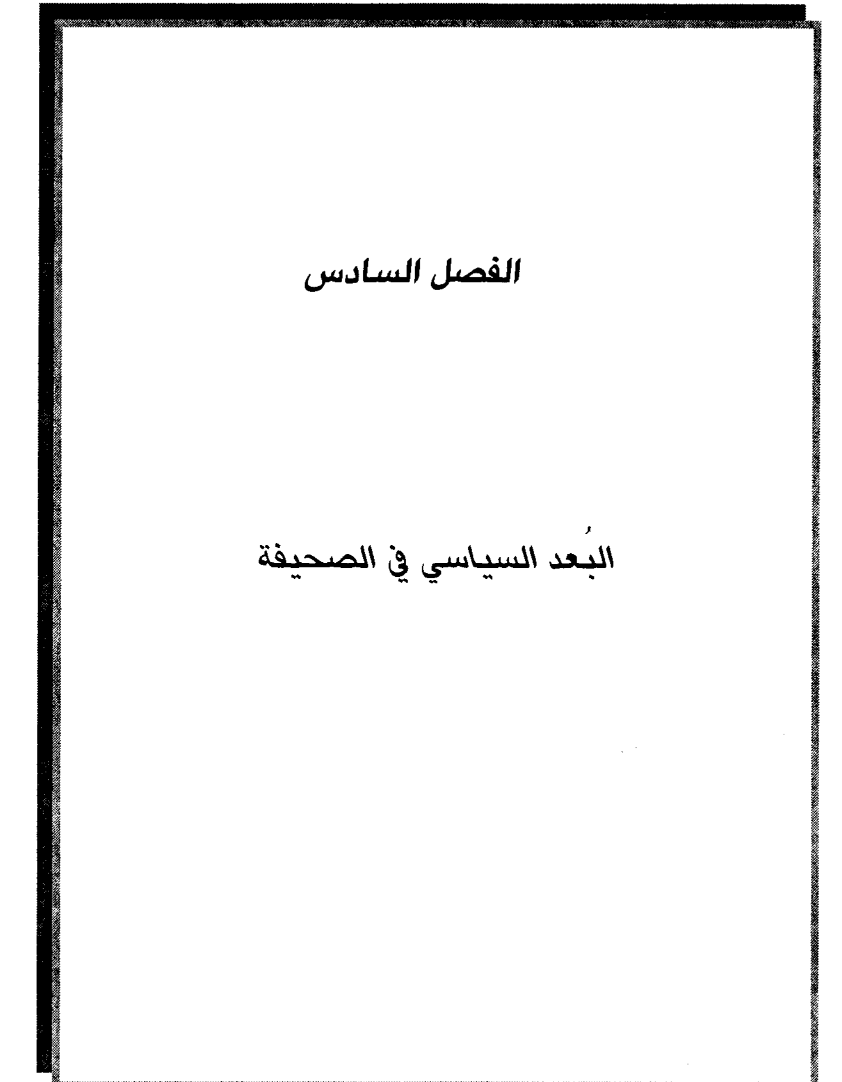
[57] - رواه البخاري.

[58] - رواه الترمذي والحاكم وحسّنه. ينظر: إحياء علوم الدين، ج١، ص ٣٢٢.

[59] - دستور الأخلاق في القرآن، مقدمة الدكتور عبد الصبور شاهين، ص (ك).

[60] - الجهاد الأكبر مع شيء من التصرف، ص٨.

[61] - ص٢٣.



الفصل السادس

البُعد السياسي في الصحيفة

الحكم الأموي:

كنا ألمحنا في الفصل الأول عن الظروف السياسية التي كتبت خلالها الصحيفة، وسنزيد هذه الظروف إيضاحاً للرد على تساؤل متوقع مضمونه أن لا علاقة بين الدعاء الذي هو موقف روحي وبين المواقف السياسية التي تدل في ظاهرها على الصراع من أجل المواقع والأيدلوجيات السياسية.

ومن البدء نقول إنّ مثل هذا التساؤل إذا كان ينسجم مع الأديان الأخرى، فإنه غريبٍ عن منطق الإسلام الذي تلتحم فيه القضايا الروحية والسياسية التحاماً عميقاً، وتصير فيه السياسة صدى للعقيدة والموقف الروحي وتمثيلاً صادقاً لهما.

ولا يسعُ هذا الفصل أن يتحدث عن الصورة التي وصل إليها بنو أمية للسلطة، فهذا مسلسل ترتدُّ أصوله إلى خلافة عثمان بن عفان حيث كان لهم موقع في الإدارة والجيوش، ثم كان أن تسنّموا السلطة بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام عام أربعين للهجرة ضمن ملابسات لا مجال للحديث عنها.

والذي يهمنا الآن هو الإشارة إلى طبيعة السلطة الأموية، ومدى انسجام الأمة معها، أو صورة نظرتها لهذه السلطة. فالذي لا شك فيه أن الاحساس العام لدى الأمة هو أن بني أمية لم يجيئوا عن طريق استفتاء الأمة أو أخذ رأيها فيمن يحكمها، بل جاءوا عن طريق الخداع والقهر واستثمار الظروف.

فبقيت العلاقة بينهم وبين الأمة علاقة ريب وسوء ظن، بل وعلاقة صراع سياسي ودموي عنيف، تمثل بظهور شتى الأحزاب السياسية، وقيام عدد كثير من الثورات ضدهم انتهت بسقوط دولتهم في فترة قصيرة.

ويهمنا من فترات هذا الحكم فترة ما بعد استشهاد الإمام الحسين عليه

السلام، حيث تأجّج الحقد على الحكم الأموي وعبّر عن نفسه بثورات مثل ثورة التوابين وثورة المدينة وثورة المختار الثقفي، وثورة مطرّف بن المغيرة، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث[1].

وكان رد الفعل الأموي قاسياً ومدمراً، وليس بعيداً عن ذهنك ما فعلوا بالمدينة وأهلها من مناكير يقشعر لها الجلد، ويندى منها الجبين، دون أن يراعوا حرمة هذه المدينة وقدسيتها بل بلغ حقدهم على الإسلام أن رموا الكعبة المشرفة بالمنجنيق كما تتحدث كتب التاريخ[2].

وكانت رقابتهم على الأمة صارمة، وكانوا يأخذون الرعية بالظن والتهمة، وكان ازهاق النفس الإنسانية، وقتلها والتمثيل بها من أهون الأمور لديهم، وليس غريباً عليك ما فعلوا بزيد بن علي بن الحسين، وما فعلوا بعبد الله بن الزبير بعده.

وبعد أن أقدموا على قتل الإمام الحسين عليه السلام وآله في فاجعة كربلاء كان خوفهم كبيراً من الأمة فكانت رقابتهم على الرموز السياسية بيّنة ليحولوا بينها وبين الاتصال بالأمة. وهذا ما حدث للإمام زين العابدين، إذ لم يعد ممكناً له الاتصال. بالأمة اتصالاً مباشرا عن طريق العمل السياسي، فلم يكن ـ والحال هذه ـ إلاّ الكلمة غير المباشرة والعمل غير المباشر، فكان اهتداء الإمام إلى أسلوب الدعاء البعيد عن المجابهة والعنف، وإن كان في واقعه وآثاره أشد عنفاً ومجابهة.

ومن الجدير بالملاحظة أن الأمويين استأنسوا لعمل الإمام هذا لأنهم لم يدركوا أبعاده، وظنوا أن أسلوب الزاهدين الذين فقدوا الأمل في التغيير. وكان من عادتهم أن شجعوا الزهاد من مثل عبد الله بن عمر والحسن البصري لأنهم لم يشجعوا الأمة على التحرك ضد الوضع المنحرف، كما أنهم لا يملكون رصيداً شعبياً بإمكانهم تحريكه حين يريدون.

وعلى الرغم من التغطية والترقّب الذي لجأ إليه الإمام كان الأمويون يتوجسون من أيّ تحرك له، وإلاّ بمَ نفسّر استدعاء عبد الملك بن مروان للإمام وحمله مقيداً بالسلاسل إلى الشام على ضعفه ومرضه؟[٣].

والذي نريد تأكيده هنا أنّ الإمام لم ينعزل عن الأحداث بل كان يراقبها ويحاول أن يؤثر فيها مغتنماً الفرص المناسبة فحين استنجد به الحكم في قضية سك النقود وتنظيم الاقتصاد الإسلامي أسرع الإمام بإرسال ولده محمد الباقر إلى الشام لمعالجة الحالة الطارئة، لأن الأمر كان يتعلّق بهيبة الدولة الإسلامية أمام الدولة الرومانية المنافسة[٤].

فحين يتعلق الأمر بالإسلام فإنّ الإمام يبادر إلى النّصرة ويدعو الأمة إلى حماية الإسلام والدفاع عنه حتى ولو كان الأمر في ظل الحكم الذي لم يلتزم بقواعد الإسلام، كما يراه الإمام. فهذا دعاؤه لأهل الثغور، وهم الجند الذين يدافعون عن حدود الدولة الإسلامية يشف عن صدق في التوجّه وحرارة في الدعاء للمقاتلين، كما تلاحظ في هذا المقطع من الدعاء: (اللهمّ صل على محمد وآله، وحصّن ثغور المسلمين بعزّتك، وأيّد حماتها بقوّتك، وأسبغ عطاياهم من جِدتِك. اللهم صل على محمد وآله، وكثّر عدتهم، واشحذ أسلحتهم، وأحرس حوزتهم، وامنع حومتهم، وألّف جمعهم، ودبّر أمرهم، وواترْ بين ميرهم، وتوحّد بكفاية مؤنهم، واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، والطف لهم في المكر...)[٥].

بل إنه ليدعو بالصدق والإخلاص نفسه إلى من يتولّى رعاية شؤون المقاتلين في عيالهم، ومن يمدّهم بالمال والسلاح ومن يشكل خطاً دفاعياً خلفياً للمجاهدين، فيقول: (اللهمّ ومن خَلَفَ غازياً أو مرابطاً في داره، أو تعهد خالفيه في غيبته، أو أعانه بطائفة من ماله أو أمدّه بعتاد أو شحذه على جهاد أو أتبعه في وجهه دعوة، أو رعى له من ورائه حرمة، فأجرِ له

مثل أجره وزناً بوزن، ومِثْلاً بمثْل، وعوّضه من فعله عوضاً حاضراً يتعجل به نفعَ ما قدّمَ وسرورَ ما أتى به، إلى أن ينتهي به الوقت إلى ما أجريت له من فضلك. وأعددت له من كرامتك...)[٦].

وفي هذا إغراء، أيُّ إغراء للأمة على الجهاد أو تمكين المجاهدين برعاية شؤون أهليهم. والإمام يفعل هذا على الرغم من أنّ الانتصارات العسكرية آنذاك كانت توظف لصالح تثبيت أركان الحكم الظالم. ولكنها المسؤولية الشرعية والموقف الفكري والعاطفي المتولد من هذه المسؤولية.

الموقف السياسي:

إن حجم التحرك للعامل في الحقل السياسي تمليه الظروف المحيطة والضغوط المسلطة عليه. وهذا ما كان من الإمام، إذ لم تسمح له الظروف بأكثر مما تحرك. فقد أدرك أنّ قبضة السلطة كانت قوية، كما أدرك أن الأمة سرى في جسمها الانحراف ولم تكن مهيأة لمجابهة الحكم بالاقدام على التضحية بالمال والنفس. فلابدّ من فترة من التربية، ولابدّ من جعل الأمة تجني حصاد رضوخها واستكانتها. لتتحرك بعد ذلك عن قناعة واحساس بحجم الظلم والاستبداد.

يقول الإمام (.. فنظرتَ ياإلهي إلى ضعفي عن احتمال الفوادح، وعجزي عن الانتصار ممن قصدني بمحاربته، ووحدتي في كثير عدد من ناوأني..) من الدعاء التاسع والأربعين.

حيث يتحدث الإمام عن قلّة ناصريه ووحدته، وانصراف الأمة إلى شؤون الدنيا، وثقل التضحية وصعوبتها في نفوس أفرادها. ولا يكفي هذا الولاء العاطفي الذي لا يترجمه تحرك واعي وعمل جهادي. فلابدّ (أن تتحول هذه الأعداد العاطفية التي تحمل صفة الكم إلى أعداد واعية تحمل

صفة النوع وخصوصاً بعد أن نشأت أجيال مائعة في ظل الانحراف، ولم يعد تسلم الحركة الشيعية للسلطة محققاً للهدف)[٧].

وفي هذا السياق نريد أن ندفع وهماً سادَ لدى كثير من الناس مضمونه أن الإمام ألقى الحبل على الغارب وترك العباد إلى ربِّ العباد دون أن يحدِّد مسؤوليته أو يحرض الأمة ويجعلها أمام مسؤوليتها. وبتعبير آخر أن الإمام تخلى عن العمل السياسي ورأى عدم جدواه. وهذا يعني أنه تخلى عن دور القيادة والإمامة والتوجيه، وترك الأمة وحدها بين ظلم الحكام وظلم النفوس اليائسة المستسلمة.

وهذا في واقع الأمر إفراغ للإسلام من محتواه السياسي، وإفراغ للحركة الشيعية من محتواها الثوري الرافض للظلم والانحراف منذ بداياتها. فالتشيع اتجاه سياسي في ظل الإسلام يتبنى المحافظة على القيادة الشرعية لتمارس عملية التغيير والبناء (فليس من الممكن أن نتصور تنازل الأئمة عن الجانب السياسي إلاّ إذا تنازلوا عن التشيع للإسلام)[٨].

وربما امتد هذا الفهم إلى أيام الناس هذه، حيث نسمع ببعض الاتجاهات التي تدعو إلى ترك العمل السياسي اقتداءً بالإمام السجاد وغيره من الأئمة عليهم السلام. وهذا فهم خاطئ للعمل السياسي، وتفكير يهدف إلى التخلي عن حماية الإسلام والدفاع عنه. فلا أدري كيف يتقدم المسلم إلى الشهادة والموت في سبيل الله، إذا هو أحجم عن مرحلة أولى من مراحل الجهاد، وهي المرحلة الفكرية والسياسية، وهي أقل ثمناً من تضحية بالدم والنفس؟

والذي أراه أنه اختلافٍ في درجات التحرك ونمط التحرك السياسي، وليس رفضاً للتحرك ونبذاً له حتى ليتحوّل إلى مبدأ مُسالم للحكام عدلوا أو ظلموا.

فالظروف التي رافقت استلام الإمام علي للسلطة جعلته يتحرك ولا يرفض استلام السلطة رفضاً مطلقاً، فهو القائل (أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ولولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يُقارّوا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيْتُ حبلها على غاربها، ولسقيتُ آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دُنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز!!)[٩].

فالإمام عليه السلام يتحدث عن توفر الشرط الأساسي للتحرك العملي، وذلك بوجود الناصر، كما يتحدث عن الهدف من العمل السياسي نفسه، فلم يكن لذات العمل السياسي ولكن لتحقيق العدل ونصرة المظلوم، وهذا الهدف يجعل للحياة نفسها قيمة غير عادية، وبدون هذا الهدف تصبح الحياة ـ كما قال الإمام ـ أهون من عفطة عنز حقاً!!

والإمام الحسين يتحرك بعد قراءته للخارطة السياسية بعد وفاة معاوية، وبعد أن أقيمت عليه الحجة بورود رسائل العراقيين واستعدادهم لرفض الحكم الأموي والتمهيد لقيام الحكم الشرعي بقيادته. وقد كانت الأمة في غير العراق متهيئة للانقضاض على الحكم الأموي أيضاً بعد سماعها بتولي يزيد بن معاوية للخلافة.

فكان أن تحرك، ولا يهمنا كيف كانت النتائج. فالمهم أن التحرك كان على ضوء الظروف الموضوعية التي لم تكن تسمح بلحظة من الصمت أو المداراة.

أما وإن الأمويين قمعوا الثورات بالقسوة والعنف، ومثّلوا بالأجساد، وداسوا مقدسات الأمة، وكانوا على استعداد تام للقيام بأفظع مما قاموا به حتى ولو أدّى إلى التخلي عن الإسلام نفسه!! ثمّ إن الأمة ألجم لسانها الرعب وعصبَ الخوف قلوبها بالشوك، فاستكانت ورضيت بالذل رغبة

بالحياة، مجرد الحياة.

أما وإن الأمر على هذه الحال، فماذا يُراد من الإمام أن يقوم به، وما هو حجم التحرك الذي يفترض أن يقدره؟!

لقد عاد الإمام إلى ثوابت العقيدة الإسلامية، إلى فهم التوحيد الذي قضى الرسول صلى الله عليه وآله ثلاثة عشر عاماً في مكة وهو يرسخ أركانه ويقيم أسسه. عاد الإمام إلى هذه القاعدة ليذكر الأمة بالميثاق الذي عقدته مع بارئها، ميثاق التوحيد، الذي يقتضي أن تكون له ثماره وانعكاساته في العمل، بكل ما للعمل من أبعاد في الحياة، ومن ضمنها البعد السياسي.

كان يذكرها (بالواجبات) التي ينبغي أنت مؤديها إزاء خالقها ودين خالقها، وليس بالحقوق التي تجنيها وتستفيد بها من الإيمان. بمعنى أنه كان يضعها أمام مفهوم العطاء للإسلام والتضحية للإسلام، وليس الانتفاع الدنيوي نتيجة الانتماء للإسلام. وهذا ما تجسده رسالته الخالدة الموسومة بـ(رسالة الحقوق) وهي تعني حقوق الدين والواجبات التي يفرضها الدين، وليس الأرباح التي يجنيها المسلم من الدين!!

كان يذكر الأمة دائماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: (التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره. إلاّ أن يتقي تقاة قيل: وما تقاته؟ قال: يخاف جباراً عنيداً أن يفرط عليه أو أن يطغى)[١٠].

ونبذ كتاب الله أمر عظيم، مما يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمراً عظيماً أيضاً!! إلاّ أن يخاف جباراً طاغية، فعند ذلك ينحني للعاصفة ليدخر حياته لفرصة أخرى ومرحلة من الصراع وقول الحق مرّة أخرى.

أما موقف الإمام من الثورات التي حدثت ضد الأمويين في حياته فلا

أعتقد إلاّ كونه موقفاً إيجابياً، ولكنه لم يكن مُعلناً وصريحاً أمام الحكم الأموي، خاصة بعد تكرر تجارب الفشل في كثير من الثورات، وكأن الإمام يريد ليهيّئ لمراحل قادمة تكون فيها درجة النجاح أكبر وأضمن.

وبناءً على هذا لا أعتقد أن موقف الإمام من ثورة المختار الثقفي بالكوفة كان سلبيّاً، ولا أكاد أصدق هذا الخبر الذي يرويه ابن سعد في الطبقات الكبرى [... انه كان ينهى عن القتال، وأن قوماً من أهل خُراسان لقوهُ فشكوا إليه ما يلقون من ظلم ولاتهم فأمرهم بالصبر والكفّ، وقال: إني أقول كما قال عيسى عليه السلام: (إن تعذبهم، فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم، فإنّك أنت العزيز الحكيم)][11].

هل يمكنك أن تتصور الإمام وهو الذي فهم الإسلام كما فهمه أبوه الحسين وجده علي وجده رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، هل يمكنك أن تتصور أن يصدر عن فهم للإسلام كفهم المسيحيّة في تلك المرحلة الخاصة من تاريخ الدعوة إلى الدين والتوحيد؟! إذ كانت مرحلة تذكير ووعظ فقط، ولم تكن مرحلة جهاد وحمل للسلاح بوجه الظلم.

ثم إن دلالة الاستشهاد في الآية جاء على غير وجهه الطبيعي، لأن منطق الآية يدل على الموقف في يوم القيامة حيث يعذب الله الكافرين أو يغفر لهم. أما وأن الحكام مسلمون وأن الرعية مسلمة، فكيف يدعو الإمام هذه الرعية إلى السكوت عن ظلم ولاتها وجورهم؟!

إن أقل ما يمكن أن يصدر من الإمام هو السكوت أو قول كلمة محرضة بطريقة ثورية. أما وأن يوطّئ أعناق الأمة للرضا بالظلم، اللهمّ فلا!! فهذا ما لم تعوّدنا عليه مدرسة آل البيت، وإنما سمعناه من المدارس التي أنشأها الحكم الأموي نفسه، من المرجّئة الذين يسكتون عن مظالم الأمويين، بل ويدعون الناس إلى الرضا بهذه المظالم على أن هذا الأمر قدرٌ

مقدور، ولا راد لحكم الله وقضائه الذي جاء بهؤلاء الظالمين لحكم الأمّة!!

الظلم والظالمون:

للظلم في الإسلام مفهوم عام يتسع لكل تجاوز على حق من حقوق العبوديّة، وكل حق من حقوق الناس بل ومن الظلم ما يكون لنفس الإنسان ذاته. وهذا ما يرد في القرآن بالمعاني الثلاثة: الظلم بمعنى الكفر، والظلم الاجتماعي وظلم النفس.

وقد اتخذ موضوع الظلم والعدل طابعاً مذهبياً وسياسياً وفلسفياً في تاريخ الإسلام حتى سمي المعتزلة والشيعة بأهل العدل لأنهم يقدمون العدل على التوحيد في أصول الدين.

ونظراً لاهتمام القرآن بالعدل الاجتماعي وحديثه الدائم عن الظلم والظالمين في التاريخ، فقد بلغ ذكرهُ لمفردة الظلم ومشتقاته أكثر من مائة وثمانين مرة[١٢].

ونحن نقف في دراستنا لأدعية الصحيفة. ولموضوع الظلم فيها، عند الظلم السياسي خاصة، لأنه مرتبط أشد الارتباط بطابع هذا الفصل.

نقرأ الأدعية فنجد الإمام عليه السلام يكثر من التعوذ من ظلم السلطان وجبروته، فيقول (اللهم صل على محمد وآله، واكفنا حدّ نوائب الزمان، وشرّ مصائد الشيطان، ومرارة صولة السلطان)[١٣] ويسأله تعالى ألا يكون فتنة للظالمين من السلاطين، وهو يعبر عن دعاء المؤمنين في القرآن حيث يقولون: (ربّنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا)[١٤]، أي أن الكافرين والظالمين يفتتنون بهم، ويظنون أنهم على حق حين يتمكنون من المستضعفين ويقولون لو كان هؤلاء على حق لما أصيبوا. كما يفسّر الزمخشري[١٥].

ولهذا ترى الإمام يقول: (.. أو يتهضمنا السلطان...)[16] أي أننا نكون ضعفاء موضع هضم وظلم من لدن السلطان.

وكان عليه السلام، كثير الدعاء على الظالمين الذين يجورون عليه، وينالون منه، فيقول: (يا من لا يخفى عليه أنباء المتظلمين، ويا من لا يحتاج في قصصهم إلى شهادات الشاهدين ويا من قربت نصرتُه من المظلومين، ويا من بعد عونه عن الظالمين. قد علمتَ يا إلهي، ما نالني من فلان بن فلان، مما حظرت وانتهكهُ مني مما حجزت عليه. بطرا في نعمتك عنده، واغترارا بنكيرك عليه اللهم فصل على محمد وآله، وخذ ظالمي وعدوّي بقوتك وافلل حدّه عني بقدرتك، واجعل له شغلا فيما يليه، وعجزا عما يناويه...)[17].

أترى أن هذا النوع من الظلم يكون ظلماً غير سياسي؟ أترى هذا الظالم يكون غير عبد الملك بن مروان أو هشام بن عبد الملك أو غيرهما من الحكام والولاة الجائرين؟ إنّ لهجة الدعاء وحدّته وصدقه البادي ليظهر أن الإمام مضيّق عليه، محاط بظلم. ومما يؤكد هذا قول الإمام في الدعاء نفسه (.. وأعذني من شر كلّ من نصب لرسولك وأهل بيته حربا من الجنّ والإنس!!) وقد علمنا موقف الحكم الأموي الجاهلي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن آله وصحبه السائرين على منهجه من أمثال أبي ذرّ، وحجر بن عدي بن حاتم الطائي، ورشيد الهجري رضوان الله عليهم.

وفي أدعية الإمام شكر كثير لله على ردّ كيد الأعداء والظالمين، وانظر معي لتكوّن فكرة عن طبيعة هؤلاء الأعداء، هل هم من الأعداء الذين نختلف معهم خلافاً عاديا حول شأن من شؤون الحياة، أم هم أعداء مبدأ وعقيدة؟! وهل هم مقتصدون في ظلمهم وعداوتهم، أم بالغون حدّ الإسراف والطغيان في ظلمهم، بحيث لا يرعون لله ذمة ولا عهدا؟!

يقول الإمام شاكراً (.. فكم من عدوٍّ انتضى علي سيف عداوته، وشحذ لي ظبة مُديتِهِ، وأرهف لي شبا حدِّهِ، وداف لي قواتل سمومِهِ، وسدّدَ نحوي صوائب سهامه، ولم تنم عني عينُ حراسته، وأضمر أن يسومني المكروه، ويجرّعني زُعاف مرارته.... وأرصد لي بالبلاء فيما لم أُعمل فيه فكري، فابتدأتني بنصرك، وشددْت أزري بقوتك، ثم أفللت حدّه، وصيّرتَهُ من بعد جمعِ عديد وحدَه، وأعليتَ كعبي عليه، وجعلتَ ما سدّدهُ مردوداً عليه، فرددتَهُ لم يشفِ غيظه، ولم يَسكنْ غليله. وقد عَضَّ على شنواه، وأدبر مولّياً قد أخلفت سراياه.

وكم من باغ بغاني بمكائده ونصب لي شرك مصائده، ووكّل بي تفقدَ رعايته، وأضبأ إليَّ اضباء السبُع لطريدته،....)[١٨].

أترى يكون هذا الذي له من المكائد ما لا يقوى عليه الإمام، وله من البغي ما لا قبل للإمام به؟ أيكون هذا غير الخلفاء الأمويين وولاتهم مثل مروان بن الحكم، وهشام بن إسماعيل؟! الذي أشرنا إلى قصته مع الإمام؟!

ثم من هذا الذي يملك العيون والمراقبين وينصب الإشراك حول الإمام ويترصده كما يترصد الأسد لفريسته كي ينقضّ عليها بشراهة وقسوة؟ من يكون هذا غير الحاقدين على آل الرسول وعترته الطاهرة؟!

وبعد هذا الذي رأيناه من دعاء الإمام على الأعداء والظالمين نقرأ لهجة أخرى عند الإمام في أدعيته لا تنسجم ـ في الظاهر ـ وروح الأدعية السابقة التي كان الإمام يسأل الله فيها أن يمحق الظالمين ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويمكنه منهم، ويشفي غيظه وغليله. في هذا النوع الجديد من الأدعية نرى رحمة ورأفة ودعاء لمن ظلمه بالمغفرة. انظر إلى هذا الدعاء: (وأيّما عبد نال مني ما حظرتَ عليه، وانتهكَ مني ما حجزت عليه، فمضى

لظلامتي ميتاً، أو حصلت لي قبله حيّاً، فاغفر لي ما ألم به مني، واعفُ له عما أدبر به عني، ولا تقِفْهُ على ما ارتكب فيَّ، ولا تكشفه عما اكتسب بي، واجعل ما سمحتُ به من العفو عنهم، وتبرّعتُ به من الصدقة عليهم، أزكى صدقات المتصدقين، وعوّضني من عفوي عنهم عفوك...)[١٩].

فكيف نفسّر هذا الموقف المتناقض في ظاهره؟ إذ نجد حرارة في الدعاء على الظالمين هناك، وحرارة ـ كذلك ـ في الدعاء للظالمين وطلب المغفرة والرحمة لهم، والتبرع بالعفو عنهم رغبة في ثواب الله ورضوانه وعفوه، في موضع آخر؟!

ولإزالة هذا اللبس الظاهر لابدّ أن نفرق بين ظلمين، الظلم الأول يصدر من أخ لك يتجاوز عليك في غيبة أو حقوق مالية، أو يتجاهل قدرك أو يتكبّر عليك إلى غير ذلك من التجاوزات التي تحدث بين الأفراد. وهذا أمر كائنٍ في المجتمع الإسلامي، لأن الناس في هذا المجتمع ليسوا ملائكة بل بشراً من لحم ودم، يخطئ بعضهم ويصيب الآخر. ولكن باب التوبة مفتوح وباب العفو مفتوح. والكمال المطلق لله وحده، وإلاّ ما كان هناك ثواب لتائب، ولا كان هناك ثواب لتسامح في حقه، ومتجاوز عن سيئات أخيه.

ويبدو أن هذا النوع من الظلم هو الذي يتجاوز عنه الإمام، فيدعو لمن ظلمه بالرشد والإنابة، ويجعل ذلك وسيلة لرحمة الله وثوابه.

أما النوع الثاني من الظلم، فهو الظلم السياسي، حيث يمارس الحاكم أو الوالي الظالم شتى صنوف القهر والاستبداد بحق الأفراد والجماعات، ويحتكر مال الأمة ويجعله دولةً بين أقاربه وأنصاره وجلاديه، كما فعل الأمويّون بخصومهم من أهل البيت والمسلمين عامة ممن وقف في وجه ظلمهم، حيث استباحوا المدينة، وهدموا الكعبة وقتلوا خيرة الصحابة ثم تجرأوا على قتل الإمام الحسين عليه السلام سبط الرسول وقرّة عينه.

هـذا النوع من الظالمين هو الذي يطلب الإمام من الله النصرة في دحضه والوقوف في وجهه، ويرجو من الله أن يفلَّ حده، ويكسر شوكته، ويرد كيده إلى نحره، لأنه ظلم جماعي، وظلم لمبدأ وعقيدة يريد أن يطمسها بقتل رموزها وممثليها الحقيقيين ليخلو له الجو، فلن يبقى إلاّ أهل الدنيا الذين يسارعون إلى طاعة السلطان الظالم رغبة في المطامع أو رغبة في السلامة.

ولا أظن أن الحكام الظالمين، أمثال يزيد بن معاوية أو الحجاج بن يوسف، أو هشام بن عبد الملك من النوع الذين لا يعرفون ما يفعلون، ولا من النوع الذين يرغبون في التوبة والكف عن أذاهم للناس وللعقيدة، حتى يدعو لهم الإمام بالمغفرة والرحمة.

هـذا هو الفارق بين النوعين من الظلم والنوعين من الظالمين، النوع الأول الذي يأتي الذنبَ ويتوب عنه أو يتوقع أنه يرغب في التوبة، وهو ذنب فردي مرتبط بطبيعة النفس الإنسانية الأمارة بالسوء التي تأتي باللّمم من الفواحش. والنوع الثاني الذي يقترف الجرائم والكبائر ويصادر حقوق أمة، ويقتل عقيدة أمة، ويقتل ورثة الأنبياء من الأئمة والعلماء، ويتطاول كبرياءً على الله.

وبسبب من هذا الفرق كان الإمام يدعو للنوع الأول بالمغفرة والتوبة، ويدعو على النوع الثاني بالتبار والهلاك.

ويحضرني في هذا المجال رأي للزمخشري في تفسير قوله تعالى: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) [٢٠] حيث يرى أن دلالة السياق توحي بالثناء والمدح لهؤلاء المؤمنين الذين يقتصّون من ظلمتهم، لأن في القصاص إشعاراً بعزة المومن وكرامته، وتأديباً للظالمين حتى لا يجرؤوا على ظلم آخر[٢١]. ويمكن النظر في هذه الدلالة إلى قوله تعالى في سورة الشعراء (... وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا) [٢٢]. وفي

الحديث النبوي الشريف: «من دعا على ظالم فقد انتصر»[٢٣].

وبهذا فإنّ الإمام زين العابدين حين يدعو على الظالم الذي يجوز في ظلمه، ويتعدّى ظلم الإمام نفسه إلى ظلم الأمة وعقيدتها، فإنه يتجاوب والتوجيه القرآني والنبوي ويسير في خطهما.

وهذا موقف إيجابي من الظلم يأتي بالدرجة الثانية بعد مُجابهة الظلم والأخذ على يده بالقوة. فليس أقل من اللسان حين تعجز اليد عن المقاومة، وليس أقل من القلب حين يعجز حتى اللسان عن النطق!!

معاونة الظالمين:

ونجد في أدعية الصحيفة استعاذةً وبراءةً من الظالمين، ودعوةً إلى عدم معاونتهم ومظاهرتهم، لأن في هذا تأييداً لأعمالهم عَلناً أو ضمناً، وهذا منهج إسلامي يهدف إلى تربية الأمة على نبذ الظلم وبناء المجتمع العادل الذي ينشده الإسلام. وهذا ما نطق به القرآن (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار) [٢٤]. والركون الميل اليسير من مصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم والرضا بأعمالهم والتشبّه بهم... وإذا كان وعيد الله بالنار لهؤلاء الراكنين لهم، فكيف بالنار التي يوعدُ بها الظالمين أنفسهم؟![٢٥].

ولهذا تسمع الإمام السجاد يدعو (ولا تجعلني للظالمين ظهيرا) [٢٦]، ويبرأ إلى الله من أن يعضد ظالماً أو يعينه على عمله بقولٍ أو عمل، حيث يستعيذ الإمام من سيئات الأخلاق ومذموماتٍ الأفعال، ويجعل معاونة الظالمين منها، فيقول (... أو أن نعضدَ ظالماً) [٢٧].

وهناك طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تنكر على المؤمنين أن يوالوا الظالمين أو يعينوهم، فقد مرّت علينا آية (الركون) للظالمين. وتجد مثل هذا في سورة المجادلة في الآية الأولى، وفي سورة الممتحنة في

الآيةالأخيرة وفي غيرهما من آيات الكتاب الحكيم. وفي الحديث الشريف جاء قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «فلا تعينوهم على ظلمهم»[٢٨]، وقوله «من أعان قومه على ظلمٍ، فهو كالبعير المتردي ينزع بذنبه»[٢٩].

وجاء النكير شديداً على العلماء والفقهاء المدارين للسلطان الظالم الراضين بفعله. فعن أبي عبد الله عليه السلام. قال، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الفقهاء أبناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا. قيل يارسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وما دخولهم في الدنيا، قال: اتّباع السلطان. فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[٣٠].

وفي وصية الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد قوله: «ياكميل، لا تطرق أبواب الظالمين للاختلاط بهم والاكتساب معهم، وإياك أن تعظمهم، وأن تشهد مجالسهم بما يسخط الله عليك وإن اضطررتَ إلى حضورهم فداوم ذكر الله، والتوكل عليه، واستعذ بالله من شرورهم، وأطرق عنهم، وأنكر بقلبك فعلهم...».[٣١]

والإمام زين العابدين يرسل موعظة بليغة لمحمد بن مسلم الزُّهري حين عرف بتردده على الحكام الأمويين. ولا أعتقد أنّ الزهري قد استمر في الاتصال بالحكام بعدها. يقول الإمام للزهري: «... فانظر أيَّ رجلٍ تكون غداً إذا وقفتَ بين يدي الله، فسألك عن نعمه عليك، كيف رعيتها، وعن حججه عليك كيف قضيتها، ولا تحسبن الله قابلاً منك بالتعذير، ولا راضياً منك بالتقصير. هيهات هيهات ليس كذلك. أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: (لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونَهُ)، واعلم أنّ أدنى ما كتمت وأخف ما احتملت أن آنست وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغي بدنوك منه حين دنوتَ، وإجابتك له حين دُعيت. فما أخوفني أن تبوء بإثمك غداً مع الخونة، وأن تسأل عمّا أخذتَ بإعانتك على ظلم الظلمة.

أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسلّماً إلى ضلالتهم، داعياً إلى غيّهم، سالكاً سبيلهم يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهّال إليهم.

فلم يبلغ أخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلى دون ما بلغت من إصلاح فسادهم. واختلاف الخاصة والعامة إليهم. فما أقلَّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك؟! وما أيسر ما عمروا لك! فكيف ما خربوا لك؟!

فانظرْ لنفسك، فإنه لا ينظر لها غيرك، وحاسبْها حساب رجل مسؤول»
٣٢.

وقد أثبتنا هذه المقاطع من الوصية لأهميتها وحرارة لهجتها وإخلاص النية والنصيحة فيها، وبيان مخاطر الاتصال بالحكام الظالمين على الأمة وعلى الفرد نفسه في الدنيا والآخرة.

فالإمام يحذّر الزهري من الطريق الذي سلكه، وهو طريق يخالف المنهج الذي دعا إليه القرآن. حيث دعاهم إلى بيان أحكام الله ومضامين كتب الله التي تنهى عن الظلم وتكثر من الوعيد للظالمين. ويقول له إنه لم يأخذ إلاّ القليل الزائل منهم، في حين أنهم أخذوا الكثير منه. لقد اشتروا ضميره، وعرضوه لنقمة الله.

ثم إن الإمام يقول للزهري إن الخدمة التي قدَّمتها للحكام الظالمين برفقتهم ومجالستهم، كانت كبيرة لم يستطع حتى الوزراء والأعوان أن يقدموها لهم، وهذه الخدمة هي ترويض الناس وتحسين الصمت والسكوت على باطل الحكام، لأن أغلب الناس يثقون بالعلماء، فإذا ما رأوهم مع الحكام حسبُوا أن الحكام أهل صلاح وتقوى، فلو لم يكونوا كذلك لما سار معهم العلماء، ولما تعاونوا معهم.

انظر أيةٍ جريمة هذه التي قدم عليها العلماء بتحسين وجه الظلم وجعله سائغاً مقبولاً لدى الناس!!

الموقف من المظلومين:

والوجه السياسي الآخر من الحديث عن الظلم والظالمين في الصحيفة السجادية، حديث الإمام عن المظلومين ووجوب نصرتهم وموالاتهم والدعاء لهم. وكذلك كان الإمام يفعل بعد فضح جرائم الظالمين. وتشديد النكير عليهم.

والإمام يستعيذ بالله من أن يخذل المظلومين أو يتوانى عن نصرتهم. ففي سياق الاستعاذة من مذمومات الأفعال. يقول: «... وأن نخذلَ ملهوفاً..»[٣٣].

والإمام علي بن الحسين يستجيب في هذا للتوجيه القرآني والنبّوي. فعن البرّاء بن عازب قال: «أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بسبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز وإجابة الداعي، وإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، ونصرة المظلوم»[٣٤].

وفي كتب الأسانيد أبواب مثل «باب الانتصار من الظالم، و(باب نصرة المظلوم) وفيها أحاديث كثيرة عن ضرورة مواجهة الظالم، ووجوب نصرة المظلوم. وليس من همنا في هذا المقطع أن نستطرد في الحديث عن هذه القضية، بل حسبنا أن نشير إلى أن الإمام في الوقت الذي يدعو إلى مقاومة الظالم، يدعو كذلك إلى نصرة المظلومين والضعفاء والملهوفين...

والملاحظ أن لدى الإمام حساسية خاصة من الظلم والظالمين، فتراه يدعو لنفسه أن لا يَظلم ولا يُظلم، ولا يعتدي ولا يُعتدى عليه فيقول: «اللّهم فكما كرهتَ لي أن أُظلم، فقني من أن أظلِم...»[٣٥]. وهذا فيض من

التوجيه النبوي الداعي «... وأعوذ بك أن أظلم أو أعتدي، أو يُعتدى عليّ» [٣٦]. فالمدرسة واحدة والمربّي واحد والمؤدب واحد.

فالسياسي من وجهة نظر الإسلام ليس شيطاناً (ميكافيلياً) يظهر الرحمة إذا كان محكوماً أو مظلوماً، ويظهر القسوة إذا كان حاكماً، فتكون لديه الغاية تبرر الوسيلة. السياسي المسلم كالعالم الرباني في الخشية من الله ومعرفة حقوقه والحدب على مصالح الناس والتواضع لهم. وللإمام توجيه خاص في (رسالة الحقوق) عن حق الرعية على الحاكم، كيف يسوسهم وكيف يدفع غائلة الظلم والعَسْف عنهم[٣٧].

الولاية:

وتعكس الصحيفة نظرية أهل البيت السياسية بشكل واضح خاصة في دعاء يوم عرفة وهو أطول دعاء في الصحيفة على الإطلاق. وكأن الإمام كان يُراعي الجانب النفسي في ذلك الدعاء حيث يكون الحاجِ في ذلك اليوم وعند جبل الرحمة من أقرب الناس إلى الله. ويكون مستعدا لسماع الدعاء خالي القلب من كل همٍ دنيوي وقد ادّخر الإمام له قضية الإمامة. وهي حقيقة كبرى في الإسلام، ليوحي له بأنَّ الإسلام لا تنفصم عنده العبادات عن المعاملات، ولا قضايا الروح عن قضايا الحياة، فاختار له هذه اللحظات العالية الاحساس، ليقرن بين الاحساس العالي بالخبوت لله والتبتل إليه في يوم عرفة، والاحساس العالي بشؤون الحياة السياسية حيث تكون الإمامة والقيادة سبيلاً إلى تعبيد الناس لله وحده، والسير بهم إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية.

وأريد أن أثبت لك الفقرة التي تتعلق بالجانب السياسي من دعاء عرفة الطويل: «ربِّ صلّ على محمد وآله... وصلِّ على أطايب أهل بيته الذين

اخترتهم لأمرك، وجعلتهم خزنة علمك، وحفظة دينك، وخلفاءك في أرضك، وحججك على عبادك، وطهّرتهم من الرجس والدنس تطهيرا وجعلتهم الوسيلة إليك، والمسلك إلى جنّتك.

اللهمّ إنّك أيّدت دينك في كلِّ أوان بإمام أقمته علماً لعبادك، ومناراً في بلادك بعد أن وصلتَ حبله بحبلك، وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذّرت معصيته، وأمرت بامتثال أوامره، والانتهاء عن نهيه، وألا يتقدّمه متقدّم، ولا يتأخر عنه متأخر. فهو عصمة اللائذين، وكهف المؤمنين، وعروة التمكين، وبهاء العالمين.

اللهمّ فأوزِع لوليكَ شكر ما أنعمت به عليه، وأوزعنا مثله فيه، وآته من لدنك سلطاناً نصيراً، وافتح له فتحاً يسيراً، وأعنه بركنك الأعزّ، واشددْ أزره، وقوِّ عضده، وراعه بعينك، واحمِه بحفظك، وانصره بملائكتك، وامدُدْهُ بجندك الأغلب، وأقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنن رسولك، ـ صلواتك اللهم عليه وآله ـ وأحي به ما أماته الظالمون من معالم دينك، وأجلُ به صدأ الجور عن طريقتك، وابن به الضراء من سبيلك، وأزل به الناكبين عن صراطك، وامحقْ به بُغاة قصدك عوجاً، وألن جانبه لأوليائك، وابسط يده على أعدائك. واجعلنا له سامعين مطيعين، وفي رضاه ساعين، وإلى نصرته والمدافعين عنه مكنفين، وإليك وإلى رسولك متقربين.

اللهم وصل على أوليائهم المعترفين بمقامهم، المتبعين منهجهم، المقتفين آثارهم، المتمسكين بعروتهم، المستمسكين بولايتهم، المؤتمين بإمامتهم، المسلمين لأمرهم المجتهدين في طاعتهم، المنتظرين أيامهم، المادين إليهم أعينهم»[٣٨].

وهذه المقاطع من دعاء عرفة تغنينا ـ تقريباً ـ عن المواضع الأخرى التي تعرضت لقضية الولاية والإمامة عدا دعاء يوم الأضحى، وهو يوم عام

لاجتماع المسلمين ليتأملوا وهم في لحظات عيدهم شؤون الأمة الكبرى، فلا يكون فرحهم الحقيقي إلاّ بتمكين شرع الله في واقع حياتهم.

ونودّ أن نشير إلى القضايا التي عرضها الإمام في دعاء عرفة مما له مسيسٍ صلة بالجانب السياسي في الدعاء.

أولا: يوضح الإمام منزلة أهل البيت ووظيفتهم في حماية شرع الله بعد رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فهم خزنة علم الله، وحفظة دينه، وخلفاؤه في أرضه.

ثانياً: بيان ضرورة الإمامة في الأرض، ودعوة الأمة إلى طاعة الإمام والسير معه لتحقيق العبودية لله من خلال إقامة حدود الله.

ثالثاً: الدعاء للأئمة من أهل البيت، وللحاضر منهم آنذاك بالنصر والتأييد والغلبة على الجائرين عن القصد، الظالمين للعباد.

رابعاً: الدعاء للسائرين على منهجهم إلى يوم الدين، والمعترفين بحقّهم والمنتظرين دولتهم التي تنصر المظلوم وتعيد المعالم التي درستْ من الدين.

هذه أمور أربعة من دعاء عرفة السياسي، بقي أن نشير إلى البراءة من أعدائهم «اللّهم العن أعداءهم من الأولين والآخرين، ومن رضي بأفعالهم وأشياعهم وأتباعهم»[٣٩] وهذا من دعاء يوم الأضحى.

كما نشير إلى حديث الإمام عن مظلومية أهل البيت وسرقة حقهم وظلمهم ومطاردة أنصارهم حتى غلب عليهم وعلى محبّيهم الخوف والتخفي، وهذا ما نشهده في دعاء يوم الأضحى أيضاً: «اللّهم وهذا المقام لخلفائك، وأصفيائك، ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزوها وأنت المقدر لذلك، لا يُغالَبُ أمرُك، ولا يُتجاوزُ المحتومُ من تدبيرك، كيف شئتَ، وأنّى شئت، ولما أنت أعلم به، غيرُ متَّهمٍ على خلقك، ولا لإرادتك حتى عاد صفوتُك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين

مبتزين يرون حكمكَ مُبدَّلاً، وكتابك منبوذاً، وفرائضكَ محرّفة عن جهات أشراعك، وسنن نبيِّك متروكة...»[40].

والإمام يفوّض الأمر إلى الله، فما حدث كان بعلمه وبعينه، وهو وحده المنتصر لهم الممكن لهم دينهم الذي ارتضى، الذاب عن دينه بهم المبين عن عدله في الأرض بقيام دولتهم المنقذ لاتباعهم بجعل يدهم العليا ويد الظالمين والكافرين هي السفلى بإذنه.

وفي سياق الدعاءين إشارة إلى أن يدعو كل واحدمنا ـ نحن الأنصار والاتباع ـ بأن يكون لنا حظ من النصرة بالقلب والكلمة والدم والمال والوقت، لأن الأمر أمر الله، وأمر شريعته، وليس أمر أشخاص يقدسون أو أمر مذهب معين يُراد إشاعة طريقته دون غيره. فمن كانت نيته لله، وجهاده لله، فهو لله وفي عين الله، ومن كانت نيته للدنيا ومطامع الدنيا، فهو وما نوى...

وفي آخر هذه الفقرة نود أن نعرض إلى التناقض والاضطراب الذي بدا في روايات ابن سعد في الطبقات الكبرى فهو يصور الإمام علي بن الحسين، مسالماً طائعاً لا يأمر بقتال موكلاً الأمر إلى الله دون تحرّك سياسي نابذاً لأي تمرّد على الظالم، بل موالياً لآل مروان[41]، ولكنه في آخر الروايات يروي ما يلي:

«... إن شيخاً سأل علي بن حسين: كيف أصبحتَ، أصلحك الله؟ فقال: ما كنتُ أرى شيخاً من أهل المصر مثلك لا يدري كيف أصبحنا. فأما إذا لم تدر أو تعلم فسأخبرك أصبحنا في قومنا بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، إذ كانوا يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأصبح شيخُنا وسيُدنا يُتقربُ إلى عدوّنا بشتمه أو سبه على المنابر.... إن لنا أهل البيت الفضل على قريش لأن محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم منّا، فأصبحوا

يأخذون بحقّنا، ولا يعرفون لنا حقاً، فهكذا أصبحنا إذا لم تعلم كيف أصبحنا!! قال: فظننتُ أنه أراد أن يُسمعَ من في البيت!!».[42]

وهذه الرواية تصور لنا الإمام رجلا موتورا مأخوذاً من حقه وحق أهل بيته، يريد أن يوصل صوته إلى «من في البيت»، يريد أن تسمعه الإمة، فتعرف الظلم الذي حاق بآل محمد بحيث أصبح يسبّ رأسهم على المنابر في الزمن الأموي الأسود، وكان ذلك لمدة خمسين سنة حتى دالت دولتهم، وذهب ريحهم.

وليس الأمر غريباً من ابن سعد، ولكن الغريب أن يتصور بعضنا أن الإمام تخلى عن رسالته القيادية وأنه ترك الأيام تجري بمقاديرها دون أن يحرّك ساكناً أو يوحي بثورة أو انتفاضة. والأمر تبدو غرابته علينا لأننا عرفنا منهج أهل البيت في حراسة دين الله والدعوة إلى تحكيمه في الأرض، واعتبار ذلك واجباً شرعياً في الأعناق، لأننا مسؤولون عنه يوم الأشهاد كلٌّ حسب طاقته وكفاءته وموقعه السياسي والعسكري والاجتماعي والمالي والفكري، ولكن المحصلة تصب في التمهيد لقيام شرع الله في أرضه وبين عباده.

ننتهي من هذا كله إلى القول بأن الخطاب الروحي المتمثل بالأدعية السجادية كان خطاباً سياسياً أيضاً، ولكنه جاء بصيغة الدعاء بناءً على الظروف الضاغطة آنذاك. فالأسلوب هو الذي تغيّر ولم يتغيّر الهدف، ولم يُسكت عن الحق، ولم يُنسَ الحق..

وإلى الله يصعد الكلمُ الطيّبُ، وعليه قصد السبيل.

الهوامش

[1] - ينظر الفصل الأول من البحث.

[2] - مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، ج٣، ص٦٩، ٧١.

[3] - حلية الأولياء، ج٣، ١٣٥، وكرامات الأولياء، ج٢، ص١٥٦، ومثير الأحزان، ص٢٣٧.

[4] - مقدمة الشهيد الصدر الصحيفة، طبعة دار الأضواء، ص (ك).

[5] - ٢٧ / ٩٤، والمير: الامداد في العتاد والغذاء.

[6] - نفسه.

[7] - الأئمة الاثنا عشر، عادل الأديب، ص ١٤٨.

[8] - نفسه، نقلاً عن بحث في الولاية.

[9] - نهج البلاغة، تحقيق د. صبحي الصالح، ص٥٠.

[10] - حلية الأولياء، ج٣، ص١٤٠.

[11] - ج٥، ص ٢١٦.

[12] - يُراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (ظلم).

[13] - ٥ / ٣١.

[14] - الممتحنة، ٥.

[15] - الكشاف، ج٢، ص ٨٤.

[16] - ٨ / ٣٩، وينظر: ٢٠ / ٦٩.

[17] - ١٤ / ٥١.

[18] - ٤٧ / ١٩٥.

انتضى السيف: سلّهُ. ظُبَّةُ المُدية: حدُّ السكين. الشبا: مفرد شباة. وهي نهاية الشيء، أي حدُّه. الزعاق: الماء المرّ، لا يطاق. عض على شواه: يئس عن تحقيق مراميه ومقاصده. أضبأ: لصق بالأرض، واستتر ليختل فريسته.

[19] - ٣٩ / ١٢٨.

[20] - الشورى، ٣٩.

[21] - ج٣، ص٨٦.

[22] - آية ٢٢٧.

[23] - رواه الترمذي، دعوات ٧٩. وفي حديث آخر «واجعلْ ثأرنا على من ظلمنا» رواه أحمد ٢ / ٣٤٣.

[24] - هود، ١١٣.

[25] - الكشاف، ج٢، ص١١٧ـ ١١٨.

[26] - ٤٧ / ١٨٦.

[27] - ٨ / ٣٩.

[28] - رواه ابن ماجة.

[29] - رواه الترمذى ٧٩، وأحمد ٢ / ٩٥.

[30] - أصول الكافى، ج١، ص٤٦.

[31] - تحف العقول عن آل الرسول، ص ١١٦.

[32] - نفسه، ص١٩٨. والزمخشري يروي جانباً طويلاً من الموعظة والرسالة دون أن ينسبها للإمام على بن الحسين عليه السلام، قال: «ولما خالط الزُّهري السلاطين، كتب له أخ في الدين...» ج٢، ص١١٨.

[33] - ٨ / ٣٩.

[34] - رواه البخاري، جنائز.

[35] - ١٤ / ٥٢.

[36] - أخرجه أحمد والحاكم. وينظر أحياء علوم الدين، للغزالي، ج١، ص٣١٩.

[37] - تنظر (رسالة الحقوق) في تحف العقول، ص ١٨٨.

[38] - ٤٧ / ١٧٠، ١٧٤.

[39] - ٤٨ / ١٩٠.

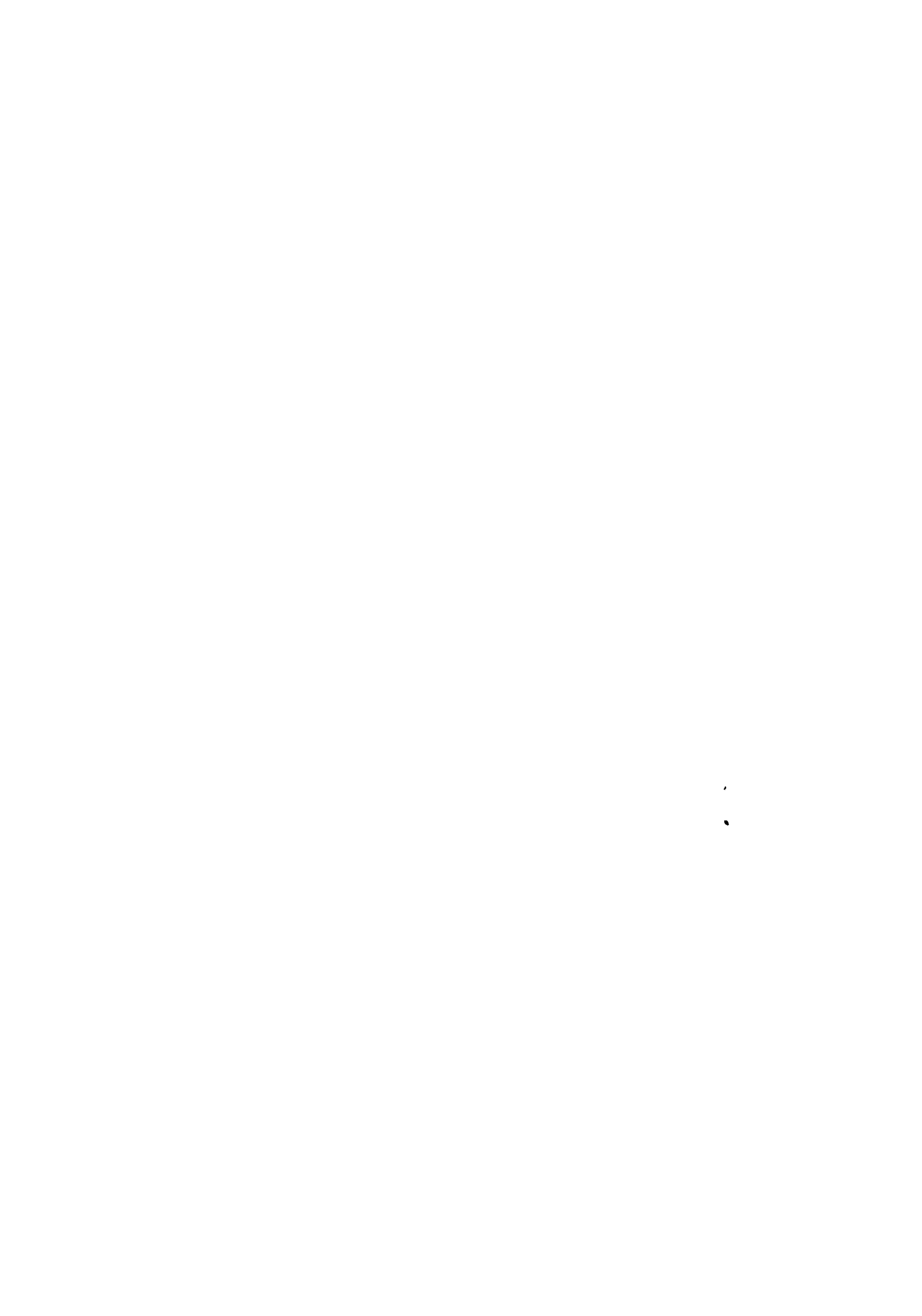
[40] - ٤٨ / ١٨٩.

[41] - الطبقات الكبرى، ج٥، ص٢١٥.

[42] - المصدر السابق، ج٥، ص٢١٩.

الفصل السابع

الصحيفة السجادية والنفس الأنسانية



ليس من شك في أن الصفحات السابقة فيها ما يمكن أن يعطينا صورة واضحة عن شخصيةٍ الإمام ونفسيته، ولكننا نريد في هذا الفصل أن نزيد هذا الوضوح وضوحاً بالحديث عن عاطفة الإمام وإحساسه. فلقد قيل هي الدراسات النقدية والأدبية، بأنّ العاطفة أوسع مجالاً لتوضيح ملامح الشخصية[1].

فالأثر الأدبي صورة معبرة عن شخصية صاحبه وهمومه النفسية، وليس من الأدب في شيءٍ ذلك الأثر الذي تبحث فيه عن شخصية صاحبه، فلا تجد لها أثراً ولا ملمحاً[2]، وهذا في غير الأدب الموضوعي كالقصة والمسرح.

بالإضافة إلى هذا سوف نقف عند أمرين آخرين، هما تمثيل الصحيفة للنفس الإنسانية عموماً، وأثرها العاطفي في نفوسنا.

تمثيل الصحيفة لشخصية الإمام ونفسيته:

الشخصية التي صوّرتها الصفحات السابقة شخصية إنسانية بلحمها ودمها، وليست نمطاً من الملائكة، ولكنها شخصية متفردة في طابعها لا تشبه الأعم الأغلب من الناس في عصره، بل وفي كل عصر. وهذا خلاصة للأفكار والمثل التي تؤمن بها الشخصية، فضلاً عن أثر المحيط الاجتماعي والسياسي وضغوطه.

فالشخصية التي رسمناها شخصية صادقة مع نفسها، صادقةٌ في التعبير عن حبها ومواجدها إزاء خالقها. فهي تقول مخاطبة بارئها: «اللهم إني أخلصتُ بانقطاعي إليك، وأقبلتُ بكلي عليك»[3]. وهي نفسية راضية مطمئنة واثقة بوعد الله، وواثقة بالمنهج الذي تتعامل به مع الله، وتتعامل به مع الواقع. فهي ترى ألا شرف ولا عزة إلاّ بطاعة الله والتوكل عليه «... فإنّ الشريف من شرفته طاعتُك، والعزيز من أعزته عبادتُك...»[4].

وهي شخصية يدل ظاهرها على باطنها، ومظهرها على مخبرها، فلا

تناقض ولا ازدواجية، كما هو الحال في كثير من الشخصيات الإنسانية، التناقض بين أقوالها وأفعالها، والازدواجية في الإيمان بالقيم. ومخالفتها بالسلوك!!

انظر إلى هذه الشخصية وهي تقبل على الوضوء، فقد روت كتب السيرة أن الأمام كان «إذا فرغ من وضوئه للصلاة، وصار بين وضوئه وصلاته أخذته رعدة ونفضة. فقيل له في ذلك. قال: ويحكم أتدرون إلى مَن أقوم، ومن أريد أن أناجي!!»[٥].

فإذا كانت حالته في وضوئه كذلك، فكيف إذا وقف بين يدي ربه وخاطبه بكلامه، واستغرق في السجود إليه؟!

وهي شخصية لا تحب الظهور بما تفعله في عبادتها أو إحسانها وتعاملها مع الناس، كما هو الحال في غالب الناس. فالإمام يتصدق سرا، ويقول: «إنّ صدقة السر تطفئ غضب الربّ عزّوجلّ»[٦]. وربما رماه بعض الناس بالبخل لأنهم لا يعلمون مقدار إنفاقه بالسر. قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: «كان علي بن حسين يُبخَّلُ، فلما مات وجدوه يقوّتُ مائة من أهل بيت بالمدينة في السر!!»[٧].

وكان يتعهّد الأيتام، ويحب صحبة المساكين، ويقول في دعائه: «اللّهم حبّب إليَّ صحبة المساكين، وأعني على صحبتهم بحسن الصبر»[٨]. ويدعو الله أن يعينه على العناية بالمحرومين والمحتاجين والملهوفين «... ومعاونة الضعيف وإدراك اللهيف»[٩].

وملمح بارز من ملامح شخصية الإمام هو الحزن وهو أثر من آثار ما رأى في فاجعة كربلاء. وقد أجاب ـ سلام الله عليه بنفسه عن ذلك الحزن البادي على وجههِ والبكاء الذي كان لا يفارقه فقال: «لا تلوموني، فإن يعقوب فقد سبطاً من ولده، فبكيٍ حتى ابيضت عيناه، ولم يعلم أنه مات، وقد نظرتُ إلى أربعة عشر رجلا من أهل بيتي يقتلون في غداة واحدة،

أفترون حزنهم يذهب من قلبي»[10]. وكان يقول: «فقد الأحبة غربة!!»[11]. وما أدراك ما الأحبة الذين فقدهم الإمام، والده الحسين عليه السلام، وعمّه العباس وأخوه عليّ الأكبر وأولاد عمومته وعشيرته رضوانٍ الله عليهم فقد قتلوا ظلما، وحرموا شرب الماء الذي جعله الله مشاعا للناس مؤمنهم وكافرهم... بينما يُحرم منه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة!!

وقدٍ عاش الإمام بعد فاجعة كربلاء خمسة وثلاثين عاماً فلم يُرَ ضاحكا.

كان الحزن بسبب من هذا وبسبب آخر هو ذاك الانحراف الذي سارت فيه الأمة بعد أنٍ بدأه حكامها ورعاتها، وكان نتيجة ذلك أن أصبح الإسلام الحقيقي غريبا في دياره وبين أهله، وأصبحت الحياة مفتوحة على مصراعيها لأهل الدنيا ومن سار في ركابهم..

على أن هذا الحزن لم يكن ذا طابعٍ سلبي، بل هو حزن إيجابي يتولد منه العمق في العبادة، والعمق في تفهم أسباب انحراف الأمة، والعمل على انقاذ ما تبقى من آثار الإسلام.

كان الإمام ينظر إلى الدنيا نظرة الإسلام فلا هو بالمنغمس فيها، ولا هو بالذي يتركها وينعزل عن الحياة العامة للناس. كانت الدنيا عنده وسيلة لمرضاة الله وسبيلا للآخرة، فهو لا يطلبها لذاتها «... وما زويتَ عني من متاع الدنيا الفانية فاذخرهُ لي في خزائنك الباقية. واجعل ما خوّلتني من حُطامها، وعجلتَ لي من متاعها بُلغة إلى جوارك ووصلة إلى قربك وذريعة إلى جنّتك...»[12].

وما دامت وصلةً، وذريعة، فلا ينبغي لعاقل كما تعتقد هذه الشخصية أن يتفانى على حُطامها الزائل. إذ لو كانت باقية لكان ذاك من بني آدم كلهم.

ومن الأدلّة الظاهرة على رغبته في الاختلاط بالناس والتفاعل معهم أنه

يدعو الله أن يجعله آنساً بصحبة المؤمنين الأخيار، «وهب لي الأنس بك، وبأوليائك وأهل طاعتك»[١٣]، ولكنه يرغب في أن لا يرى من الأشرار أحداً، وإن كان في العزلة خير، فهو البعدُ عن رؤية شِرار الخلق «... وألبسْ قلبي الوحشة من شرار خلقك...»[١٤]. فهو ـ إذاً ـ يمتزج بنوع من الناس، ولهدف، ويبتعد عن نوع آخر منهم، لهدف أيضاً.

ومن مظاهر تفاعل هذه الشخصية الإسلامية بالمجتمع أنها كانت تتمتع بطيبات الحياة ولم تحرّم على نفسها شيئاً أحلّه الله وأباحه لعباده من دون إسراف، وقد مرّ بِنا أن الإمام كان يخضب ويلبس فاخر الثياب، ولم يكن يتخذ الصوف شعاراً له، كما فعل الصوفية فيما بعد.

ومن دون هذا لا يمكن للإمام أن يتعامل مع الناس ويوجههم ويقودهم إلى حركة الحياة في الإسلام، ولو أتخذ غير هذه المظاهر لأعطى صورة قاتمة عن الإسلام. وفي هذا كله كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قدوة هذه الشخصية ومثلها الأعلى، إذ لم يكن في سيرته، لبسَ الصوف، أو انعزلَ عن الناس، أو حرّم زينة الله التي أخرج لعباده.

تمثيل الصحيفة للنفس الإنسانية وعواطفها:

إن المتأمل في أدعية الصحيفة يجدها مرآةً لهذه النفس وعواطفها، وبهذا تقترب هذه الأدعية من الأدب الإنساني لأن الأدب في صورة من صوره وفي وظيفة من وظائفه تصوير للنفس الإنسانية وما يعتريها من حالات وعواطف وهواجس وانفعالات. ومن الحق القول إن إبعاد أدب الدعاء في الإسلام عن الدراسات الأدبية وعن مناهج الدراسة الثانوية والجامعية يعد خسارة للأدب لأنه خسر نماذج صادقة فى تعبيرها عن النفس وحالاتها.

أليسٍ في أدب الدعاء عاطفة المخلوق إزاء خالقه اعترافاً بهذه النعمة وإخباتاً للمنعم الأعظم؟ ألم يقل الحديث: «ما من قطرة أحب إلى الله ـ

عزوجل ـ من قطرة دموع في سواد الليل مخافة من الله، لا يُراد بها غيرهُ»[15].

فإذا صوّر لنا أدب الدعاء هذه اللحظات العالية الصدق الشفافة عن الروح، قلنا هذا أدب ديني وأبعدناه عن تذوقنا للأدب، وظلت نماذجنا العليا «قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ». ولا غضَّ من فن الغزل وصلته بالنفس الإنسانية، ولكن الحيف في أن نظل مع أجواء العواطف إزاءٍ المرأة ونبعد صورا للعواطف الإنسانية أخرى، وهي لا تقل روعة وصدقا إن لم تتفوق على العاطفة إزاء المرأة.

وقد لاحظنا في أدعية الصحيفة صوراً من عواطف الحمد والشكر والثناء والرضا والحزن والاعتراف واللجأ والتوبة، كما لاحظنا صورا من العواطف في الدعاء للوالدين والولد والجيران والأرحام وللمؤمنين.

ولنا في القرآن مثل أعلى فى توجيه العواطف وتعليم البشر كيف يدعون، ولمن يدعون. قال الله تعالى على لسان المؤمنين «ربّنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربّنا إنك رؤوف رحيم»[16]. أليس في هذا قمة العاطفة الإنسانية إزاء الأخوة في الدين والعقيدة؟ وهل هناك درجة من العاطفة تبلغ هذا النوع من العاطفة؟ فهي عاطفة تفوق العاطفة إزاء الأخوان في الرحم. ومن الملاحظ أن القرآن يطلق لفظ (الأخوة) على الصلة بين المؤمنين وعلاقاتهم، بينما يسمّي الناس الذين تربطهم علاقات الرحم بأنهم (إخوان)[17].

ألم ندرس في الأدب أن هناك عواطف فكرية تتعلّق بالحق، وأن هناك خلقية تتعلق بالخير وأن هناك العاطفة الجمالية التي تتعلق بالفن؟[18]. وأن العواطف المعلومة مثل الرغبة والرهبة والطرب والغضب ينتج كل واحد منها نوعاً من الأدب. فالرغبة تنتج المدح والشكر والرهبة تنتج الاعتذار والاستعطاف والطرب ينتج الشوق والنسيب، والغضب ينتج الهجاء والتوعد

والعتاب[19].

ألسنا نقرأ في أدعية الصحيفة ذلك الحمد الصادق لله الذي يفيض حبّاً ووجداً؟ ثم ألم تنتج الرهبة من الله ذلك اللجأ وطلب التوبة والاستغفار والتذلل والاعتراف؟ وهل هناك أصدق من هذه العاطفة كما أحسسناها عند الإمام؟

ومن المعلوم أن عواطفنا تنشأ مع نموّنا الجسدي والشعوري ففي سني العمر الأولى تكون عواطفنا نحو الأشياء ثم تتحول إلى الأشخاص حتى إذا ما اكتملنا في النضج اتجهت عواطفنا نحو الأفكار والأمور والمجردة[20]، وما من شك في أن عاطفتنا نحو المطلق الخالق البارئ المصور هي عاطفة تقوم على أساس فطرية وفكرية معاً، وأنها تمثل مرحلة النضوج الإنساني والتكامل الإنساني، فكيف بعد هذا نهمل أدب الدعاء وما فيه من سمو عاطفي ونضوج إنساني؟

وقد شهدنا في فصل العرفانية الربانية وغيره مدى العمق العاطفي لدى الإمام في تعلّقه بالمطلق الأعلى، كما شهدنا امتداد هذه العاطفة في التعلق بالقيم ومكارم الأخلاق، وذلك في فصل البعد الأخلاقي في الصحيفة.

ومن الظواهر النفسية في أدب الدعاء عامة وفي الصحيفة خاصة أن النفس الإنسانية تعتريها حالات من الهم والحزن والقلق نتيجة لتعاملها مع الأمور المعقدة في الحياة، ونتيجة لطبيعة النفس ذاتها فهي لا تلازم حالا واحدة على الدوام. وهذا في الأعم الأغلب من النفوس.

فعند الهم والحزن والحاجة يلجأ الإنسان إلى الخالق الأعلى بشكل فطري لأنه يبحث عن منقذ ومغيّر لحالاته تلك، ولن يجد من هو أولى وأقدر على الاستجابة له غير الله سبحانه وتعالى. يقول أبو حامد الغزالي: «والغالب على الخلق أنه لا تنصرفُ قلوبهم إلى ذكر الله إلاّ عند إلمام حاجه وإرهاق ملمة. فإنّ الإنسان إذا مسَّهُ الشرُّ فذو دعاء عريض.

فالحاجة تحوج إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله، عزوجل، بالتضرع والاستكانة، فيحصل الذكر الذي هو أشرف العبادات»[٢١].

ويقول عبد الفتاح طبارة: «والدعاء علاج نفسي لكثير من أمراض النفس، فالإنسان بطبيعته محتاج في حلّ مشكلاته لأن يُفضي بدخيلة نفسه إلى صديق حميم يخفف عنه بعض ما يشعر به من الهم والحزن. وقد أجمع الأطباء النفسيّون أن علاج التوتر العصبي والآلام النفسية إنما يتوقف إلى حدّ كبير على الاقصاء بسبب التوتر ومنشأ القلق إلى صديق مخلص، لأن كتمانه مما يزيد في المرض. فإذا أفضى الإنسان المحزون إلى ربّه ما يعانيه، وطلب منه ما يبتغيه، فإنه يشعر بطمأنينة ونفحة روحية تنشله مما هو فيه من الهمّ والضيق. وذلك لأن الإيمان يقتضي الاعتقاد التام بأن الله مجيبٌ دعوته...»[٢٢].

ولهذا تجد الإمام يكثر من الاستعاذة من الهم والحزن والحاجة إلى الناس، فيقول: «واكسر عني سلطان الهمّ بطولك...»[٢٣] ويقول: «اللهم أنت عدتي إن حزنت، وأنت منتجعي إن حرمت، وبك استغاثتي إن كرثت، وعندك مما فات خلف، ولما فسد صلاح...»[٢٤].

وللإمام في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أسوة حسنة، فقد كانٍ يستعيذ من الهمّ والحزنٍ ويعلم هذه الاستعاذة أصحابه فقد رأى رجلا يقال له أبو أمامة جالسا في ركن من أركان المسجد بادي الكآبة والحزن، فسأله الرسول: ما بك، فقال: ديون لزمتني يارسولِ الله. فأمره الرسول بأن يتوجه إلى الله بركعتين ثم يدعو هذا الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال»[٢٥].

وفي أصول الكافي للكليني عن أبي عبد الله عليه السلام: «يافارج الهمّ، وياكاشف الغم، يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فرّج همي واكشف

غمي...»[٢٦].

وفي أدعية الصحيفة إشارات إلى ضعف النفس الإنسانية عن احتمال كوارث الدنيا فضلاً عن أهوال يوم القيامة، فهي لا تملك إلاّ التضرع واللجأ إلى الله، وسؤاله بأن يمنحها قوة منه ورحمة. ثم إن هذه النفس ذات هوىً وميل، أمّارة بالسوء تقبل على الأدنى وتترك الطريق الوعرة والمركب الصعب. قد سلّط عليها عدوّها الشيطان الرجيم وقادها إلى مهاوي العقاب، فلم تجد حينئذٍ إلاّ الندم والتوبة، ومن نعم الله عليها أن أعطاها هذا المهرب، وقبل منها هذه الأوبة بشرط الصدق والكف.

وإلى ذلك إشارات كثيرة في أدعية الصحيفة، من مثل:

١ـ اللّهُم لا طاقة لي بالجهد، ولا صبر لي على البلاء، ولا قوة لي على الفقر..»[٢٧].

٢ـ «اللّهم وإنك من الضعف خلقتنا، وعلى الوهن بنيتنا...»[٢٨].

٣ـ «اللّهم... ولا تخلِّ في ذلك بين نفوسنا واختيارها، فإنها مختارة للباطل إلاّ ما وفّقت، أمارة بالسوء إلاّ ما رحمت...»[٢٩].

٤ـ «... ثم أمرتَهُ فلم يأتمرْ، وزجرته فلم ينزجرٍ، ونهيته عن معصيتك فخالف أمرك إلى نهيك، لا معاندة لك، ولا استكبارا عليك، بل دعاه هواهُ إلى ما زيّلتَهُ وإلى ما حذّرته، وأعانه على ذلك عدوُّك وعدوُّه، فأقدم عليه، عارفا بوعيدك راجيا عفوك....»[٣٠].

والإمام يكثر من الاستعاذة من الشيطان، لأنه يعرف أبوابه ومداخله ويعرف قوته وسلطانه ـ المحدود ـ على الإنسان ومن ذلك قوله: «... وأعذني من الشيطان الرجيم، فأنك خلقتنا وأمرتنا ونهيتنا ورغبتنا في ثواب ما أمرتنا، ورهّبتنا عقابه، وجعلت لنا عدوّاً يكيدنا، سلطته منّا ما لم تسلطنا عليه منه. أسكنته صدورنا، وأجريته مجاري دمائنا، لا يغفل إن غفلنا، ولا ينسى إن نسينا، يؤمننا عقابك، ويخوّفنا بغيرك، إن هممنا

بفاحشةٍ شجعنا عليها، وإن هممنا بعمل صالح ثبطنا عنه، يتعرض لنا بالشهوات وينصب لنا بالشبهات. إنِ وعدنا كذبنا، وإن منّانا أخلفنا، وإلاّ تصرفْ عنا كيده يضلّنا، وإلا تقِنا خَباله يستزلّنا...»[٣١].

بهذه الدرجة من الفهم وهذه الدرجة من الحذر وهذه الدرجة من الاستعانة بالله على دحر الشيطان، إذ بدون هذه الاستعانة لا يقوى الإنسان على مكر هذه القوة الحاقدة على الإنسان المتربصة له مواطن ضعفه وهواه.

وفي أدعية الصحيفة لفتات كثيرة عن طبيعة النفس الإنسانية وسجاياها وتركيبتها، ولهذا فبامكان العالم النفسي أن يتملى هذا الأثر ويستشف منه ما يساعده على فهم مادته. ومن المعلوم أن هذه النفس عالم أوسع بكثير مما يسمّى بعلم النفس إذ علم النفس شيء والنفس الإنسانية شيء آخر لم يحط به (ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا) [٣٢]، وبين النفس والروح صلة كما أنّ بينهما اختلافا، كما يقرر العلماء[٣٣].

الأثر العاطفي لأدعية الصحيفة:

هذه المرة لا نتحدث عن دلالة العاطفة على نفسية الإمام وشخصيته، ولا تمثيلها للنفس الإنسانية عموماً، بل نتحدث عن الأثر العاطفي في نفوسنا نحن، أي أن الحديث هنا عن استجابة المتلقي وتأثره، وليس عن الحالة النفسية للمنتج أو المبدع.

وما من شك في أن الصلة قائمة بين المبدع والمتلقي، فالصدق العاطفي الذي يصدر عن المبدع يجد طريقه إلى قلب المتلقي بسهولة ويسر. وقد دلتنا سيرة الإمام كما دلتنا النماذج التي عرضنا لها على الصدق العاطفي والصدق الفني لدى الإمام، وهو صدق لا يتعارض مع التجربة الواقعية كما

هو الحال في بعض تجارب الشعر والفن عموماً.

وقد قيل في التاريخ النقدي العربي القديم (إن أعذب الشعر أكذبه) وهي مقولة تنسب للأصمعي[٣٤]، للدلالة على أن الصدق الواقعي ليس من ضرورات العمل الفني!! وهذا ـ في الواقع تزييف لوظيفة الأدب والفن، وتشويه لصورتهما في الحياة. في الوقت الذي نحتاج فيه إلى فهم أسرار الحياة والتعبير عنها بصدق وواقعية.

وقد ردّ القاضي الجرجاني قديماً على هذه المقولة وفنّدها، وقال (الحق أوسع ميداناً، وأجدر بتوجه الهمم إليه) [٢٥] كما أن الدراسات الحديثة في نظرية الأدب تعارض مقولة الأصمعي، اللّهم إلاّ مدرسة (الفن للفن) التي لا تُعنى بأي وظيفة أخلاقية للأدب، وتؤمن بعبادة الجمال وحده.

إننا في أدب الدعاء لدى الإمام السجاد أمام صورة حية للتجربة، ولا مجال للمقارنة بينها وبين تجارب الشعر التي يصدق فيها الشاعر أحيانا ويكذب أحايين كثيرة مدفوعا بدوافع مادية ونفسية كثيرة.. نحن أمام أدب ولكنه من النوع الذي لا يفارقه الصدق ولا يبتعد عنه. ولا أدري هل الصدق جريمة هذا الأدب حتى ينحّى عن الأضواء ولا يُدرج ضمن الدراسات الأدبية، أم لكونه يمت للدين والأخلاق بصلة؟! أغلب الظن أن السبب الثاني هو الأقرب..

إن هناك كثيراً من السبل لتقويم الأدب منها قوة العاطفة وصدقها وامتدادها وسموها وثباتها وروعتها وأثرها في نفسية القارئ. وتشير الدراسات النقدية أننا ينبغي أن نسأل أنفسنا مثل هذه الأسئلة بعد قراءة أي أثر أدبي: هل أثار النص الأدبي شعورنا؟ هل ملأ قلوبنا دهشة ومنحنا إحساساً جديداً، أو قلباً جديداً نحس به؟ هل قرّب الفكرة إلينا من خلال ما أحاطها من مشاعر وعواطف؟[٣٦].

إن الأدب الإسلامي الذي نعد الصحيفة واحداً من النماذج الممثلة له

يجعلنا نتأمل هذه الأسئلة بعد الفراغ من قراءته، وينتهي بنا إلى الانفعال والعمل معاً، وليس إلى الانفعال وحده.

ولعلَّ أصدق نموذج لهذا الأدب هو الأدب القرآني الذي صنع ما تلاه من الأدب الإسلامي. فالقرآن حين يخاطب العقل والقلب البشريين قائلا: (ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)[٣٧]، إنما يفجّر فيها الاحساس العميق بالإيمان ليعبّر هذا الإيمان عن نفسه بالانصياع لأوامر الله ونواهيه. كما يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر[٣٨].

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة. فهل أنتم منتهون؟)[٣٩]. نجد الأمر الإلهي لم يأتِ تقريرياً بترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، بل أحيط بجو من التربية الروحية والعاطفية التي تنفر من هذه الممارسات وتجعلها رجسا من عمل الشيطان، وتوضح آثارها السيئة بطريقة موحية دافعة إلى تركها، ثم أرأيت إلى هذا الاستفهام (فهل أنتم منتهون؟)، الاستفهام التحريضي الأمري الذي يعني: انتهوا!! ولكن أين (انتهوا) من (فهل أنتم منتهون)؟

وهكذا ترى الاحساس الذي ولدته الآية، والاندفاع الى العمل أو الترك، حتى قيل إن المسلمين الذين كانوا يشربون الخمر قبل هذه الآية، قالوا: اللّهم انتهينا، بمجرد سماعهم الآية، مما يدل على قوة التاثير العاطفي الذي أحاطتهم الآية به فدفعتهم إلى الاستجابة الفورية إزاءه.

وحين نتأمل نصوص الأدعية السجادية ونمتحن ما فيها من هزّة عاطفية نجد نفوسنا أسارى تأثيرها العاطفي لأنها صيغت على هدى النصوص القرآنية التي مرّت بنا وأفادت من طريقتها الإيحائية والتصويرية.

والحق أننا لا نكاد نفاضل بين دعاء وآخر، فأيّ دعاء من أدعية الصحيفة تناولته تواجه أثره العاطفي في وجدانك لأنه ثمرة إحساس وتجربة صادقة ورغبة ورهبة وانفعال بحرارة اللقاء وأمل العطاء والاستجابة. ومع تحقّق هذا في أدعية الصحيفة كلها، فإننا سنجتزئ بعض المقاطع لنقف عند أثرها في نفوسنا، خاصة إذا كنا ممن له قلب الإمام، أو بعض قلبه عليه السلام!! يقول الإمام في الدعاء الثالث عشر: (ياأرحم الراحمين، وياأرحم من انتابه المسترحمون، ويا أعطف من أطاف به المستغفرون. ويا من عفوه أكثر من نقمته، ويا من رضاه أوفر من سخطه، ويامن تحمّدَ إلى خلقه بحسْن التجاوز، ويا من عوّدَ عباده قبولَ الإنابة، ويامن استصلح فاسدهم بالتوبة، ويا من رضيَ من فعلهم باليسير، ويا من كافأ قليلهم بالكثير، ويا من ضمن لهم إجابة الدعاء. ويا من وعدهم على نفسه بتفضّله حسن الجزاء، وما أنا بأعصى من عصاك فغفرت له. وما أنا بألومَ من اعتذر إليك فقبلتَ منه، وما أنا بأظلم من تابَ إليك فعُدت عليه. أتوبُ إليكَ في مقامي هذا توبة نادم، على ما فرّط منه، مشفق مما اجتمع عليه، خالص الحياء مما وقع فيه، عالم بأن العفوَ عن الذنب العظيم لا يتعاظمك، وأن التجاوز عن الإثم الجليل لا يستصعبُك...»[٤٠].

يبدأ الإمام دعاءه بالنداء بأداة النداء (يا)، وهي من الأدوات التي ينادى بها البعيد، ولكن الإمام ينزل القريب منزلة البعيد، كما يقول البلاغيون، فالله قريب من نفسه ولكنه يخاطبه كما يخاطب البعيد تعظيما له وإعلاء لمرتبته. كما قال الشاعر:

يا من يُرجّى للشدائد كلها   يا من إليه المشتكى والمفزعُ[٤١]

ونداء الإمام هنا ليس من نوع النداء الحقيقي الذي يجري بين الأنداد، بل هو نداء مجازي يهدف إلى غرض آخر، وهو تعظيم المنادى من جانب والتذلل إليه من جانب آخر.

والذي يهمنا من هذا هو أن نجسَّ نبض قلوبنا ونحن نستمع إلى هذا القلب الذي ينادي في جوف الليل بـ(ياأرحم الراحمين)، ولنتخيّل ذلك الإنسان الذي عرف من ينادي فاستصغر شأنه، ولكن حبّه لمن ينادي وأمله بمن ينادي جعله يسترسل في النداء معظماً ليدخل الباب على ربّ الملوك والمخلوقين جميعا.

إن كل حرف من حروف هذا النداء التعظيمي ينطق بتصوير جهتين: الضعف والقوة، الحاجة والاستغناء. العبودية والألوهية. أعد قراءة حرف (الحاء) لتحس معي بالحلق الذي يستمرئ نداء المحبوب، وهو حاء، غير الحاء التي نحسها مع كلمات الحيرة والحسرة، بل هي حاء الاسترحام والمحبة!!.

وبعد هذا الثناء والتعظيم يتقدم الإمام بالرجاء مخاطباً ربّه خطاباً قلبياً حاراً آملاً بأن يستقبله بالعفو والرضا لأنه مهما فرّط منه لم يبلغ مبلغ تجاوز الظالمين والعصاة ممن نسوا أنهم في قبضة العزيز المقتدر.

أقول: لو امتلك واحدٌ منا هذه القدرة على التعبير عمّا في النفس هل نتردد في الاقدام وطلب العفو؟! ولكن عجزاً في أساليبنا، وعجزاً في إرادتنا وعجزاً في قلوبنا، يجعلنا غير قادرين على الوقوف أمام الباب الذي يأتي إليه السائلون، ويسترفد منه المسترفدون.

وأعظم ما تكون عاطفة الإمام وهو يتحدث عن ضعفه واستكانته، وأبلغُ ما يكون تعبيره وهو يلجأ إلى ربه آملاً منه المثوبة والمغفرة والعطاء. وإننا في هذ المقام لا نتردد من الاستشهاد بالمقاطع الطويلة لأنها تحقق الهدف الذي نريد إظهاره، وهو مبلغ الأثر النفسي الذي تتركه في كياننا. تأمل بقلبك هذا الدعاء:

(اللهمّ يا كافي الفرد الضعيف، وواقي الأمر المخوف، أفردتني الخطايا، فلا صاحب معي، وضعفتُ عن غضبك، فلا مؤيّد لي، وأشرفتُ على خوفِ

لقائك فلا مُسكّن لروعتي، فمن يُؤمّنني منك وأنت أخفتني، ومن يُساعدني وأنت أفردتني؟ ومن يقوّيني وأنت أضعفتني؟[42].

لا أحد يارب في هذه الدنيا يؤمنني من خوفك ولا أحد يساعدني إذا أردت أنت أن تبقيني فردا وحيدا لا معين لي، ولا أحد بقادر على أن يمنحني قوة إذا أردت سلبها مني، وتركتني عاجزا ضعيفا.. وهذه هي معاني الاستفهام الدال على النفي كما جاءت في دعاء الإمام، وهي أكثر إثارة لنا ـ نحن المتلقين ـ وأكثر قدرة على استجلاب تعاطفنا مع الإمام وهو يتضرع بين يدي ربه، مما نكون معه أكثر قناعة وإحساسا بأنه مرحوم لا محالة، لأنه يخاطب ربّا رحيما، ويصدق في خطاب ربّ رحيم.

وهكذا لا ينفصل الأسلوب عن ظله العاطفي في أدعية الصحيفة، إذ الأسلوبُ وسيلة لإثارة السامع وشدّه إليه وتجاوبه معه.

وفي موضع آخر نصغي مأخوذين بجلال الصدق، وجلال المخاطب قبل ذلك.

«اللهمّ وأنا عبدُك الذي أنعمت عليه قبل خلقِك له، وبعد خلقك إياه، فجعلته ممن هديته لدينك، ووفقته لحقك، وعصمتَهُ بحبلك، وأدخلتَهُ في حزبك، وأرشدتَهُ لموالاة أوليائك ومعاداة أعدائك. ثم أمرتَهُ فلم يأتمر، وزجرتَهُ فلم ينزجر، ونهيته عن معصيتك، فخالفَ أمرك إلى نهيك،... فأقدم عليه عارفا بوعيدك راجيا لعفوك. واثقا بتجاوزك، وكان أحقّ عبادك مع ما مننتَ عليه ألا يفعل، وها أنا ذا بين يديك صاغرا ذليلا خاضعا خاشعا خائفا معترفا بعظيم من الذنوب تحمّلتُه، وجليل من الخطايا اجترمتُه... فعذْ عليَّ بما تعودُ به على من اقترفَ من تغمّدِك، وجُدْ عليَّ بما تجود به على من ألقى بيده إليك من عفوك...»[43].

أرأيت مذنبا يتحدث حديثا ضد قضيته في محكمة؟! هذا هو الإمام السجاد، لا يجد له حجة ولا مسوّغا لذنبه بل يعترف أنه أقدم على ما لا

يليق به أن يقدم عليه... هكذا سوّلت له النفس بالمخالفة وتجاوز الحد، وكان ينبغي ألا يكون ما كان لأن الله أمر وحذّر ونهى وزجر.. ومع ذلك فإن الإنسان يقدم إلى المعصية دونما تذكر لهذا كله... وهذا من الإمام إشارة إلى ما جبل عليه الإنسان من نسيان وما جبل عليه من ضعف منذ النشأة الأولى، ولم يكن حديثه عن نفسه فقط، بل هو توجيه وموعظة لنا، وتربية وإرشاد لنا نحن الذين نقدم على أعظم الذنوب وأكبرها..

أقول: إن الإمام يعترف ان الذي يقع من الخطأ كان تجاوزاً وجهلاً، لا غير.. إلاّ أن الذي يملكه هذا الإنسان هو الطمع في عفو الله، والرغبة في أن يتجاوز الله عن سيئاته، وهو الذي يعلم ما في هذا الإنسان من ضعف ونسيان بل وجرأة على اقتراف الذنوب.. فسبحان صاحب العفو والمنّ والجلال والإكرام!!

أليس هذا الموقف يضعنا وجهاً لوجه أمام تصرفاتنا نحن؟ فكم من الذنوب اقترفنا! وكم من سوء الأدب سلكنا! وكم من المعاصي ارتكبنا! وكم.. وكم؟! ثم ننتهي إلى النهاية التي انتهى إليها الإمام في تصوير نفسه، أو قل تصوير نفوسنا من خلال نفسه!!

وبما أنّ التجربة تهمنا، وبما أن التجربة تجربتنا التي نعيشها في حياتنا، وتعيشها الإنسانية كلها عبر طريقها في هذه الحياة، منذ النشأة الأولى، وإلى آخر إنسان يوجد على ظهر هذا الكوكب، بما أن الأمر كذلك فدعاء الإمام يمثل نفوسنا ويتحدث عنا، فما كان فيه من وجد وعاطفة وأحاسيس فهي أحاسيسُنا دون ريب. ومن هنا يأتي تأثرنا بالنص السابق لأنه نص واقعي في اعترافاته، ولكنها واقعية التوبة والإنابة وليست واقعية المادية الغريزية التي تلحد إليها المذاهب الأوربية من فرويدية وماركسية ووجوديّة... بحيث يصور الذنب وتصور الجريمة على أنها حق طبيعي يمارسه الإنسان، لأنه هكذا خُلق، ولا يحق لنا أن ننظر إليه على أنه ملك..

وليس ثمة دعوة ـ ولو بطريقة إيحائية ـ إلى التوبة. ثم إلى من تكون التوبة؟! إلى الله؟! ذلك ما أبعد الإنسان الأوربي نفسه عنه، فأبعده الله عن رحمته. ولا تظنن أن ما هم فيه من نعيمٍ هو خير لهم. بل إن دهشتنا وإعجابنا بالخير المادي الذي عندهم، ما هو إلاّ نتيجةٍ من الحرمان والجهل والقهر الذي نعيشه في عقر ديارنا ولو كنا أحراراً في حياتنا لكان لنا الخير المادي الذي عندهم، والخير الروحي الذي يفتقدونه...

إن العاطفة التي نتحدث عنها في أدب الإمام ليست عاطفة فضفاضة مُترهلة تشبه بكائيات الرومانسيّة الهاربة، بل هي عاطفة نابعة من أساس فلسفي وفكري وعقدي. فالله الذي يعرفه الإمام حق معرفته ـ وقد مرّ علينا الحديث عنه في فصل العرفانية الربانية ـ والذي يمثل القوة المطلقة كما تؤكده عقيدة الإسلام. ألله هو الذي يُخاطب ويُتذلل بين يديه، وحق لنا أن نفعل ذلك في حضرته. إذاً، العاطفة لها معادل فكري، أو هي نابعة من رصيد فكري، وليست طافية أو عائمة على السطح.

والإسلام لا يرضى للعواطف إلاّ أن تكون انعكاساً لفكرة أو مبدأ، بمعنى أنها عاطفة هادفة لا تخضع للأحاسيس والمشاعر وحدها. فالإنسان في هذه العاطفة، كما يقرر الشهيد الصدر، يملك رشده ولا يعيش حالة غياب وسكر خاضعاً لسورة العاطفة الجامحة وحدها، بل هناك قاعدة فكرية تهديه السبيل، وتذكّرهُ بإنسانيّتِهِ التي فيها جانبٌ كبيرٌ من العقل والفكر والتأمل[44].

وهذا ما يجعلنا أمام نظرية التجانس في الأدب الإسلامي حيث تتوزع النسب ما بين العاطفة والفكر والخيال والموسيقى والشعور واللاشعور في توزيع عادل لا يجوز فيه عقل على عاطفة، ولا عاطفة على عقل، ولا نسبة طاغية على أخرى، وهذه خصيصة يتفرد بها الأدب الإسلامي على المذاهب الأوربية التي يطغى فيها العقل على الكلاسيكية، وتطغى العاطفة على

الرومانسية، ويطغى اللاشعور على السريالية، في صورة تجزئ الكيان الإنساني وتضخم فيه عنصرا على عنصر، بينما تتحالف العناصر المكونة للتجربة الأدبية من فكر وعاطفة وخيال في الأدب الإسلامي ليخرج الأثر الفني ناضجا مؤثرا في الكيانات الإنسانية الأخرى التي تقف عنده وتتملاه [٤٥].

وأنت إذا نظرت إلى هذه العناصر في أدعية الصحيفة رأيتها موزعة بالنسب التي أشرنا إليها على الرغم من زيادة نسبة الأحاسيس والعواطف، ولكنها تبقى مرتبطة بقاعدتها الفكرية، وبغيرها من النسب المكونة للأسلوب الأدبي.

وبهذا استطاعت أدعية الصحيفة أن تُحقّقَ أهدافها في نفوسنا وتبلغ أفكارها وتوجهاتها المبدئية من خلال ضغطها على العنصر العاطفي دون الإخلال بالعنصر الجمالي والفني. بل نجد علاقة الشكل بالمضمون في هذه الأدعية متجسدا أروع تجسيد وسوف يكون تأملنا أكثر عند النواحي اللغوية والجمالية في الفصل القادم، بعد هذه الوقفة عند القيم العاطفية لدى الإمام وفي أنفسنا ونحن نتلقى أثر الإمام وأدبه.

الهوامش

[1] - النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتب القاهرة، ط٤، ١٩٧٢، ص١٨.

[2] - جماعة الديوان في النقد، د. محمد مصايف، الشركة الوطنية، الجزائر، ط٢، ١٩٨٢.

[3] - ٢٨ / ١٠١.

[4] - ٣٥ / ١٢١.

[5] - حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، ج٣، ص١٣٢.

[6] - المصدر السابق، ص١٣٦.

[7] - الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج١، ص٢٢٢.

[8] - ٣٠ / ١٠٤.

[9] - ٦ / ٣٥. وفي دعاء آخر يستعيذ الإمام من أن يخذل الملهوف، ٨ / ٣٩.

[10] - حلية الأولياء، ج٣، ص ١٣٨.

[11] - المصدر السابق، ج٣، ص١٣٤.

[12] - ٣٠ / ١٠٤.

[13] - ٢١ / ٧٩.

[14] - ٢١ / ٧٩.

[15] - أصول الكافي، ج٢، ص٤٨٢.

[16] - الحشر، ١٠.

[17] - (إنما المؤمنون إخوة)، الحُجرات، ١٠، (وإخوان لوط)، سورة ق، ١٣.

[18] - أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ص ١٨٨.

[19] - في النقد الأدبي، د. عبد العزيز عتيق، ص١٠٢.

[20] - انتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، منشورات مسجد الطلبة بجامعة الجزائر، ص ٢١. وينظر، النقد الأدبي الحديث ومذاهبه، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٣٥.

[21] - إحياء علوم الدين، ج١، ص ٣٢٨.

[22] - روح الدين الإسلامي، ص ٢٠٠.

[23] - ٧ / ٣٧.

[24] - ٢٠ / ٧٣.

[25] - رواه البخاري، والترمذي والنسائي، وأحمد.

[26] - ج٢، ص ٥٥٧.

[27] - ٢٢ / ٨٠.

[28] - ٩ / ٤١.

[29] - ٩ / ٤١.

[30] - ٤٧ / ١٧٤.

[31] - ٢٥ / ٩١.

[32] - الإسراء، ٨٥.

[33] - إحياء علوم الدين، ج٢، ص٤٢٣.

[34] - تنظر مقالة الباحث (مفهوم الصدق والكذب في الأدب) مجلة العالم، لندن، تموز، ١٩٩٠. وقد فنّد الدكتور محمد النويهي مقولة (أعذب الشعر أكذبه) هذه في كتاب (وظيفة الأدب من الالتزام الفني والانفصام الجمالي) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ط١، ١٩٦٦.

[35] - مقالة الباحث السابقة، والنقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ط٩، ص ٤٨٤.

[36] - هذه الأسئلة وغيرها تجدها في (أصول النقد الأدبي) أحمد الشايب، ص ١٩٣.

[37] - الحديد، ١٦.

[38] - رسالتنا، مكتبة النجاح، طهران، ط٢، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص٣٣، وينظر كتابنا: الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٩٢، ص٩٤.

[39] - المائدة، ٩٠-٩١.

[40] - ١٣ / ٤٦.

[41] - علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص ١٢٧.

[42] - ٢١ / ٧٦.

[43] - ٤٧ / ١٧٤.

[44] - رسالتنا، ص ٣٤.

[45] - ينظر كتابنا (الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي)، ص١٠١، ومجلة الفجر، قم، ع٢، السنة الأولى، ص ٤٨.



الفصل الثامن

الخصائص الفنية للصحيفة السجادية



تمهيد:

ما من شك في أن أهمية الصحيفة السجادية وخطورتها تكمن في دلالتها التربوية والأخلاقية والدينية عموما. ويُخطئ من يعتقد أن هذه الدلالات كانت ذات طابع فردي، أو طابع منعزل عن الحياة وعن التيار السياسي والاجتماعي الذي قيلت في أجوائه الصحيفة. فهي ليست نفثات قلب محزون وجد في العزلة عن الحياة علاجاً لهمّه وغمّه، ولا نداءات رجل موتور عجز عن الانتقام من عدوّه فلجأ إلى الدعاء لعله يبلغ به ما لم يستطع بلوغه، بل هي وثيقة عمل منظم مدروس وهادف، كما يتبدى لكل من تابع موضوعات الصحيفة وأغراضها ومعانيها.

لقد أراد الإمام علي بن الحسين عليه السلام أن يغير طابع العمل، ولم يقصد إلى تحجيم العمل على الإطلاق، فقد كانت المرحلة السياسية قاسية والرقابة شديدة على الداعين إلى الإسلام خارج إطار التوجيه السلطوي الذي يريد إخضاع الإسلام إلى أطماعه وأهدافه. فلم يكن من بد ـ والحال هذه ـ إلا اللجوء إلى توعية الأمة وتربيتها وإيصال المفاهيم إليها عن طريق (الدعاء). فكان دعاء سياسيا وتوجيها اجتماعيا وتربية أخلاقية تعيد للأمة فهمها الصحيح لرسالتها، وتوضح لها منهج علاقتها بخالقها وأسلوب عملها ودأبها له.[1]

وبالإضافة إلى القيم التربوية والأخلاقية والسياسية التي أشرنا إليها، فان الصحيفة أثر لغوي وأدبي يعد وثيقة معبرة عن الاتجاه العام لطابع اللغة والأدب في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة.

وإنه لمن المؤسف حقاً أن الدراسات الأدبية التي أرّخت للعصر الأموي لم تشر إلى هذه الوثيقة لأسباب يطول شرحها، ولكننا نلمح إلى سببين اثنين منها :

الأول : اعتبار الصحيفة ممثلة لتيار سياسي معارض للسلطة وذي طابع غير منسجم مع الخطوط المذهبية والدينية السائدة. فكان الإعراض والإهمال.

والثاني : أن معظم الدراسات الأدبية، والفكرية والتراثية خضعت لتوجيهات استشرافية. فكان الانتخاب لنمط معين من التراث دون غيره، فاختيرت الآثار التي تمثل انحرافاً عن منهج الإسلام، وأهملت الآثار التي تمثل حضارة الإسلام بحق.[٢]

ولم يكن هدفنا الوقوف عند هذه التفصيلات، بل أردنا أن نرصد الطابع الأسلوبي العام لصحيفة الإمام السجاد عليه السلام، لنرى بعد ذلك هل الاهتمام بشعر المجون، وآثار الزنادقة، وآداب المدح والثناء الكاذب على الحكام والأمراء أولى بالدراسة من هذا الأثر الأدبي الصادق؟ أم أن المسألة تتعلق بكون هذا الأثر الأدبي ذا طابع ديني، والدين ـ وأدب الدعاء تعبير عنه ـ يجب أن يدرس في مجالات كليات الشريعة وأصول الدين فقط، حتى ولو كان هذا الأثر الديني ذا طابع لغوي وأدبي رصين كالصحيفة السجادية؟!.

هذا ما تلحد إليه الدراسات الحديثة، ونحن في شكٍ من توجهاتها وأهدافها. ولنا هدفنا ومنهجنا، ولها هدفها ومنهجها كذلك وإذا كان الاختلاف في وجهات النظر من سنة الحياة، فإنّ قدراً واجباً في الاتفاق ضروري فيما يتعلق بتراث الأمة وعقيدتها وحضارتها.

وبعد هذا التمهيد الذي رأيناه ضرورياً نقف عند السمات العامة لأسلوب الصحيفة.

أولاً ــ الطبع والفطرة:

ما زال الأدب في الثلث الأخير من القرن الهجري الأول مرتبطاً بالبيئة

العربية الفطرية. وما زالت اللغة العربية مرتبطة بتلك البيئة التي غذّاها الأدب الإلهي القرآني بثروة هائلة من الفكر والمنهج، والمفردات والأساليب. وكان الأدب النبوي اكثر الآثار استجابة لمنحى القرآن في التعبير والأداء، ثم يليه آداب أهل البيت (عليهم السلام) لقربهم من أدب النبوّة وصدورهم عنه، كما سنلاحظ في فقرة قادمة.

والذي نريد بيانه هنا هو أن هذه البيئة العربيّة وآدابها لم تخضع لتأثيرات أجنبية بعدُ في مجالات الفكر ومناهج الحياة إذ ظلّت اللغة العربية التي تضرب بجذورها في أعماق الصحراء محافظة على سمتها في التعبير بالإضافة إلى الروح الجديدة التي نفحتها من كتاب الله العظيم، وهي روح تتسع لمجالات شتى، وميادين واسعة.

ونحن حين نتأمل لغة الصحيفة وفكرها نحس بأجواء الفطرة اللغوية والروحية والفكرية، فلا تكلف في لفظ، ولا التواء في تركيب، ولا غرابة في صياغة، ولا غلو ولا مبالغة في فكرة. بل هي الفطرة التي تنثال منها الألفاظ انثيالاً، وهي بلاغة البدوي الذي أخرجه القرآن من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وبلاغة العربي الأصيل الذي أضاف إليه القرآن أصالة إلى أصالته ونقاء إلى نقائه، وعمّق فيه الطبع السليم والفطرة النقية.

انظر إلى هذا المقطع من الصحيفة : (اللهم صلّ على محمد وآله، ووفقنا في يومنا هذا، وليلتنا هذه، وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير وهجران الشر، وشكر النعم، واتباع السنن، ومجانبة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحياطة الإسلام وانتقاص الباطل وإذلاله، ونصرة الحق وإعزازه، وإرشاد الضال ومعاونة الضعيف، وإدراك اللهيف...)[٣].

لتحس بهذا التدفق الفطري في التعبير، وهذا الفيض اللغوي الذي يغرف من بحر، بعيداً عن أي تكلف أو تنطع كما سنشهده في القرون التالية من

مسيرة اللغة العربية وآدابها.

وهذه التلقائية في التعبير على الرغم من ارتباطها بالبيئة العربية الأصلية، فهي تمتُّ بسبب إلى البيت النبوي الذي أوتي جوامع الكلم وكانت الفصاحة في سيد هذا البيت سجية وفطرة، فورثها منه آله فكان علي، وكان الحسن، وكان الحسين، وكان السجاد زين العابدين علي بن الحسين (عليهم السلام) الذي خطب في مجلس يزيد بن معاوية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام فكان على مرضه وصغر سنه قد أدهش كل من كان إلى جوار يزيد، فما كان منهم إلا أن قالوا إنه من أهل بيتٍ زُقّوا العلم زقّاً، وألهموا البيان إلهاماً.

وتأمل هذا المقطع الثاني : (اللهم صل على محمد وآله، وكن لدعائي مجيبا، ومن ندائي قريبا، ولتضرعي راحما، ولصوتي سامعا، ولا تقطع رجائي عنك، ولا تبت سببي منك، ولا توجهني في حاجتي هذه إلى سواك، وتولّني بنُجح طلبتي، وقضاء حاجتي، ونيل سُؤلي قبل زوالي عن موقفي هذا بتيسيرك لي العسير، وحسن تقديرك لي في جميع الأمور...)[٤].

فأنت إزاء هذا الحسي المفطور الذي وجد في مناجاة ربه مجالاً للإنشراح وعالما حميما وجوّاً وادعا يجعله يُقبل بكل نفسه، فيخاطب محبوبه القريب منه السامع لندائه (وإذا سألك عبادي عنّي، فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني)[٥]، فلا تعمل في اختيار الكلمات ولا افتعال، كما يفعل البشر من ذوي الطبقات المتفاوتة فيما بينهم، فيتأنقون في العبارة، ويختارون ما يناسب مقتضى الحال من مقامات الملوك والأمراء وذوي الجاه والسلطان. بل هو القلب الذي ينفتح على نداء بارئه ومصوّره، فيدعوه لكشف ما به من ضُرّ. وما يعاني من تباريح.

فالموضوع نفسه، والجو نفسه يساعد هذه الفطرة في المحافظة على طابعها، ويقوّي فيها عُنصرَ ذاتيتها وطبعها.

وسنلاحظ هذا الطبع يواجهنا في كل موضع من المواضع التي سوف نقف عندها في اللغة والصياغة والأساليب فضلا عن المواقف والأفكار. ونريد أن نشير هنا فقط إلى موضع هذه الفطرة من الصورة البيانية في الصحيفة.

فهي الصورة الجزئية التي تمت إلى البيئة بسبب وإلى الوراثة والتأثر بالقرآن والحديث بأسباب. وهي صورة يصنعها التعبير اللغوي كما هو معلوم من تشبيه واستعارة وكناية. واليك بعض هذه الأمور :

١ـ وكم من باغ بغاني بمكائده، ونصب شرك مصائده، وأخبأ إليّ إخباء السّبع لطريدته.[٦]

٢ـ حتى إذا قارفت معصيتك، واستوجبتُ بسوء سعيي سخطك فتلَ عنّي عذارَ غدرِه.[٧] (في الحديث عن الشيطان).

٣ـ ... وجعلته نوراً نهتدي به من ظلم الضلالة والجهالة.[٨] (في حديثه عن القرآن).

لقد أردنا أن نشير بالتشبيه في المثال الأول والكناية في المثال الثاني والاستعارة في الثالث، إلى طابع الصورة في الصحيفة، وهذا الطابع الذي نريد أن نضعه في إطار هذه الفقرة من البحث. وهو سمة الطبعٍ المرتبط بالبيئة، والبعيد عن التكلف والتصنع. وهو طابع يكاد يكون عاما في أدب صدر الإسلام والمرحلة الأموية. وحسبنا الإشارة إلى هذا الطابع، ولنا بها غناء عن التحليل المتأني لقيمة هذه الصور من الناحية الفنية والنفسية.

ثانياً ـــ الترسل والإطناب :

ترتبط خصيصة الترسل بالفكرة التي انتهينا من تقريرها آنفاً، وهي فكرة الطبع والفطرة. فالإمام كان يترسّل في تعبيره، ولا يخضع لقيود تعبيرية شأن المتأخرين من الأدباء، وهذا الترسل الفطري والتعبير التلقائي

يقودنا إلى الإطناب وهو عكس الإيجاز كما يتحدث عنهما علماء البلاغة.

على أنه من الضروري الإشارة ابتداء إلى أن هذا الترسل وهذا الإطناب لا يعني أن أسلوب الصحيفة يخلو من الإيجاز ، ولكن من الحقٍ أن نقول : انه إيجاز يتعلق بالعبارة الواحدة وصياغتها، وليسٍ إيجازا في الموضوعٍ وطريقة الخطاب. أعني أنه إيجاز في القصر أحياناً وفي الحذف أحياناً أخرى، كما في قوله عليه السلام : (اللهمّ إنك أمرتني فتركتُ، ونهيتني فركبتُ...)[٩].

بحذف المفعول به في الجملتين، والتقدير. فتركت الأوامٍر، وركبت المعاصي. أو قوله عليه السلام (أنت الذي أردتَ فكان حتماً ما أردتَ)[١٠]، إلى غير هذا من المحذوفٍات عن قبيل حذف المبتدأ أو الخبر أو الفاعل.

كما أنه ليس إيجازا من خلال حذف المشاهد كما نلاحظ في القرآن الكريم، وهذا مرتبط بطبيعة موضوع الدعاء الذي ينشرحٍ فيهٍ الصدر فيسترسل في طلب حاجته، خاصة إذا كان المخاطب ربّا كريما رحيما سميع الدعاء.

ويمكنك أن تتذكر معي خطاب سيدنا موسى عليه السلام لربّه : (قال هي عصاي أتوكأ عليها، وأهشّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى)[١١] هذا الذكر في (هي) الذي يمكن الاستغناء عنه، وهذا الاستئناس (وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى) هو ترسُّل في الحديث وإطناب فيه للتلذّذ في حضرة الرب الكريم وللاستئناس في أجواء رحمته، كما يُشير علماءُ البلاغة والتفسير.[١٢]

إذاً أجواء الدعاء والركون إلى وجه الله ورحمته وغفرانه والالتجاء إليه مما فيه العبد من كرب وضيق و ظلامات، وما تعتريه من حالات حزن وفقر وابتلاءات، كل هذا يساعد على استرسال الداعي و إطنابه في الحديث عن ذنوبه التي يعترف بها أمام ربه، وفي الحديث عن صفات الربّ

الغفور، ثم في الحديث عن الحاجة إلى عتق الرقبة من العذاب الأليم.

ومن الناحية الأسلوبية نشير إلى أن هذا الإطناب قد يكون من خلال الإكثار من الصفات من مثل قوله عليه السلام (اللهم اسقنا غيثا مُغيثا، مريعا ممرعاً عريضا واسعاً غزيرا)[13]. وقد يكون من خلال العطف بالمفردات من مثل قوله عليه السلام: (اللهم صل علي محمد وآله. وارزقني صحة في عبادة، وفراغا في زهادة، وعلماً في استعمال و ورعاً في إجمال)[14]، وقوله عليه السلام : (... وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتّقين، في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضيل، وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق، والقول بالحق ولو عزّ، واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قلّ من قولي وفعلي...)[15].

كما قد يكون هذا الإطناب من خلال العطف بالجمل كقوله عليه السلام: (اللهم صل على محمد وآله، وشرّف بنيانه، وعظّم برهانه، وثقّل ميزانه، وتقبّل شفاعته، وقرّب وسيلته، وبيّض وجهه، وأتِمَّ نوره، وارفع درجته، وأحينا على سنته، وتوفّنا على ملّته، وخذ بنا منهاجه، واسلك بنا سبيله، واجعلنا من أهل طاعته، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، واسقنا كأسه)[16].

ولعلّك تلحظ معي أن هذا الإطناب سواء كان في الصفات أو عطفٍ المفردات أو عطف الجمل، يتخذ طابع الترادف في الدلالات والمعاني فـ(غيثا مغيثا، ومريعا ممرعا) صفات قد يغني بعضها عن بعض، و (لين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح وطيب المخالقة) مفردات معطوف بعضها على بعض، وقد يغني بعضها عن بعض لأن معانيها

مترادفة ومتشاكلة، كما أن (وأحينا على سنته، وخذ بنا منهاجه واسلك بنا سبيله)، جمل فعلية معطوفة على بعضها يمكن أن يؤدّي بعضها دلالة بعض.

ولكنه الترسل والإطناب الذي يستدعيه مقام الدعاء، على أنه يمكن القول بأننا لو حذفنا المتشابهات والمترادفات من هذه الصفات والمعطوفات من المفردات والجمل، فهل يبقى للأسلوب جمال أو حلاوة ؟ بل هل تبقى له موسيقى وتنغيم فضلاً عن بلوغ هدف واستراحة نفس وقرار ضمير؟

إن هذا الإطناب لا ينبغي أن يفهم خارج الإطار النفسي لحظة الإنشاء والإبداع. فإذا قيل بأن البلاغة الإيجاز[١٧]، فإنها مناسبة مقتضى الحال كذلك[١٨] فللكلام مقامات وأجواء، فقد يفيد الإيجاز في بعض الأجواء وقد لا يفيد، وقد يفيد الإطناب في بعض المقامات، وقد لا يجدي[١٩]. ولا تحسب أنك تعتقد أن مقام الدعاء والمناجاة ولقاء العرفان والإخلاص مع الله يستدعي اقتضاباً في الكلام. فعلى الرغم من أن الله يعلم ما نريد، ويعلم ما توسوس به نفوسنا وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ولكنه يحب العبد المخلص الملحاح في الدعاء، ويحبُّ العبد الذي يبسط أعذاره بين يدي ربّه، ويكثر من ذكره واستغفاره[٢٠].

على أننا يمكن أن نلاحظ هذا الطابع من الإطناب في أساليب العلماء والكتاب المعاصرين للإمام زين العابدين عليه السلام كالحسن البصري الذي طلب منه الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يصف له الإمام العادل، فقال : (اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كلّ مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوّة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كلِّ ملهوف)[٢١]، بهذا الترسل وهذا الترادف في المفردات.

وكان يمكن للبيان العربي أن يُفيد كثيراً من أساليب العطف هذه في القرآن الكريم، وفي الحديث وفي الآثار الأدبية المختلفة لولا سوء المناهج في

تناول هذه الظاهرة، كما نلاحظ الدكتور عفت الشرقاوي[٢٢].

ثالثاً ـ تنوّع الأساليب :

لا يعني أن الإطناب نوع من التكرار الذي لا داعي له، بل له دواعٍ نفسيّة وفنية، وقد ورد منه في القرآن الكريم على الرغم من الإيجاز المميّز له. ولقد أشرنا إلى أن للإطناب صلة وثيقة بموضوعِ الدعاءِ، فالدعاء نوع من الذكر الكثير الذي أشار إليه القرآن : (واذكروا اللّه كثيراً)[٢٣].

ومع هذا الإطناب فإن الإمام عليه السلام يعرض أدعيته بأساليب متنوعة، وبأدوات كثيرة كما سنلاحظ.

وإذا تذكرنا أن دعاء الصحيفة دعاء فردي وجماعي يهدف إلى تربية الأمة وإبقائها مرتبطة بعقيدتها التي تعرضت إلى مظاهر العودة إلى الجاهلية على يد السلطة الأموية، فإننا سنلاحظ أن الإمام عليه السلام قد لا يتوجه إلى اللّه سبحانه بالدعاء في بعض الأحيان، بل يتحدث عن مفاهيم إسلامية قرآنية يعرضها عنٍ طريق تمجيد اللّه، بمعنى انه يعرض المفاهيم بأسلوب خبري وليس إنشائيا على الطريقة المألوفة في الدعاء. خذ مثالاً على هذا في قوله عليه السلام : (الحمدُ للّه الذي دلّنا على التوبة التي لم نُفدها إلاّ من فضله، فلو لم نعتدد من فضله إلاّ بها لقد حَسُن بلاؤه عندنا، وجلَّ إحسانه إلينا، وجَسُمَ فضلُهُ علينا، فما هكذا كانت سنّتُهُ في التوبة لمن كان قبلنا. لقد وضع عنا ما لا طاقة لنا به، ولم يكلّفنا إلاّ وسعاً، ولم يُجشّمنا إلاّ يُسرا، ولم يدعْ لأحد منّا حُجّةً ولا عذرا. فالهالك منّا من هلك عليه، والسعيد منا من رغب إليه)[٢٤].

فلسنا هنا إزاء خطاب موجّه للّه، بل هو حديث تربوي موجّه إلى الأمة يوضح لها فضلِ اللّه عليها. بنعمة التوبة، ولهذا استلزم أن يكون هذا الحديث مغايراً في أسلوبه لأساليب الدعاء المعهودة، ولما كان الإمام لا يدعو

لنفسه فقط في كثير من الصحيفة، فهو يدعو لوالديه، وأولاده، ولجيرانه، وللمجاهدين من أهل الثغور، وللمسلمين عامة، لما كان الأمر كذلك كان تلوّن الأساليب وتعدد أوجه الخطاب في الدعاء، بل تعدد الضمائر وتنوعها من الخطاب إلى الغيبة، ومن الأخبار إلى الخطاب مما يُسمّى بـ(الالتفات) لدى علماء البلاغة.[٢٥]

وفي الغالب من أدعية الصحيفة أن الإمام يبدأ بتمجيد الله والثناء عليه في أسلوب خبري، ثم يثني بطلب ما يريد، والسؤال عما يقصد. وهذا غالباً ما يكون بصيغ إنشائية من أمر ونهي بأغراضهما المجازية المعروفة. وقد يبدأ بنداء الله نداءً يحمل معاني التحميد والتكريم بما هو أهله، ثم يتخذ ذلك وليجة إلى الدعاء (يا من لا يخفى عليه أنباء المتظلّمين، ويا من لا يحتاج في قصصهم إلى شهادات الشاهدين، ويا من قربت نصرتُهُ من المظلومين، ويا من بعد عونُهُ عن الظالمين..... اللهمّ فصلّ على محمد وآله، وخذ ظالمي وعدوّي عن ظلمي بقوّتك، واقللْ حدَّهُ عني بقدرتك.....)[٢٦]. ومن المعلوم لدى علماء البلاغة أن النداء كثيراً ما يصحَبُه أسلوب إنشائي من أمر ونهي، ويقل أن يُصحَب بجملة خبرية[٢٧]. وقد يطول تمجيد الإمام لله بأسلوب خبري حتى لتحسّ أن ليس وراءه للإمام مطلب غير التمجيد ذاته، كما هو واضح في دعاء (عرفة) وغيره من الأدعية الطويلة.

وفي أسلوب النداء هذا كثيراً ما ينوّع الإمامُ في ذكر المنادى، فيبدأ بـ (اللهم)، أو يا ربّ، أو يا من، وأحيانا يحذف أداة النداء فيقول: (إلهي).....

ومن أسلوب النداء يوظف الإمام أسلوب الاستفهام بطريقة مثيرة للالتفات، مما لم يكن مألوفاً كثيراً في أدعية الناس، ومما يجعله خصيصة متميّزة من خصائص أدعية الصحيفة. ومع أسلوب الاستفهام تشهد حالة الضعف والانكسار التي يبديها الإنسان أمام ربه خاصة في حالات اقترافه

الذنوب، وارتكابه المعاصي، ونسيانه مراقبة الله وعقابه.

وأنت تشهد أدعية الإمام بصورة تحسّ معها وكأن الإمام قد اقترف جرائم الخلق كلها. وما هو كذلك، ولكنه موقف العبد المنيب الذي لا يأمن من عذاب الله. مثلما لا ييأس من روحه ورحمته. انظر إلى مثل هذا الدعاء المستفهم: (هل أنت يا إلهي راحم من دعاك فأبلغ في الدعاء؟ أم أنت غافرٌ لمن بكاك فأسرعَ في البكاء ؟ أم أنت متجاوز عمن عفّرَ وجهه تذلّلاً ؟ أم أنت مغنٍ من شكا إليك فقره توكلا ؟)[٢٨].

ثمّ ينوّع أدوات الاستفهام فيقول: (فمن أجهلُ منّي يا إلهي برُشدِه؟، ومن أغفلُ مني عن حظه؟، ومن أبعدُ مني من استصلاح نفسه؟).

ومع تعداد الأدوات الاستفهامية تتعدد أغراض الإمام بعيدا عن الدلالة الظاهرية للاستفهام، فتكون الاستكانة وإظهار الضعف والترحّم، ويكون التعظيم والتمجيد، كما يكونُ النفي (فمنْ أجهلُ مني؟) لا أحد في الوجود أجهل منا وأكثر تقصيرا منّا، وأكثر ذنوبا منا... فسُبحان الذي منّ علينا بالأداة التي تُعيننا على شكره، وبالبيان الذي نبسط به حاجتنا إليه، وحمداً لله الذي منّ علينا بأهل بيت النبوّة الذين يعلموننا طرق الاهتداء إليه وسُبُلَ العروج إلى رحمته.

حقا إنه ليطول بنا المقام إذا نحن وقفنا عند الأساليب المتعددة في أدعية الصحيفة من نداء واستفهام وتعجب وأمر ونهي وتمني وخبر. ويكفي أن نشير إلى أن هذا التعدد ظاهره بارزة لها دلالتها الفنية مثلما لها دلالاتها النفسية، وتتشابك الدلالتان لتعطيا الصحيفة قيمتها الأدبية الرائعة التي تشدّ القارئ لها وتحدث سحرها في نفسه، خاصة إذا كان ممن خشع قلبه وصفتْ قريحتُه، فرفع صوته بها في أطراف الليل وآناء النهار.

ونود أن نشير فقط إلى دعاء واحد، وهو الدعاء السادس عشر وهو

بعنوان : (وكان من دعائه عليه السلام إذا استقال من ذنوبه أو تضرع في طلب العفو عن عيوبه)، لتلاحظ مدى التنوع في أساليب التعبير فيه. فكل مقطع منه يبدأ بأداة تختلف عن الأخرى، وبالتالي تؤدي إلى أسلوب مغاير للأسلوب السابق عليه. ولا نذكر لك هنا إلا استهلالات المقاطع : (اللهم يامن... أنت الذي... أنا الذي... هل أنت... إلهي لا تخيّب... فكم من ذنب... من يا إلهي... سبحانك ما أعجب... اللهم خفف عني...).

مما لا يَمَلُّ معَهُ داع، ولا يسأمُ منه سائل. وكيف يمل صاحب الحاجة العظيمة، وطالب الأمل الكبير،... غفران الله ورحمته ؟!.

رابعاً ـــ الاقتباس والتضمين :

أشرنا في بداية البحث إلى صدور أدب الصحيفة عن البيئة العربية النقية والأثر القرآني البارز، وليس في وسع هذه الصفحات أن تقف وقفة مفصلة لأثر القرآن في مجال لغة الصحيفة وصورها وتنغيمها، فهي آثار واضحة لمن يقرأ الصحيفة قراءة متأنية. ونريد ان نقف عندما سمي بالاقتباس والتضمين في علم البديع.

ومن الضروري أن نشير بدءا أن علم البديع ليس كله لعباً لفظياً، كما يفهم من كثير من الدراسات الحديثة، بل منه ما هو شديد المساس بالمعنى وتقويته ومنحه إمكانية التأثير في متلقيه.[٢٩]

ومن المعلوم أن الاقتباس أو التضمين في أدب القرن الأول الهجري كان اقتباسا وتضمينا فطريا ولم يكن ناتجا عن رغبة في البراعة وإظهار القدرة والمنافسة كما هو الحال في أدب المتأخرين. واقتباس الإمام من هذا النوع الطبيعي الذي تنعكس فيه ثقافة المتكلم دون تكلف وهو يستعين بالقرآن لأنه يفتح قلبه لمنزّل القرآن، فيدعو الله أحياناً بدعاء القرآن نفسه، وأحياناً يتوسل بوعده. فيقدم للآية التي يذكرها بقوله : (أن قلت)، أو كما قلت في

محكم كتابك، أوِ كما وعدت، انظر إلى قوله: (اللّهم إني وجدتُ فيما أنزلتَ من كتابك، وبشَّرتَ به عبادك أن قلت : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا)[٣٠].

وإذا وصف المؤمنين استعان بصفاتهم في القرآن، وإذا ما وصف الكافرين ذكر الصفات التي وصفهم القرآن بها، فينقل الآية نقلا حرفيا، وفي أحيان أخرى يُجري عليها بعض التغيير بما يناسب السياق التعبيري، من مثل قوله: (اللهم إني أتوبُ إليك في مقامي هذا من كبائر ذنوبي وصغائرها... وقد قلت يا إلهي في محكم كتابك إنّك تقبل التوبة عن عبادك، وتعفو عن السيئات وتحبّ التوّابين...)[٣١]. وهذا مأخوذ من آيات عدة، ومن مواضع مختلفة من القرآن[٣٢].

وإذا كان هذا يشكل تجاوبا نفسيّا من لدن الداعي بأن يخاطب ربه بكلامه، فإنه بالنسبة إلينا نحن المتلقين لا يقل أثرا في أحداث ذلك التجاوب. فقارئ الصحيفة سوف يجعل من كلام الإمام كلاما له، يخاطب به الله ويناجيه بكلام من القرآن مباشرة أو من إيحاء القرآن وأجوائه بالطريقة التي لا يكون فيها الاقتباس مباشرا.

وما من شك في أن هذا التأثر بالقرآن والاستشهاد بالقرآن هو النوع المحمود الذي أثنى عليه العلماء وهو فوق ما سمّوه بـ(المقبول) أو ما سموه بالمباح أو المردود[٣٣].

أن الإمام الذي رضع من لبان القرآن وتربّى في بيت النبوة، وفقه علم القرآن من أبيه الحسين وجدّه علي أبي طالب اللذين أخذا علومهما من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) لا يتعامل مع القرآن تعاملا فنيّا فقط، بل تعاملا شرعيّا يأتي معه الفن في الدرجة الثانية ليساعد المعنى على إحداث الأثر المطلوب في نفس السامع أو القارئ.

بقي أن نشير إلى انه بإمكان الباحث أن يتتبع أثر الحديث النبوي

الشريف في الصحيفة كما تلاحظ في قوله مخاطباً ربّه : (يا من لا تنقضي عجائب عظمته)[٣٤]، وهو مأخوذ من قوله (صلى الله عليه وآله وسلّم) في وصف القرآن (لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الردّ)[٣٥]. كما أن الباحث يستطيع أن يجد أثر خطب الامام علي ورسائله وحكمه في دعاء حفيد الامام علي بن الحسين، قبل أن تجمع هذه الخطب والرسائل في (نهج البلاغة) بل وعاها من أبيه الحسين ومن جو البيت النبوي الذي نشأ في كنفه. كما تلاحظ مثلاً في قوله : (... وأحي به ما أماته الظالمون من معالم دينك)[٣٦].

وهو مستوحىً من كلام أمير المؤمنين في قوله : (اللّهم إنّك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردَّ المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك)[٣٧].

خامساً ــ التنغيم :

من الطبيعي أننا لا نتحدث عن الصحيفة باعتبارها أثراً شعرياً، أو أثراً من سجع الكهان، حيث تكون الموسيقى من خلال الأوزان في الشعر، أو من خلال السجع المتكرر في النثر المصنوع. بل أن أدب الصحيفة نثر لا هو من الشعر ولا هو من الكلام المسجوع المتكلف. إنه ـ كما أوضحنا ـ حديث الطبع والفطرة حيث يتدفق تدفقا، وينثال انثيالا.

ولكن هذا الحديث الفطري يعتمد السجعة التي تأتي على سجيتها، كما ينطلق الضوء من أشعة الشمس أو يتضوّع العطر من الورد دون ضغط أو إكراه.

ومن المعلوم أن هذه السجعة ذات وظيفة أكثر من كونها شكلاً موسيقياً محضاً، بل ذات تأثير في إيصال المعنى واستجاشة ضمير المتلقي بما للنغم

من شحنة عاطفية متصلة بالمعنى والسياق. ومن المعلوم أن الأدب القرآني توفر على هذه السجعة أحيانا بما سمي بالفاصلة، تمييزا له عن النثر المسجوع.[38]

وإذا تتبعنا السجعة في الصحيفة فإننا نجدها أكثر ما تكون بين الاثنتين والثلاث وقلما تزيد على ذلك، وحين تنتهي هاتان السجعتان تأتي مشابهات لها، وقد لا تأتي حيث يُرسلُ الكلام إرسالا.

فمن أمثلة السجعتين المتجاورتين قوله عليه السلام : (اللهمّ صلِّ على محمد وآله، واكسر شهوتي عن كلِّ محرم، وازوِ حرصي عن كلِّ مأثم)[39].

ثم لا تأتي بعدها فاصلة ميميّة. ومن أمثلة الوقفات الثلاث المسجوعة قول: (اللهمّ صلِّ على محمد وآله، وتوّجني بالكفاية، وسُمني حسن الولاية، وهب لي صدق الهداية. ولا تفتنّي بالسعة وامنحني حسن الدعة)[40] حيث جاء بعدها سجعتان من حرف آخر، وهكذا تتوالى الجمل منغمة مما يحدث تطريبا يتجاوز الآذان إلى أوتار النفس فيهزها هزّا، ويزيدها تعلقا بالفكرة والسياق.

وحتى النهايات الجملية التي لا تنتهي بالسجعة فانّها تماثل سابقتها في الصيغة أو الوزن، شأنها شأن الفواصل القرآنية غير المسجوعة، من مثل خواتم الآيات في سورة (النبأ): (ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سباتا، وجعلنا الليل لباسا)[41]، فانه وإن كانت الآيات غير متشابهة في حرف الروي ولكنها متشابهة في الوزن والصيغة (أوتادا ـ أزواجا)، (سباتا ـ لباسا).

ومثل هذا التوافق غير المعتمد على حرف متكرر من الروي نجده في قول الإمام في الاستعاذة من الشيطان (واجعل آباءنا وأمهاتنا وأولادنا، وأهالينا وذوي أرحامنا... منه في حرز حارز، وحصن حافظ، وكهف مانع)[42]. فالفواصل مثل : (حارز، حافظ، مانع) على صيغة واحدة من الوزن مما

يجعلها شبيهة بالسجعات المعتمدة على الحرف المتكرر.

بالاضافة إلى هذا التنغيم الذي نجده في السجع، أو تماثل الصيغ وتشابهها في أواخر الجمل أو الصفات، نجد تنغيما معتمدا على تكرار الكلمات أو تكرار الحروف من مثل تكرار (سبحانك) عدّة مرات[٤٣] أو من مثل قوله: (اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريعا ممرعا عريضا واسعا غزيرا)[٤٤]. في هذا الصوت المنبعث من الغين والتاء والميم والعين، وأكثر من ذلك التنوين الذي يُرافق كل كلمة، مما يحدث هزة في الإحساس خاصة وأنت ترفع صوتك بهذا النداء المنبعث من أعماق من يستغيث وقد جفَّ كل ما في الوجود حوله. فيكون الاستسقاء وسيلته إلى الفرج، ووجهته التي أمره الله أن يتجه إليها في مثل هذه الحالة، كما هو معلوم من السنة النبوية المطهرة في انحباس الغيث عن الناس.

وقد تجد التنغيم المرتبط بأداء المعنى وحسن توصيله وعمق تأثيره في ذلك التناسق الفني المبثوث في دعاء الصحيفة، التناسق في طول الجمل وقصرها. فالجملة القصيرة تجاورها جملة قصيرة، والطويلة إلى جوارها طويلة. مما يجعلنا أمام أثر فني متفرد لا هو بالشعر الموزون ولا بالنثر الذي لا نغم فيه ولا موسيقى. وهذا كثيرا ما يتجاوب مع الحس العربي واللغة العربية التي تعتمد تراكيبها على أوزان معينة قريبة من أوزان الشعر، حتى ان الاستاذ العقاد سمّاها باللغة الشاعرة في كتابه الموسوم بهذا العنوان.

ويمكنك أن تنظر معي إلى ثلاث صورٍ من الصيغ أو الجمل :

١ـ وارزقني صحة في عبادة، وفراغا في زهادة، وعلما في استعمال وورعا في إجمال.[٤٥]

٢ـ اللهمّ اختم بعفوك أجلي، وحقق في رجاء رحمتك أملي، وسهّلْ إلى بُلوغ رضاك سبلي.[٤٦]

٣ـ اللهم إن أحداً لا يبلغ من شكرك غاية إلاّ حصل عليه من احسانك ما يلزمُهُ شكرا، ولا يبلغ مبلغاً من طاعتك وإن اجتهد إلاّ كان مقصّراً دون استحقاقك بفضلك[٤٧].

فالنموذج الأول غاية في القصر بحيث لا يمثل جملة، والثاني جملته متوسطة الطول، والثالث طويلة. والمهم ليس في قصر الجملة أو طولها، بل في تماثلها مع جارتها مما يشكل نسقاً موسيقيا خاصا يرتبط بالمعنى وتوصيله، وليس حلية أو زينة كما يحلو للمتحدثين عن البديع عموما، وعن السجع خاصة.

وبشكل عام فان دعاء الصحيفة ينبعث رخيّاً هادئاً يدخل الأعماق برضا واستئناس لأنه مناجاة العبد التائب المخبت اللاجئ إلى ربّه، كما تلحظ في دعائه عليه السلام في ذكر التوبة وطلبها: (اللهمّ يا من لا يصفه نعت الواصفين، ويا من لا يجاوزه رجاء الراجين، ويا من لا يضيع لديه أجر المحسنين، ويا من هو منتهى خوف العابدين، ويا من هو غاية خشية المتقين...)[٤٨].

في هذا المد الذي تمثله (يا) النداء (خاصة في الجهر بالدعاء). وفي المد الآخر الذي تمثله الياء الملحوقة بالنون التي تطرب الأذن، فضلا عن الجو التائب الراجي الخائف المنيب الذي يحيط بالنص.

على أننا في مواضع أخرى من الصحيفة وهي مواضع قليلة، لا نجد هذا اللين في الدعاء، وهذه الرخاوة في النغم، بل نواجه الألفاظ القوية الجازمة، خاصة في الدعاء على الأعداء والرجاء من الله أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ويمكن أن تنظر في جانب دعائه عليه السلام لأهل الثغور المدافعين عن حدود دولة الاسلام: (اللهمّ افلُلْ بذلك عدوّهم، وأقلمْ عنهم أظفارهم، وفرّق بينهم وبين أسلحتهم، واخلع وثائق أفئدتهم، وباعد بينهم وبين أزودتهم، وحيّرهم في سبلهم واملأ أفئدتهم الرعب، واقبض أيديهم

عن البسط، واخزم ألسنتهم عن النطق، وشرّد بهمْ مَن خلفهم، ونكّل بهم مَن وراءهم...)[49].

وهو دعاء يذكرنا بدعاء سيدنا نوح عليه السلام على قومه المجرمين : (ربّ لا تذرِ على الأرض من الكافرين ديّارا، إنّك إن تذرهم يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا)[50]. حيث ينتقل الدعاء الرخيّ الهادئ إلى دعاء على الأعداء، والكافرين بالنقمة والمحق والتبار، وهو معنى يستدعي ما يوازيه أو ما يعبر عنه من ألفاظ نارية ذات وقع على السمع حاد، وعلى النفس صلب قاس.

ولكن الغالب على الصحيفة غير هذا، الغالب عليها النداوة والمبتهلة الراضية المطمئنة وهو الغالب في أدعية القرآن، ولعلّ أقرب دعاء يقفز إلى الذهن دعاء سيدنا زكريا في سورة مريم (قال ربِّ إني وهن العظمُ مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكنٍ بدعائك رب شقيّاً، وإني خِفتُ الموالي من ورائي، وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا...)[51]. وقد أشار الدكتور صبحي الصالح إلى هذا الفارق في النغم واللغة والموقف بين دعاء سيدنا نوح ودعاء سيدنا زكريا (عليهما السلام).

خاتمة :

كان بالامكان الوقوف عند محطات فنية ونفسية أخرى تتعلق بالطابع الأدبي للصحيفة فضلا عن طابعها الديني والأخلاقي الذي يحمل في طياته توجيها سياسيا واجتماعيا مقصودا. ولكن هذه الاشارات المقتضبة ربما تساعد على اعادة النظر في موضوعات الأدب التي تدرس في المدارس الثانوية والجامعات. وهي موضوعات على ما طرأ عليها من جدة في العهد الحديث، فانّ دارسي الأدب يكررون الحديث عن الأغراض المعلومة من فخر وهجاء ورثاء ووصف وزهد، ورسائل واخوانيات وتوقيعات ومقامات،

ولكنهم لا يشيرون في شيء إلى أدب الدعاء عند الامام السجاد أو عند غيره استهانة بالموضوع نفسه، وهي استهانة تلحق الأدب والفن الذي صيغت به تلك الأدعية.

وقد أشرنا في بداية البحث إلى الأجواء السياسة والثقافية العامة في العهد الحديث، وهي أجواء خلقها الاستدمار (الاستعمار) والتغريب، وفحواها الحديث عن كلِّ شيء من أدب الدنيا، والابتعاد عن كل شيء من أدب الدين !.

ولعلَّ في الصحوة الصادقة التي تهزّ الأمة اليوم وتشدّها إلى أصالتها وحضارتها، الأملِ الكبير الذي يعيد لهذه الامة ريادتها، ووسطيتها التي كرّمها الله بها وكلفها بها كذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

[1]- تنظر مقدمة الصحيفة، للسيد محمد باقر الصدر، طبعة دار الأضواء، بيروت.

[2]- ينظر خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الغربي الحديث، دار الكتاب اللبناني، بيروت : ط٢، س؟، ص ٢٠٠.

[3]- ٦ / ٣٣.

[4]- ١٣ / ٥٠.

[5]- البقرة / ١٨٦.

[6]- ٤٩ / ١٦٥.

[7]- ٣٢ / ١١٣.

[8]- ٤ / ١٤٢.

[9]- ٣٢ / ١١٣.

[10]- ٤٧ / ١٦٥.

[11]- طه / ١٧.

[12]- د. عبد العزيز عتيق / علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م. ص ١٤٥. وينظر الكاشف للزمخشري /ح ٢ص ٥٣٣.

[13]- ١٩ / ٦٥.

[14]- ٢٠ / ٧٥.

[15]- ٢٠ / ٧٠.

[16]- ٤٢ / ١٣٩.

[17]- الرمزية في الوطن العربي / مكتبة نهضة مصر، القاهرة ط؟، ١٩٥٨، ص ٤٤.

[18]- علوم البلاغة / دار الكتب العلمية، بيروت، ط؟ س؟، ص ٤١.

[19]- علم المعاني / ص ٢٠٢.

[20]- ينظر ابن حنبل : ٤ / ٢١١، وابن ماجة : ٢ / ٢٩٢. وفي هذا أحاديث كثيرة. ينظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

[21]- الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية / مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٨، ص ٩٤.

[22]- بلاغة العطف في القرآن الكريم / دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨١، ص ٦٢.

[23]- سورة الجمعة / ١٠.

[24]- ١ / ١٩.

[25]- علم البديع / د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط١،

١٩٨٥، ص ١٤٢.

[٢٦]- ١٤ / ٥١.

[٢٧]- علوم البلاغة / ص ٩٧.

[٢٨]- ١٦ / ٥٦.

[٢٩]- أثر القرآن في الشعر العربي الحديث / د. شلتانج عبود، دار المعرفة، دمشق، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٠٥.

[٣٠]- ٥٠ / ١٩٨.

[٣١]- ٣١ / ١٠٤.

[٣٢]- تنظر آية الشورى / ٣٤، وآية البقرة / ٢٢٢.

[٣٣]- جواهر البلاغة / أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، س ؟، ص ٤١٦. ويمكن الإشارة هنا إلى أن الباقلاني جعل تضمين القرآن مكروهاً في الشعر وليس في مواعظ النشر، وهذا موضع تأمل. انظر إعجاز القرآن / دار المعارف، بمصر، تحقيق السيد أحمد صقر، ط٤، ١٩٧٧، ص ٢١١.

[٣٤]- ٥ / ٢٩.

[٣٥]- البيان في تفسير القرآن / دار الزهراء، بيروت، ط ٤، ١٩٧٥، ص ١٩، وتنظر سنن الدارمي، ح٢، ص ٤٣٥.

[٣٦]- ٤٧ / ١٧٢.

[٣٧]- نهج البلاغة / شرح محمد عبدة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط؟، س ؟، ح ٢، ص١٣.

[٣٨]- التعبير الفني للقرآن / دار الشروق، بيروت، ط٢، ١٣٩٦ هـ، ١٩٧٦ م، ص ٢٠٣.

[٣٩]- ٣٩ / ١٢٨.

[٤٠]- ٢٠ / ٧٤.

[٤١]- تنظر آيات ٦ ـ ١٠، وينظر : الفاصلة القرآنية، دار المريخ الرياض، ط١، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، ص ٩٧.

[٤٢]- ١٧ / ٦٣.

[٤٣]- ينظر تسبيح الإمام عليه السلام / ص ٢١١.

[٤٤]- ١٩ / ٦٦.

[٤٥]- ٢٠ / ٧٥.

[٤٦]- الدعاء نفسه / والصفحة نفسها.

[٤٧]- ٣٧ / ١٢٣.

[٤٨]- ٣١ / ١٠٤.

[٤٩]- ٢٧ / ٩٥.

[٥٠]- نوح / ٢٧، ٢٨.

[٥١]- مريم / ٣، ٤.

المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأول

الامام والصحيفة ٩

الفصل الثاني

مفهوم الدعاء في الاسلام ٢٥

الفصل الثالث

العرفانية الربانية في الصحيفة ٤١

الفصل الرابع

منهج يومي للسلوك ٧٧

الفصل الخامس

البعد الاخلاقي في الصحيفة ١٠٥

الفصل السادس

البعد السياسي في الصحيفة ١٣٥

الفصل السابع

الصحيفة السجادية والنفس الانسانية ١٦١

الفصل الثامن

الخصائص الفنية للصحيفة ١٨٣

شلتاغ عبود

- من مواليد مدينة الحي في العراق عام ١٩٤٧.
- انهى دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية بالبصرة.
- أكمل دراساته العليا بالجزائر، دكتوراه في الأدب العربي من جامعة الجزائر عام١٩٨٤.

آثاره

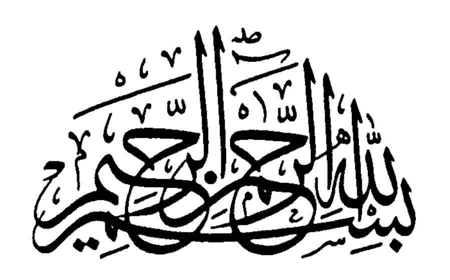
١- أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دمشق ١٩٨٢.
٢- حركة الشعر الحر في الجزائر، الجزائر ١٩٨٥.
٣- الملامح العامة لنظرية الشعر الاسلامي، دمشق ١٩٩٢.
٤- الأدب والصراع الحضاري، دمشق١٩٩٣.
٥- الاعجاز القرآني: فناً ومضموناً،بيروت ١٩٩٥.
٦- العربية لغير المتخصصين (بالاشتراك) ٥ أجزاء، جامعة سبها ١٩٩٨.
٧- مدخل الى النقد الأدبي الحديث،عمان١٩٩٨.
٨- تطور الشعر العربي الحديث،عمان ١٩٩٨.
٩- في عوالم القرآن: ألف سؤال وجواب،دمشق ١٩٩٩.
١٠- الثقافة الاسلامية بين التغريب والتأصيل، بيروت٢٠٠١.
١١- منهج الامام السجاد في التوحيد والتربية (هذا الكتاب).

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبدالجبار الرفاعي

❑ الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
❑ علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
❑ المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
❑ اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
❑ اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
❑ اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
❑ جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
❑ فقه التحيز	عبد الوهاب المسيري
❑ اسلمة الذات	كامل الهاشمي
❑ نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
❑ القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
❑ مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
❑ تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبد الجبار الرفاعي
❑ قضايا التجديد	حسن الترابي
❑ نزعة التغريب	جلال آل احمد
❑ الدستور والبرلمان	جعفرعبد الرزاق
❑ الفكر الاسلامي: تطوراته و مساراته	زكي الميلاد
❑ علم الاستغراب	حسن حنفي
❑ الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
❑ المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
❑ أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
❑ اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
❑ مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني
❑ الثقافة الاسلامية بين التغريب والتأصيل	شلتاغ عبود
❑ الواقع والمثال في الفكر الاسلامي المعاصر	جمال عطية
❑ فقه النظرية عند الشهيد الصدر	باقر بري
❑ محاولات للتفقه في الدين	حسن الخليفة
❑ الصراع الاجتماعي في القرآن الكريم	غالب حسن
❑ المنهج الفقهي عند الشهيد الصدر	محمد الحسيني
❑ المنهج البنائي في التفسير	محمود البستاني
❑ الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر	مرتضى المطهري
❑ منهج الامام السجاد في التوحيد والتربية	شلتاغ عبود



بسم الله الرحمن الرحيم